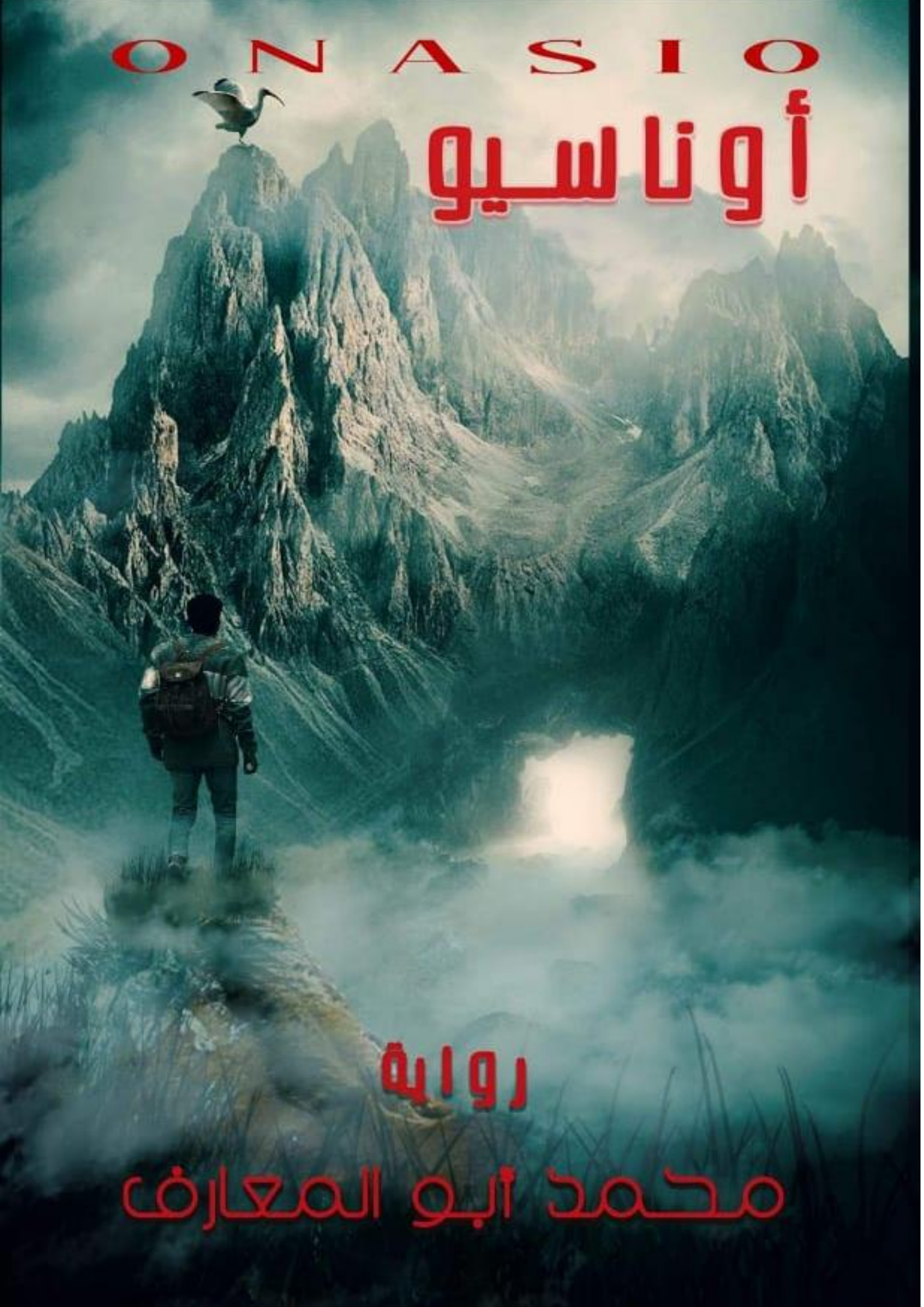
ONASIO
أوناسيو
رواية
محمد أبو المعارف

عنـــوان الكتاب:	أُوناسيو
الكاتـــــــب:	محمد أبو المعارف
الطبعة الأولـــى :	2023 م
تصميـــم الغلاف:	مروة سلامة
مراجعة لغويـــة:	محمد فتحي
تنســـيق داخلـــي:	محمد إمام

حقوق الطبع محفوظة للناشـــر

وأي اقتباس أو تقليد أو نشر دون موافقة كتابية يُعرض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب لا غير.

إهداء

إلى صاحبة الثلاثة عشر ربيعًا التي أرسلت لي يومًا رسالة تقول فيها إنها استطاعت تجميع ثمن كتابي وستقابلني في معرض الكتاب لتحصل على الكتاب وعليه توقيعي، فأعجبني شغفها وحماسها وانتظرت قدومها لأفاجئها، في اليوم التالي خرجت من القاعة لأجلب شيئًا من الخارج فوجدتها تجلس بالمطعم وتأكل، وحين انتهت من الأكل دخلت في عراك مع النادل لأنه يطلب منها خمسين جنيهًا وهي لا تملك سوى ثلاثين جنيهًا، فذهبت ودفعت للنادل كل المبلغ فدمعت عيناها من شدة الحرج فقلت لها ممازحًا: الكتب أشهى أم الأكل؟

قالت: الكتب تأخذنا إلى عالم آخر.

قلت: والأكل؟

تنهدت ثم أجابت: الأكل هو العالم الآخر.....

إليك أيتها القارئة الصغيرة المَرِحة أهدي روايتي.

****

ويحدث أن تنفر من واقعك الأليم الذي لا تجد فيه غير النبذ والشقاء فتذهب لمضجعك كارهًا غير راغب لتهرب من واقعك فتتفاجأ بأحلامك هي أشد ألمًا وأكثر شقاءً من واقعك!

فأين المفر؟

ويحدث أن تنفر من عيون النبذ التي تلاحقك في كل شارع وكل بقعة تطؤها قدميك فتركن في بيتك منعزلًا ومنزويًا عن الناس وتحبس نفسك فيه وتُغلق عليك بابه وكل نوافذه لا يزورك فيه زائر ولا يراك راءٍ، لا تشعر إلا بنسمات الهواء الخفيفة التي تداعب أنفك لتبقيك على قيد الحياة، ولكنك تتفاجأ أيضًا بأن كل ركن بالبيت فيه ذكرى مؤلمة يضيق بها صدرك ولا تحتمل عناء ذكراها فتشعر بأن منزلك أضيق عليك من كفة الحابل! فأين المفر؟ وكيف السبيل؟

****

الحلم نفسه، والأحداث نفسها، والأشخاص أنفسهم، والمكان نفسه لم ينقص منه جدار ولم يزيد، ما زال يراودني هذا الحلم منذ خمسة شهور وهو يتكرر معي كل ليلة!

"كن قويًا؛ فالحياة لا ترحم الضعفاء"

واستعد لتحصل على العلامة، ولن يحصل عليها إلا القوي)!!!"

تتردد على مسامعي تلك الكلمات وأنا ممدد على طاولة خشبية داخل معبد فرعوني وأكون مقيدًا حينها بالسلاسل الحديدية في كل جسمي ما عدا يديّ محررتين.

يظهر رجل نحيل الجسد أصلع الرأس بعينين خضراوين بارزتين ويرتدي ملابسَ فرعونية ويمسك بيده خنجرًا حديديًا بمقبض ذهبي وطرف صخري بلوري ونصله مزين بزخارف زهرة الزنبق وحيوان ابن آوى، يستعد لغرز خنجره في بطني، فأمسك بيده وأحاول إبعادها عني وأصيح بأعلى صوتي مستنجدًا بأختي وأصرخ قائلًا: إيمان....إيمان..

فجأة أسمع صوت إيمان وكأنها تتحدث داخل أذني وهي تردد: فارس... فارس... استيقظ يا فارس.

أستيقظُ وأفتح عيني، فأجد إيمان بجانبي فألتقط أنفاسي بصعوبة وأزدرد ريقي ويهدأ روعي ويسكن قلبي ويلازمني الصمت.

تتساءل إيمان قائلة: هل تكرر معك نفسك الحلم؟

فأهز لها رأسي وألوذ لصمتي.

تبتسم وتقول: لا بأس، ربما يحدث معك هذا نتيجة الضغط العصبي الذي تواجهه طوال يومك.

تمسح بيدها على رأسي وهي تتمتم ببعض الآيات من القرآن وحين تنتهي تقول: سيزول هذا البؤس عما قريب، سأذهب لأعد لك فطورك، وأنت قم وتوضأ لتصلي الصبح أولًا ثم نأكل سويًا.

تخرج إيمان من الغرفة فأقوم من على سريري وأخرج من غرفتي فأجد السيد سليمان جالسًا بالصالون ومنشغلًا في قراءة الصحيفة الإخبارية اليومية، أنظر إليه وأردد في نفسي قائلًا: ليت هذا العجوز لا يسألني عن الحلم اليوم.

فجأة أجده يحدق إليّ بعينيه الضيقتين من أعلى نظارته الزجاجية الضخمة التي تتدلى على أرنبة أنفه ويقول ساخرًا: هل تكرر نفس الحلم معك الليلة أيها الجبان؟

فأجيبه بهز رأسي مع ابتسامة مصطنعة ولا أنبس ببنت شفة.

اعتدت الرد على هذا السؤال بهز رأسي وكفى، سواء سألتني إيمان، أو سألني السيد سليمان، فلا داعي لسرد ذلك الحلم كل يوم والأحداث كما هي لا تتغير.

يضع السيد سليمان الصحيفة جانبًا ويقول متسائلًا: هل قاومت في حلمك اليوم؟

فأجيب: لا، لم أقاوم.

يزم السيد سليمان شفتيه ويرد بحنق: إذًا فاعلم أيها الجبان أن الحلم سيتكرر معك كل ليلة ولن يتغير شيء لطالما أنت ضعيف هكذا ولا تقاوم لتدافع حتى عن نفسك.

تنهدت وقلت بغضب: كيف أقاوم؟ كلما بدأ الحلم أكون ممددًا على ظهري على طاولة خشبية كبيرة ومقيدًا بالسلاسل الحديدية في كامل جسمي إلا يديّ فقط محررتان، ويحتاط بي ستة رجال بملابس فرعونية وطول كل واحد منهم يتجاوز الأربعة أمتار! كيف أقاوم وأنا في تلك الوضعية ومحاط بهؤلاء العمالقة؟

فيجيب: ألم تسأل نفسك لماذا يداك محررتان؟

فربما هي إشارة لك، وربما سينتهي ذلك الحلم حين تقاوم وتتحرر من قيودك تلك.

صمت السيد سليمان هنيهة ثم أردف: وتلك الجملة أيضًا، ربما هي إشارة لك "كن قويًا؛ فالحياة لا ترحم الضعفاء" ربما الشخص الذي يأتيك في حلمك وهو يوشك أن يغرز خنجره في بطنك يريد إخبارك أنه سيتوقف عن مطاردتك في حلمك حين تصبح قويًا وتمتلك ما يكفي من الشجاعة لتتحرر من قيودك تلك، فربما لو تحررت من قيودك ستتحرر من حلمك هذا مدى الحياة.

تنهدت وقلت: وتلك الجملة الأخرى؟ "استعد لتحصل على العلامة، ولن يحصل عليها إلا القوي"

_ لا أدري، ربما يقصد نهاية حلمك.

_ ربما ذاك.

ران علينا صمت خفيف فقطعه السيد سليمان قائلًا: هل تتذكر شكل الخنجر الذي يحمله ذاك الرجل الفرعوني؟

قلبت طرفيّ في كل اتجاه ثم نظرت إليه وقلت بشغف: نعم أتذكره جيدًا.

أحضر لي السيد سليمان قلمًا وورقة وطلب مني رسم ما أتذكره من الخنجر، بدأت برسم الخنجر وحين انتهيت قلت: هو ليس كذلك ولكنه يشبه تلك الرسمة إلى حد قريب.

أخذ السيد سليمان الورقة مني ونظر للرسمة وصار يتأملها فاتسعت حدقتا عينيه فجأة وقال بذهول: مستحيل، هذا خنجر توت عنخ آمون!

_ ما هو خنجر توت عنخ آمون؟

_ لقد وجدوه ملفوفًا بجنبه حين اكتشفوا مومياءه، يقال أن الحديد المستخدم في صناعة الخنجر تم جلبه من الفضاء أو من أحد الكواكب الأخرى وهو ليس موجودًا على كوكبنا هنا.

_ وهل استطاع الفراعنة الوصول للفضاء أو دخول أحد الكواكب الأخرى؟

_ ليست هناك أدلة قاطعة على وصولهم للفضاء، ولكن يقال إنهم رصدوا الأجرام السماوية.

_ وكيف صنع توت عنخ آمون خنجره إذًا إن لم يصلوا للفضاء أو لم يدخلوا أحد الكواكب؟

رفع حاجبيه بحيرة ولم ينبس ببنت شفة.

****

ذهبت لعملي وبقيت طوال اليوم أفكر في ذلك الحلم وفي كلام السيد سليمان، وصرت أحدث نفسي متسائلًا: هل باستطاعتي حقًا التحرر من تلك السلاسل وهؤلاء العمالقة؟

هل الأمر بتلك السهولة؟

فأجيب: ربما الأحلام تختلف عن الواقع يا فارس! وربما أمتلك القوة في حلمي لأتحرر من تلك السلاسل الحديدية بسهولة.

ولكن!

ما تلك العلامة يا تُرى؟ وما علاقة خنجر توت عنخ آمون بالحلم؟

هل تظن أن ذلك الحلم هو يعبر عن واقعك؟

_ لا، لا، ليس كل حلم له علاقة بالواقع، فالأحلام تحدث دائما أثناء نومنا، الحلم يشبه جلوسك أمام التلفاز لتشاهد فيلمًا تكون فيه أنت المُشاهد والممثل معًا وفي الوقت نفسه، ورغم علمك بأن هذا من وحي الخيال إلا أنك تبكي لبكائهم وتضحك لضحكهم وتتألم لألمهم.

_ولكن؛ عليك أن تفعل شيئًا لتتحرر من حلمك هذا، عليك بتغيير تصرفك في حلمك ولو لمرة واحدة، فربما استطعت التحرر من هذا الكابوس المزعج.

انقضى اليوم كله وأنا طوال الوقت شارد الذهن حائر الفكر لا أهتدي لخطة محددة من تلك الخطط التي ازدحم بها عقلي والتي أسعى لتنفيذها في حلم الليلة، ولكني عزمت أن تكون تلك الليلة مختلفة واستثنائية عن كل الليالِ السابقة، ولطالما امتلكت الإرادة لفعل شيء فقد امتلكت القوة، وإن امتلكت القوة فقد هان عليّ كل شيء.

****

جنّ الليل وعم الهدوء قريتنا واضجعت في فراشي في وقت مبكر في تلك الليلة وأنا أردد المعوذتين وأقرأ آية الكرسي وتمددت على فراشي وأغلقت عيني وكأنني أذهب لحلمي بإرادتي تلك المرة.

فتحت عيني فوجدت نفسي مقيدًا كعادتي بالسلاسل الحديدية وممددًا على ظهري على طاولة خشبية كبيرة مصنوعة من الخشب المتين، وجدت الشخص المعتاد الذي يرتدي الملابس الفرعونية قادمًا نحوي ويمسك في يده خنجر توت عنخ آمون المُلفت بمقبضه الذهبي اللامع ونصله المزين والمزخرف بزخارف زهرة الزنبق، وحين وصل إليّ ابتسم ابتسامته المعهودة ووضع يده على بطني أعلى سُرَّتي وبدأ يتحسس بيده تلك المنطقة من بطني وعاد ليبتسم مرة أخرى واقترب بخنجره وهمّ ليغرزه في المنطقة التي ما زال يضع يده عليها فأسرعت وأمسكت بيده كالمعتاد وحاولت إبعادها عني، ولكني تلك المرة لم أستنجد بأحد ولم أنادِ على إيمان كعادتي لتوقظني مثلما كنت أفعل في المرات السابقة، بقيت أقاوم يده حتى شعرت بخفة يده وتفوقي عليه فقمت بجذب السلاسل الحديدية بواسطة يديّ وأبعدتها بعيدًا عن جسمي فتقطعت السلاسل الحديدية وسط دهشة ذلك الرجل الفرعوني ودهشة الحراس العمالقة من حوله ودهشتي أنا شخصيًا، وقفت على قدميّ بعدما استطعت التحرر من تلك السلاسل فوجدته ينظر إليّ بذهول وقد اتسعت حدقتا عينيه وقال: لقد صرت الآن قويًا وتستحق العلامة، فغرز خنجره أعلى سُرَّتي وأردف قائلًا: لقد انتهت مهمتي اليوم.

واختفى من أمامي فجأة وكأنه صار هواءً لا يُرى.

لا أدري لماذا لم أستطع صد طعنته تلك، ولم أحاول حتى لصدها، شعرت وكأن شيئًا منعني من صدها، بقيت واقفًا في مكاني واضعًا كلتا يديّ على مكان الطعنة لأمنع تدفق الدم منها، لا أفعل شيئًا سوى النظر لمكان الطعنة بتعجب وذهول شديدين، بعد صمت طويل صرخت صرخة مدوية أسرعت على إثرها إيمان لتوقظني، فتحت عيني فوجدت إيمان أمامي وهي تمسك بيدي، نظرتُ صوب النافذة الموجودة بغرفتي فوجدت الظلام يخيّم على المكان بالخارج فقلت لإيمان متسائلًا: كم الوقت الآن؟

_ الواحدة بعد منتصف الليل.

رفعت حاجبي متعجبًا وأنا أنظر ل إيمان فقالت متسائلة: لماذا الحلم جاءك باكرًا تلك الليلة؟ لقد اعتدنا عليه أن يأتيك في الصباح لأوقظك، لقد كان الحلم قبل اليوم بمثابة منبه لك ولنا لنستيقظ.

كنت أشعر بالتعب الشديد حينها ولم أجد القوة لأتحدث مع إيمان وأجيبها على سؤالها، شعرت بألم شديد أعلى سرتي فوضعت يدي على مكان الألم وصرت أئن من شدة الألم فتساءلت "إيمان" وقالت: هل تؤلمك بطنك؟

_ تؤلمني قليلًا.

_ سأذهب لأعد لك شرابًا ليخفف ذلك الألم.

حين همّت بالمغادرة تشبثت بيدها وقلت لها بصوت واهن: أنا بخير يا إيمان، أشعر أنني بحاجة للنوم فقط.

لاحت على وجهها ابتسامة خفيفة فهزت رأسها وتركتني وخرجت من الغرفة.

عدت فوضعت يدي على منطقة الألم أعلى سرتي وأنا أتساءل: هل طعنة ذلك الفرعوني هي طعنة حقيقية؟ أم أني أتوهم؟

اعتدلت من نومتي وجلست ورفعت ثوبي فوجدت شامة بيضاء دائرية الشكل مكان الألم، كانت بارزة عن الجلد قليلًا، انتابني الرعب حينها وتساءلت في سريرة نفسي: متى جاءت تلك الشامة؟ لم أولد بها ولم تكن موجودة من قبل، ولم أرَ من قبل شامة بيضاء كهذه من حيث لونها الأبيض الطاغي وبروزها عن بقية الجلد؟

ازداد الرعب بداخلي وتسارعت دقات قلبي، وأنا ما زلت أحدث نفسي: هل هذا هو مرض البُهاق؟

لا، فمرض البهاق يكون سطحيًا في الجلد نفسه لا يكون عبارة عن شامة بيضاء بارزة كهذه.

تنهدت فقلت: لو رأت إيمان أو السيد سليمان تلك الشامة البيضاء ربما يحسبانها مرضًا أو ما شابه، لا بدّ عليك أن تُخفي عنهما هذا الأمر يا فارس، سأخبرهما فقط إنني استطعت التحرر من حلمي بعدما تحررت من السلاسل الحديدية وضربت ذلك الرجل الفرعوني ضربًا مبرحًا حتى قتلته وقد قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة إنني حر منذ اليوم.

****

أنا فارس، عمري الآن واحد وعشرون عامًا، أعيش أنا وأختي إيمان التي تصغرني بثلاث سنوات والسيد سليمان في قرية بني حميل بمحافظة قنا إحدى المحافظات في صعيد مصر.

توفي أبي وأمي في حادث سير حين كان عمري أربعة أعوام فتكفل السيد سليمان برعايتنا، يقول لنا السيد سليمان أنه كان يعمل مع أبي في إحدى وكالات الفضاء المملوكة لرجل ثري يُدعى السيد ناصر في العاصمة القاهرة.

نعيش في قريتنا كالغرباء، لا أصدقاء لنا ولا جيران تربطنا بهم أية علاقة، حتى في طفولتنا كنا منبوذين في قريتنا، فلا يُسمح للأطفال حينها أن يلعبوا معنا أو حتى يتخذانا صديقين لهم.

يقول لنا السيد سليمان عن سبب النبذ هذا هو أن كل سكان تلك القرية يظنون أن والدي هو المتسبب في زعزعة أمن واستقرار تلك القرية، فهم يظنون أن أبي دخل لكهف نجوسو الواقع أسفل جبل بني حميل الموجود بقريتنا وبعدها اختفى مدة عشر سنوات ثم عاد ومن يومها وأصبح الكهف يختطف كل من يقترب إليه من بعد غروب الشمس مباشرة في ظاهرة غريبة ومُحيرة.

ولكن قصة السيد سليمان عن أبي وأمي أنهما كانا عائديّن من زيارة لعائلة أمي في الإسكندرية فانقلبت بهما السيارة في البحر في طريق عودتهما ولم يتم العثور عليهما.

تبدو القصة غريبة نوعًا ما، فإن كانت لأمي عائلة بالإسكندرية فكيف لم يسأل عنا أحد من عائلتها بعد وفاتها!

ولكننا نصدق قصته تلك على أي حال، فالسيد سليمان هو لنا بمثابة الأب والصديق والعائلة وهو يقول أن وصية والدي له قبل وفاته بأن يمكث معنا في قرية بني حميل وأن لا نغادرها مهما حدث.

يوجد في قريتنا أغرب جبل موجود بمصر وهو جبل بني حميل التي سميت قريتنا باسمه وهذا الجبل به من الغرابة مالا يستوعبه عقل، يقع بأسفل الجبل من ناحية الغرب كهف نجوسو الشهير وحول بابه كثير من النقوش

الفرعونية التي نُقشت على الجبل من قِبَل القدماء المصريين والتي تدل على الانتقال إلى الحياة الأخرى.

الغرابة في هذا الكهف لا تتوقف عند النقوش الفرعونية فحسب، الشيء الغريب الآخر هو اختطاف الكهف لكل من يقترب إليه بعد غروب الشمس مباشرة حتى صار الكهف رمزًا للرعب بالقرية.

والأكثر غرابة تلك اللافتة المُعلقة بجانب باب الكهف والتي كُتب عليها "لا تأمن نجوسو فإنه يراك كما تراه" وكأن الكهف مخلوقً له عينان يرى مثلنا ويمكنه تمييز الشخص الواقف أمامه، يقال أن تلك اللافتة كتبها القدماء المصريين باللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) وقاموا بتعليقها على باب الكهف وكان يتم تجديدها كل بضعة سنوات ولكنها الآن صارت مكتوبة باللغة العربية.

بعد المئات من البلاغات من سكان القرية لعمدة قريتنا ومركز الشرطة الموجود بقريتنا بضرورة إغلاق محيط الجبل لما يسببه من مخاطر وأضرار بشرية ولكن الرد دائمًا كان يأتي بأن ذلك الجبل هو مزار سياحي كبير ويعتبر القوة الاقتصادية لقرية مغمورة كقريتنا تلك، فمن يخاف على ابنه أو ابنته فلا يسمح لهما بالذهاب خلف الجبل حيث كهف نجوسو وجحيمه، نحن نعلم بأن ثمة قوة خارجية تتحكم بالجبل، ربما شخص ما أو مؤسسة ما أو ربما قوة خفية لا نعلمها هي من تتحكم في قوانينه وتتعمد عدم إغلاق محيطه.

أنا تخليت عن دراستي في الثالثة عشر من عمري لأقوم بإعالة أختي إيمان التي تحلم بدخول كلية الطب منذ صغرها وهي الآن في نهاية الصف الثالث الثانوي وقد كنت أعمل حينها في ورشة للنجارة.

بعدما أتممت السابعة عشر من عمري وبمساعدة من السيد سليمان تم تعييني في شركة أمن خاصة تقوم بتأمين الجبل من حيث بلاغات السياح الأجانب من أية مضايقات، وضرورة إخلاء محيط الجبل من السياح بعد العصر مباشرة وقبل غروب الشمس خوفًا من أن يصيب أحد الأجانب أي ضرر، وقد تمت ترقيتي وجعلي المسؤول الأول والأخير عن أمن الجبل والكهف بعد عملي بشهر واحد فقط لسبب مجهول، والغريب في الأمر أن شركة الأمن تلك هي أيضًا مملوكة للسيد "ناصر"!

****

في يوم شديد الحرارة والشمس تكاد تُذيب النوافذ والأبواب من شدة سخونتها، فهكذا الطقس في صعيد مصر، يكون شديد الحرارة في الصيف، استيقظت من نومي بعدما استطعت التحرر من حلمي وذهبت إلى الصالون فجلست وقمت بتشغيل التلفاز فأقبل إليّ السيد "سليمان" من غرفته بعدما أصدر التلفاز صوت جلبة بالبيت، فلما رآني قال بتعجب: فارس! ألم تذهب لعملك اليوم؟

قلت: أشعر بالتعب الشديد اليوم، لقد أيقظتني إيمان في الصباح فأخبرتها أنني مُتعب ولن أذهب لعملي اليوم فتركتني وذهبت لتجلب نتيجة الثانوية العامة الخاصة بها .

نظر إلي وقال مبتسمًا: ألأنك المسؤول عن أمن الجبل تتمادى في إعطاء نفسك إجازات؟

_ أنا بالأصل لا أفعل شيئًا طوال فترة عملي، أشعر وكأنني أعمل إرضاءً لك أو إرضاءً للعلاقة القديمة التي كانت تربط أبي بالسيد ناصر.

صمتُّ هنيهة فأردفت: قل لي يا سيد سليمان، كيف تعرف السيد ناصر صاحب شركة الأمن هذه؟

_ ولمَ السؤال؟

_ كلما بادرت في فعل أي شيء أجد مَن يعملون معي يوقفونني ويطلبون مني الذهاب لتفقد الأرجاء حول الكهف خوفًا من أن يتسلل إليه أحد، وحين أسألهم عن إراحتي المتكررة يقولون أن تلك هي تعليمات السيد ناصر، وأيضًا كلما جاء في زيارة لنا يطلب مقابلتي دون الجميع ويسألني عن الجبل وعن الكهف وعن النقوش الفرعونية بجدران الكهف وكأنه يختبرني، وتلك الكتب التي أهداها لي وهي تملأ مكتبة غرفتي! لماذا كل الكتب متعلقة باللغة المصرية القديمة وبعض الرموز الغريبة؟ ما سبب إهدائه لي كل تلك الكتب؟

تنهد السيد سليمان وأجاب قائلًا: لقد كان صديقًا لنا أنا ووالدك أثناء عملنا في وكالة الفضاء المصرية قبل أن يؤسس وكالة الفضاء الخاصة به، فهو لم يتأخر عن مساعدتي حين طلبت منه أن تعمل بشركته.

_ وهل يُعقل أن يتم ترقيتي في عملي وجعلي المسؤول عن إدارة أمن الجبل بعد شهر واحد من عملي بشركته؟ أليس غريبًا أن يقدّمني على أشخاص هم أقدم مني وأكفأ مني؟

صمتُّ قليلًا ثم أكملت: وأيضًا في كل مرة يراني فيها يسألني إن كنت أجيد قراءة تلك النقوش الفرعونية حول الكهف وفك رموزها! ويسألني أيضًا عن الكتب التي أهداها لي، هل أقرؤها وأفهم فحواها أم لا! لماذا يطلب مني أن أتعلم لغة صعبة كاللغة المصرية القديمة؟

سيطر الصمت على وجه السيد سليمان وكأنه يعرف شيئًا ولكنه يخفيه عني فقطعت صمته قائلًا: أرجوك يا سيد سليمان إن كنت تعرف شيئًا فقله لي، فربما أجد تفسيرًا لنبذ الناس لنا هنا في قريتنا.

نظر إليّ متعجبًا وقال بحنق: أي شيء تقصده يا فارس؟

_ لماذا لا تقص عليّ كيف كان يعيش أبي، ما كان عمله في وكالة الفضاء تلك، كيف كانت أمي، لماذا جاء أبي إلى صعيد مصر وهو ولد وترعرع في القاهرة ودراسته وعمله كانا أيضًا في القاهرة، وعائلته كذلك يسكنون في القاهرة، ما الذي جاء به إلى هنا وهو لا يعرف أحدًا هنا؟

وضع يده على يدي وقال: صدقني يا فارس أنا لا أعرف شيئًا سوى ما قلته لك سابقًا.

وتابع: كما قلت لك سابقًا، كان والدك يشبهك كثيرًا، عيناه سوداوان مثلك وشعره أسود مثلك وطويل القامة وقوي البنيان مثلك تمامًا، وكان دائمًا يقول لي حين كان يداعبك أنت وإيمان: انظر يا سيد سليمان إلى فارس، لقد ورث مني كل شيء وورثت إيمان أمها في كل شيء، عيناها خضراوان مثلها وشعرها أشقر مثلها تمامًا.

_ لقد قلت لي كل هذا من قبل، فيمَ سينفعني لون عين أبي وأمي ولون شعرهما؟ أنا أريد أن أعرف ما علاقة أبي بالكهف، ولماذا الناس هنا بقريتنا تربط بين اختطاف الكهف للناس وبين أبي؟

_ كانت في البداية مجرد شائعات ولكن الأمر بعد ذلك تطور وأصبحوا يرددون تلك الشائعة حتى عرفها القاصي والداني والكبير والصغير والغادي والرائح.

_ والعشر سنوات التي اختفي فيها أبي، أين ذهب طوال تلك السنوات؟

نظر إليّ نظرة غاضبة وقال بحنق: اختفى؟ وكأنك تتحدث بلسانهم يا فارس! لقد قلت لك من قبل أن كل ما تسمعه عن والدك هي مجرد شائعات.

صمتَ هنيهة ثم تنهد وقال: ذهب والدك إلى الإسكندرية في رحلة عمل تابعة لوكالة الفضاء التي كنا نعمل بها، كان محددًا له في البداية أن يمكث عامًا واحدًا فقط ولكن أحد المدراء توفي هناك فاستمر والدك لعشر سنوات إضافية، وهناك تعرف على والدتك وتزوج بها وأنجبك أنت وأختك ثم عاد إلى هنا مرة أخرى.

_ وما علاقة أبي بكهف نجوسو؟

_ لا توجد أية علاقة على الإطلاق، كل ما في الأمر أن والدك كان يذهب إلى الجبل كثيرًا فظن الناس أنه يدخل ويخرج من الكهف.

_وهل استطاع أحد من قبل أن يدخل الكهف ويعود مرة أخرى.

ظهرت ملامح الغضب على وجهه فأجاب غاضبًا: من يختطفه الكهف أو يدخله بمحض إرادته هو الدخول بلا عودة، ولهذا أنا لا أسمح لأختك إيمان بزيارة الجبل منذ ولادتها.

قلت له بسخرية: تمنع إيمان وتوافق على عملي أنا بالجبل وبجانب الكهف؟

لاحت على وجهه ابتسامة خفيفة فقال: لقد أتممت عامك الواحد والعشرين يا فارس وقريبًا ستصير قويًا فلا خوف عليك.

غضنت حاجبيّ وسألته متعجبًا: وما علاقة العمر بالقوة؟

_ ستشعر بقوتك حين تهب من حولك العواصف فتسرق من أمامك أشياء تحبها، لو صمدت وكنت قويًا ستتمكن من استرداد اشيائك المحببة إليك، حينها ستعرف أن لا مكان للضعفاء في هذا الكون الفسيح.

قلت له متسائلًا: لماذا صور أبي تملأ غرفة إيمان وغرفتي، على الجانب الآخر لا نمتلك ولو صورة واحدة لأمي؟

_ لأن والدتك كانت تحتفظ بجميع أغراضها معها بالإسكندرية، ولو لم تنقلب بهما السيارة ويموتا لكنتما تمتلكان كثير من صورها الآن.

أثناء حديثنا فُتح الباب ودخلت أختي إيمان بوجه عابس مليء بالحزن ووقفت بجانب الباب وهي تومئ رأسها حزنًا وكمدًا فهرعت إليها وسألتها بقلق: إيمان، ما الذي حدث؟ لمَ كل ذلك البؤس؟ هل تعرض لكِ أحد، هل ضايقكِ أحد؟

رفعت رأسها ونظرت إليّ بحزن شديد ثم عادت لإطراقها فأجابت بصوت خافت: كنت قد وعدتني من قبل يا فارس إن نجحت في دراستي والتحقت بكلية الطب ستأخذني في جولة إلى جبل بني حميل، أليس كذلك؟

_ بلى، قد وعدتك بهذا.

كانت ساكنة في إطراقها سكونًا لا يتخلله حركة أو نأمة فتفهمت الأمر وقلت لها: لا بأس يا إيمان، لقد فعلتِ ما بوسعك، ومحاولتك بالنسبة لي هي أعظم من النجاح.

رفعت وجهها وقالت مبتسمة: ألا تثق بأختك أبدًا أيها الساذج؟ لقد نجحت وسألتحق بكلية الطب.

سمعت منها هذا فاحتضنتها وحملتها وأصبحت أدور بها حول نفسي وأنا أردد: أختي ستصبح طبيبة، أختي ستصبح طبيبة.

اقترب إلينا السيد سليمان فقال ل إيمان: مبُارك لكِ نجاحك يا ابنتي، ولو كان والديكِ يعيشان الآن لكانا أسعد الناس بكِ.

ردت إيمان قائلة: تقصد لكانا أسعد الناس بنا، فكما تعلم، فارس تخلى عن دراسته وضحى بمستقبله التعليمي من أجل أن أستمر أنا.

قلت لها مبتسمًا: نجاحكِ هو نجاحي يا إيمان، وسعادتكِ هي سعادتي، وحياتي أنتِ سعادتها.

رفعت حاجبيها وقالت: دعك من كلامك المعسول هذا وهيا فِ بوعدك لي.

ابتسمت وقلت: سأفي بوعدي لكِ ولكن لديّ منك أمنية.

_ وما هي؟

_ حين تصبحين طبيبة أكون أنا أول مريض تقومين بعلاجه.

رفعت حاجبيها وقالت بسخرية: ومن قال لك أنني سألتحق بكلية الطب البيطري أيها الساذج؟

أمسكت رأسها ولففت ذراعي حوله فصارت تئن من الألم وتستنجد بالسيد سليمان فقلت لها: تنعتيني بالساذج ونسيتِ أنني تعلمت تلك السذاجة منكِ أيتها الساذجة.

ضحك السيد سليمان ثم قال بجدية: هيا لتساعداني في تحضير الغداء وأجلا مزاحكما هذا.

بعدما أعددنا الغداء وجلسنا لنأكل قال لي السيد سليمان فجأة: فارس، متى تود الذهاب أنت وإيمان إلى الجبل؟

_ ربما غدًا بعد انتهائي من العمل.

احمّر وجهه وقال بغضب: هل جُننت؟

أنسيت تعليماتي السابقة، إيمان لا تذهب لذلك الجبل نهائيًا ولكن الأمر الآن أصبح استثنائيًا نظرًا لوعدك لها فلا مانع لديّ أن تذهبا ولكن هذا يكون قبل العصر لا بعده.

_ كيف يكون ذلك وأنا حينها سأكون منشغلًا عنها بعملي؟ ولو طلبت إجازة من العمل في الغد سيتم الرفض لأني حصلت على إجازة اليوم.

_ إذن انتظرا أسبوعًا آخر واذهبا يوم عطلتك الأسبوعية.

كانت إيمان تنصت لحديثنا وتأكل بلا أي اكتراث، تركت طعامها فجأة وقالت بحنق: رأيتكما تضعان لي الخطط والقوانين وكأن لا رأي لي.

وتابعت بنبرة غاضبة: أنا لست صغيرة، سأذهب بمفردي غدًا إلى الجبل.

ضحكتُ وقلت بسخرية: أنتِ تذهبين بمفردك؟!

رفعت حاجبها الأيسر وقالت ساخرة: نعم أذهب بمفردي، وأنا بمئة رجل منك.

ضحكت وقلت: هل تريدين مني أن أقص على السيد سليمان قصة القط الأسود؟

طأطأت رأسها وقالت بخجل: قصها عليه، أنا حينها كنت أمازحك ولكنك صدقت الأمر.

قاطعنا السيد سليمان قائلًا: قصها عليّ يا فارس وأنا سأحكم إن كانت تمزح أم لا.

تنهدت وقلت: في إحدى الليالِ وبعد منتصف الليل سمعت صوت باب غرفة إيمان يُفتح ويُغلق بقوة وسمعت صوت خطواتها وهي قادمة نحو غرفتي وهي بأقصى سرعتها فتظاهرت بالنوم وقمت بتغطية وجهي، فلما دخلت صارت تسعل بصوتٍ عالٍ لتوقظني ولكني ما زلت أتظاهر أني نائم، صارت تقلب في الأوراق بغرفتي وتقذفهم على الأرض لتصنع ضجيجًا يوقظني وأنا أموت ضحكًا أسفل الغطاء، صارت تُصدر أصواتًا مزعجة بالغرفة فرق قلبي لحالها ورفعت الغطاء عن وجهي وصرت أفرك عينيّ بكلتا

يديّ وتظاهرت بأنني استيقظت للتو من نومي فلما رأيتها قلت لها بصوت خافت: إيمان! ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟

قالت: لم أستطع النوم فجئت لأجلس معك، وقد حسبتك مستيقظًا.

لم أستطع كتمان ضحكاتي حينها وخرجت رغمًا عني وصرت أضحك بهستيرية وقلت لها: أنا لم أنم بعد أيتها الجبانة ولقد سمعت ورأيت كل شيء.

فصارت تبكي وقالت باكية: لو رأيت ما رأيته أنا لعذرتني.

قلت لها ضاحكًا: وماذا رأيتِ؟

أجابت: رأيت قطًا أسودًا يطل من نافذة غرفتي ويحدق لي بعينيه المُرعبتين.

ذهبت لغرفتها واقتربت من النافذة فضحكت وقلت لها: تعالي يا إيمان لا يوجد شيء هنا.

فلما اقتربت ورأت ما خلف زجاج النافذة أصابها الرعب فاستدارت خلف ظهري وقالت بفزع: ها هو خلف الزجاج يا فارس.

قلت لها ضاحكًا: إنها بومة أيتها الجبانة وليست قطًا.

قالت: وما يدريني أنها بومة، فرأسها وعيناها يشبهان القطط، ولو كانت بومة! فهل القط سيكون أكثر رعبًا منها؟.

ضحك السيد سليمان فقلت له: تلك هي إيمان التي تُعد بمئة فارس.

ران علينا صمت طويل فشهقت وقلت: بمناسبة نجاح إيمان أردت إخباركما بشيء ربما سيفرحكما.

ترك كلاهما انشغاله بطعامه ونظرا إليّ في تعجب وشغف فتابعت بعدما لاحت على وجهي ابتسامة عابرة: لقد استطعت التحرر من حلمي في الليلة الماضية.

رأيت حينها السعادة تبرز من وجه إيمان وهي تردد فرحًا: حقًا؟ ماذا فعلت، قص لي ما حدث بالتفصيل، لماذا لم تخبرني بهذا حين أيقظتك؟.

على الجانب الآخر كانت ملامح وجه السيد سليمان يغلب عليها التعجب والدهشة، وكأن شيئًا ما قد أهمه، وجدته يقلب طرفيه في كل جزء من جسمي وينظر لي نظر الأم الحنون لابنها المغترب الذي عاد من غربته بعد انقطاع دام لسنوات، كان ينظر لي وكأنه لم يراني منذ بضع سنوات، أو أن فارس الذي يعرفه سابقًا استحال الآن لشخص آخر غيري، قطع صمته ونظراته فقال متسائلًا: كيف عرفت أن الحلم انتهى؟

_ استطعت التحرر من تلك السلاسل وأخذت الخنجر من ذلك الرجل الفرعوني وقمت بطعنه عدة طعنات في بطنه حتى قتلته، وأثناء لفظه لأنفاسه الأخيرة قال لي "أنت حر الآن"

_ والعلامة؟

_ لا أدري، هذا ما رأيته في حلمي بالتفصيل.

عدنا لإكمال طعامنا وبقيت نظرات السيد سليمان تتابعني وهو لا يبعد ناظريه عني حتى شعرت بالتوتر.

قلت في سريرة نفسي: يبدو أن هذا العجوز لم يصدق قصتي تلك، أو ربما يعرف شيئًا ولكنه يُخفيه عني.

فجأة سمعنا صوت صراخ قادم من الشارع فهرعنا وفتحنا الباب فوجدنا السيدة إبتسام جارتنا والتي تسكن في البيت المقابل لبيتنا تجلس بمنتصف الشارع وتمسك بكفيها حفنتان من التراب وتلقيهما على رأسها وهي تصرخ وتنتحب.

وحين سألتها الناس عن سبب صراخها ونحيبها قالت إن ابنها مراد قد دخل الكهف ولم يعد.

فهممت بالذهاب إليها لأعزيها في ابنها فأمسك السيد سليمان بذراعي وقال: لا تذهب.

عقدت حاجبيّ وقلت بحنق: إلى متى سنظل هكذا لا نشارك الناس أفراحهم ولا أحزانهم، إنها الآن حزينة على ابنها فلن يحدث شيء إن ذهبت وعزيتها في ابنها فلربما خففت عنها بعض حزنها.

خرجت وسرت نحوها وقبل أن أصل إليها رفعت رأسها نحوي وحدقت لي بعينيها الحمراوين المنتفختين وقالت بغضب شديد: اغرب عن وجهي أيها المشؤوم، لا تقترب مني، فكل ما يحدث هنا بسببك أنت وأختك.

وقفت مكاني وقفة الذاهل المشدوه، وكأنني تفاجأت بما حدث، رغم يقيني بأن هذا ربما سيحدث ولكنني شعرت بالصدمة وكأن شخصًا ما قد طعنني في صدري طعنة قاتلة، كنت أنظر للناس من حولي نظر الحائر الملتاث وأرى نظراتهم متسلطة عليّ ما بين ساخر وضاحك ومستهزئ، جاء السيد سليمان فأمسكني من يدي وأدخلني البيت وأغلق الباب فقال لي بحنق: ألم أقل لك لا تذهب يا فارس.

اغرورقتا عيناي بالدموع وهي تتبادر للسقوط ولم أستطع النطق ولو بكلمة واحدة من هول ما حدث، فتركني السيد سليمان ودلف لغرفته وأغلق عليه بابه.

جلست على أحد الكراسي الموجودة بالصالون وأنا أحدث نفسي قائلًا: ما سبب كل هذا؟

لماذا الناس تعاملنا هكذا هنا؟

يبدو أن هناك سرًا، وأنا منذ اليوم كفيل بمعرفته وإن لم أستطع فسآخذ أختي ونخرج من تلك القرية الظالم أهلها.

اتجهت صوب غرفة إيمان فطرقت الباب ودخلت فوجدتها تجلس على سريرها وتبكي بكاءً شديدًا فقلت لها: هل أحزنكِ ما حدث؟

قالت بنبرة حزينة: لا، لم أحزن.

قلت: وبكاؤك هذا؟

نظرت إليّ وقالت بغضب: نعم حزنت يا فارس، ولا أعرف ما سبب كل هذا؟

عادت لبكائها وقالت بصوت باكٍ متقطع: ماذا فعلا أبي وأمي حتى تعاملنا الناس هكذا، ولماذا أبي قد أمر السيد سليمان أن نبقى هنا؟ لماذا لا نغادر تلك القرية لنتخلص من غربتنا هذه بداخلها.

وتابعت: في طفولتي كنت أتغاضى عن معاملتهم تلك ولم أكن أكترث حينها، فقد كنت طفلة صغيرة، كان يُخيل لي أن نظرات النبذ تلك ربما إعجاب أو اهتمام بي، أما الآن وقد صار عمري ثمانية عشر عامًا وحين أقف بمدرستنا بجوار إحداهن تقول لي ابتعدي عني أيتها المشؤومة ولا تقفي بجانبي، وفي فصلنا لا يجلس بجواري أحد، ماذا فعلا أبي وأمي يا فارس حتى تعاملنا الناس هكذا؟

ازداد بكاؤها وتابعت: ما يحدث لنا في تلك القرية لا يطاق يا فارس وغير عادل، فلا هم يتركوننا وشأننا ولا هم يخبروننا بحقيقة الأمر.

احتضنتها وصرت أبكي لبكائها وقلت لها: سأعلم كل ذلك يا إيمان، ومنذ اليوم سأسأل الجميع هنا ليخبروني عن سبب النبذ هذا.

_ وهل تظن أن يخبرك أحد هنا بأي بشيء، بل هل تظن أنهم سيوافقون على تحدثك معهم؟

_ إن استمروا في نبذنا ومعاملتهم تلك سنغادر القرية، وإن أراد السيد سليمان البقاء وحيدًا فليبقَ إذًا.

وضعتُ رأسها بين كفيّ وصرت أداعب بيدي خصلات شعرها الأشقر الأملس فقلت لها مبتسمًا: استعدي لرحلة الذهاب إلى الجبل في الغد.

قالت بسخرية: وهل تظن أن السيد سليمان سيوافق على ذهابنا؟ هو يرفض ذهابنا في الأيام العادية فكيف سيفعل بعدما اختطف الكهف مراد ابن السيدة إبتسام جارتنا؟

_ لن نخبره بما سنفعل، سنذهب غدًا بعد عودتي من عملي.

_ تقصد أن نذهب من دون معرفة السيد سليمان؟

ابتسمت وهززت لها رأسي وقلت: منذ اليوم سنعيش حياتنا كما نريد نحن، سنعيشها بجنون.

لاحت على شفتيها ابتسامة كبيرة وقالت بسعادة: متى سنذهب؟

_ بعد أذان العصر عندما يذهب السيد سليمان لصلاة العصر بالمسجد سأراقبه من الخارج وحين يدخل المسجد سآتي إليكِ وتكوني قد تجهزتِ ونذهب.

قالت مغتبطة: أخيرًا سأذهب إلى الجبل وألتقط لنفسي الصور بجانبه مثل كل الفتيات بمدرستنا.

خفضت صوتي وقلت لها بصوت خافت: صه، لا ترفعي صوتك حتى لا يسمعنا السيد سليمان.

_ سأتظاهر أني نائمة غدًا قبل العصر وأغلق غرفتي وأتجهز وأنتظر قدومك لنذهب.

خرجت من غرفة إيمان فوجدت السيد سليمان ذاهبًا لصلاة العصر فقال لي: متى ستذهبان إلى الجبل يا فارس؟

قلت: وهل يُعقل أن نفكر في هذا الأمر بعد ما حدث لمراد؟

ابتسم وقال: وأنا أيضًا أرى أن تؤجلا ذهابكما ليوم آخر.

دلفت لغرفتي وفتحت خزانة الملابس وأخرجت حقيبة أبي التي أعطاها لي السيد سليمان وقال لي أن والدي ذهب بها إلى الإسكندرية في رحلته الأولى وتركها قبل الحادث.

أمسكتها وصرت أستنشقها وأردد: ما هي قصتك يا أبي؟ هل كنت ظالمًا فكرهك الناس هنا، هل أنت حقًا المتسبب في اختطاف الكهف للناس؟ هل أنت من فتحت باب الكهف مثلما يردد الجميع هنا أم أن هناك قصة أخرى لا نعلمها؟

في الصباح ذهبت لعملي وبقيت طوال اليوم أفكر في نفسي عن مبرر أقوله للسيد سليمان عند عودتنا من الجبل، وأفكر أيضًا عن سبب تلك الشامة البيضاء!

لقد زال الألم منها، ولكنني لا أجد تفسيرًا لتلك الشامة وعن سبب ظهورها!

هل هي العلامة التي كان يقصدها الرجل الفرعوني في الحلم؟

ولو كانت كذلك، فما فائدتها وماذا تعني؟

بعدما تم إخلاء الجبل من كل السياح والزائرين عجلت بعودتي للبيت وأنا أسير بخطوات مسرعة، حين صرت قريبًا من البيت اتصلت على هاتف إيمان لأعرف كيف تسير الأمور بالداخل فقالت بصوت خافت إن السيد سليمان يتوضأ الآن وسيخرج بعد قليل.

بقيت واقفًا أراقب البيت فخرج السيد سليمان وصرت أراقبه حتى دخل المسجد، هرولت ناحية البيت ودخلت فوجدت إيمان بغرفتها فطلبت منها الإسراع، لم يمضِ سوى دقائق قليلة حتى خرجت بجمال لم أعهده من قبل، فقد كانت ترتدي فستانًا باللون الوردي وحجابًا باللون الوردي وحذاؤها كان أيضًا بنفس اللون مع لون بشرتها الأبيض الذي أضفى جمالًا لجمالها التي هي عليه ولولا أنها قالت لي هيا نذهب الآن يا فارس لظننت أنني أقف أمام وردة.

وجدتها تمسك بحقيبتي التي ورثتها من أبي فقلت لها متعجبًا: لماذا تلك الحقيبة؟

_ لقد أحضرتها من خزانة ملابسك لأضع بها بعض الطعام والماء.

_ أي ماء وأي طعام يا إيمان ونحن لن نمكث هناك إلا ساعة من نهار أو تزيد قليلًا.

_ سأفرغها من محتوياتها إذًا وأعيدها لغرفتك.

_ لا وقت لذلك، اتركيها الآن بغرفتك ولنفرغها بعد عودتنا.

خرجنا من البيت متجهين إلى الجبل فلما وصلنا وصرنا أمامه وقفت إيمان في مكانها مندهشة وهي تنظر للجبل من أعلاه إلى أسفله وتقلب طرفيها في كل بقعة فيه فقالت بذهول شديد: إنه جميل جدًا يا فارس ومختلف تمامًا عن تلك الصور التي رأيتها بهاتفك.

وتابعت متسائلة: هل سنصعد لقمته؟

_ وهل أحضرتك إلى هنا لنشاهده من الأسفل ونرحل؟ امسكي فستانك وارفعيه بيدك كي لا يتسخ من الرمال هنا.

أمسكت يدها وبدأنا في صعود الجبل فقلت لها ممازحًا: تلبسين فستانًا كهذا ونحن قادمان إلى الجبل وهو لا يبعد عن البيت كثيرًا، فماذا ستلبسين يوم زفافي إذًا؟

رفعت حاجبيها وقالت بحنق: ومن قال لك أن زفافك سيكون قبل زفافي أيها الساذج؟

وتابعت: وأيضًا لماذا تتعجل بالزواج أنت؟ فنحن النساء إن تعجلنا فلنا عذرنا أما أنت فلمَ العجلة؟ أتخشى أن يفوتك قطار الزواج؟

ضحكت وقلت: ما كل هذا الغضب، أنا لم أقل أن زفافي سيكون قبل زفافك، كل ما قلته، ماذا ستلبسين يوم زفافي!

قالت بسخرية: سألبس الفستان الأبيض لأنني سأكون أنا العروس.

بعدما وصلنا لقمة الجبل تركت إيمان يدي وتركت فستانها وصارت تنظر للبيوت بالأسفل بذهول وهي تصيح قائلة: انظر للبيوت يا فارس؛ كيف هي صغيرة جدًا، وانظر لنبات القمح؛ كيف يبدو كحصيرة صفراء كبيرة.

صارت إيمان تسير جيئة وذهابًا في كل الاتجاهات وأنا أرى السعادة تملأ وجهها فقلت في سريرة نفسي: لو كنت أعلم أنني سأرى كل تلك السعادة على وجهك لأحضرتك إلى الجبل منذ سنوات.

كانت إيمان تروح وتجيء في كل الأنحاء وهي مسرورة ومغتبطة، كانت تبدو كالطفل الصغير في مرحها والضجيج الذي كانت تُحدِثه كلما رأت بيتًا أسفلها

أو طائرة فوقها، بعد هنيهة من الوقت نظرتُ للشمس فوجدتها قد أوشكت على المغيب فقلت لها متعجلًا: هيا يا إيمان لنعود للبيت، فلو تأخرنا سيعرف السيد سليمان إننا جئنا إلى الجبل وسيأتي إلينا فيوبخنا على ما فعلناه.

نزلنا من الجبل وهممنا بالذهاب فتوقفت إيمان فجأة وصارت تبتسم فقلت لها متعجبًا: ما أوقفكِ؟

_ ألا نذهب لكهف نجوسو خلف الجبل؟

_ هل جُننتِ، لقد غربت الشمس وذهابنا إليه الآن خطر علينا.

صارت تلح عليّ وهي غاضبة فقلت لها: أعدكِ أننا سنعود مرة أخرى وآخذك للكهف.

قالت بغضب: أنا أعلم يا فارس إنني لن أعود إلى هنا مرة أخرى بعد معرفة السيد سليمان بما فعلنا.

وتابعت: أرجوك يا فارس، سنذهب وتلتقط لي صورة واحدة فقط أمام باب الكهف ولن نقترب منه.

تنهدت وقلت لها: هيا نذهب، ولكن لنسرع، وألتقط لكِ صورة واحدة فقط لا أكثر.

ارتسمت على وجهها ابتسامة كبيرة وهزت رأسها موافقة، ذهبنا خلف الجبل حيث كهف نجوسو فوقفنا أمامه على بعد مسافة آمنة فقلت لها: هيا التفي نحوي لألتقط لكِ تلك الصورة ونرحل.

وجدتها تسير نحو الكهف فصحت فيها غاضبًا: إيمان، لا تقتربي أكثر من ذلك نحو الكهف والتفي نحوي الآن.

ولكنها لا تجيب وتستمر في الاقتراب نحو باب الكهف فهرولت إليها مسرعًا فوضعت يدي على كتفها وقلت لها: إيمان، ما الأمر؟

نظرت إليّ نظرة هادئة وقالت بصوت هامس: لا أعلم، ولكنني شعرت بأن شخصًا ما يحدثني ويطلب مني دخول الكهف.

دب الرعب في كل جسمي وشعرت بقشعريرة مهيبة تسري فيه فقلت لها بقلق: هيا يا إيمان لنعود للبيت الآن.

قالت ضاحكة: لم أكن أعرف أنك جبان هكذا.

أمسكت بيدي وقالت: تعال لنشاهد تلك النقوش والرسومات حول باب الكهف.

قلت بغضب: هذا خطرًا علينا يا إيمان، لقد غربت الشمس للتو ووجودنا أمام باب الكهف ستكون عواقبه وخيمة.

لم أستطع إيقاف تلك المجنونة، وجدتني أقف بجانبها نتأمل الرسومات الفرعونية المنقوشة على الجبل بجوار الكهف، فأشارت بأصبعها إلى إحدى الرسومات وقد كانت الرسمة عبارة عن تابوت خشبي يحمله أربعة رجال ويشير لهم السهم أمامهم باتجاه باب الكهف فقلت لها: لقد كانوا يظنون أن دخول الميت لهذا الكهف هو انتقاله للحياة الأخرى.

سألتني بتعجب قائلة: وهل هناك حياة أخرى داخل الكهف؟

زفرت وقلت بضيق: قلت لكِ إنهم كانوا يظنون ذلك.

عادت وأشارت لأحد الطيور فأجبتها: إنه طائر الأبيس المقدس من قبل الفراعنة أو أبو منجل كما يطلق عليه الآن

_ ما هذا الطائر؟ ولماذا هو مقدس؟

_ هو طائر من فصيلة أبو ملعقة كان يستوطن مصر قديمًا وكان يرمز ويبجل له أثناء عملية التحنيط باعتباره إله الموت عند القدماء المصريين، وقد قاموا بتحنيط الآلاف منه وهو أكثر طائر تم تحنيطه من قبل الفراعنة نظرًا لقيمته ومكانته العظيمة عندهم وهو يرمز للحكمة أيضًا بمعتقدهم.

_ لماذا هذا الطائر بالذات؟

_ يقال أن هذا الطائر دائمًا ما كان يقف في الحد الفاصل بين اليابسة والماء، فظن المصري القديم أن هذا الطائر لديه القدرة على الانتقال بين عالمين.

_ أهناك عوالم أخرى غير عالمنا؟

زممت شفتي وقلت: ربما ذلك، لو فكرنا في الأشياء الخارقة التي صنعها الفراعنة ستكبر في عقولنا فكرة أن هناك قوة خارجية كانت تساعدهم.

صمتُّ هنيهة فقلت: والآن هيا لألتقط لكِ تلك الصورة ولنعود للبيت، لقد تأخرنا كثيرًا.

نظرت إليّ وهي تدير ظهرها للكهف فقالت: هيا التقط لي الصورة الآن.

أمسكت بالهاتف وهممت بالتقاط الصورة فهبت عاصفة شديدة وهي محملة بالرمال والأتربة، ظهرت بعدها دوامة ضبابية وصارت تدور حول نفسها واقتربت من إيمان فابتلعتها.

علقت إيمان داخل الدوامة وصارت تصرخ وتستنجد بي، رميت هاتفي بعيدًا وأسرعت إليها فوجدت شيئًا ما يقذفني بعيدًا و إيمان تصرخ بداخل الدوامة وما زالت تدور بها، نهضت وذهبت إليها مرة أخرى فمددت لها يدي لتتشبث بها ولكنني وجدت خيوطًا بيضاء تشبه خيوط العنكبوت تلتف حولها وتغطي كامل جسمها وتحركت بها الدوامة مسرعة ودخلت بها داخل الكهف.

ذهبت إلى الكهف مسرعًا لألحق بها فوجدت شيئًا ما يقذفني بعيدًا وكأنه يمنعني من الدخول.

صرخت ليسمعني أحد ولكن لا أحد هنا، فمن سيتواجد هنا والمكان يسيطر عليه الرعب والجميع يخشون القدوم إلى الجبل بعد غروب الشمس فهل من المعقول أن يتواجد أحد عند الكهف الآن؟

استمررت في الصراخ فرأيت من مسافة بعيدة رجلًا يهرول قادمًا نحوي، فلما اقترب وجدته السيد سليمان، حين وصل عندي صار ينهج ويلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وقال بصوت متقطع: ما الذي حدث يا فارس؟ وأين إيمان؟

قلت له بصوت متقطع: لقد هبت عاصفة وظهرت بعدها دوامة ضبابية فصارت إيمان بداخلها فالتفت حولها خيوط بيضاء ودخلت بها داخل الكهف.

صار يصرخ بغضب في وجهي ويوبخني على فعلتي تلك فقلت له غاضبًا: أرجوك يا سيد سليمان هذا ليس وقتًا للوم ولا الحساب.

وضعت كلتا يديّ على رأسي وصرت أبكي وقلت بصوت باكٍ: لقد خسرت أختي يا سيد سليمان، أريد أختي الآن.

أمسك السيد سليمان ذراعيّ بكلتا يديه وصار يضغط عليهما بقوة وقد برقت عيناه وقال بحنق: لا تبكِ يا فارس، الرجال تصمد وتقوى عزائمها وقت الشدائد، أما البكاء فهو حليف اليأس وقرين الضعف وصديق قلة الحيلة.

صمتّ هنيهة ثم أردف: لقد صرت اليوم رجلًا يا فارس، فمن المفترض أن تصمد وتواجه تلك العقبات بكل ما أوتيت من قوة، لا تجلس على قارعة الطريق تبكي وتنتحب وتشكو حالك للمارين.

هدأ بكائي قليلًا فنظرت إليه بعينيّ المنتفختين من فرط البكاء وقلت له بصوت متقطع: يا سيد سليمان، أنا لا أبكي مرثاة لحالي، إنما أبكي مرثاة لحال أختي، هي ليست قوية مثلي، قلبها رقيق نقي لا يعرف الحقد، لا يبغض أحدًا ولا يقسو على أحد، ومثل تلك القلوب حظوظها في الدنيا قليلة، فهي لا تكره وتُكرَه، ولا تبغض وتُبغَض، ولا تقسو ويُقسى عليها.

غصصت بريقي حتى أجد بِلة أحرك بها لساني فتابعت قائلًا: تلك الدموع هي ليست دموعي، تلك دموع إيمان، فإني أشعر بها وأشفق عليها، لا يليق بها ما حدث.

ربت السيد سليمان على كتفي وقال: هيا نعود للبيت يا "فارس"، ونفكر في حلٍّ لتلك المشكلة.

قلت بغضب: لن أغادر إلا ومعي أختي، سأظل هنا حتى يمكنني الدخول وإنقاذها.

زفر وقال: لا تحاول يا فارس، الكهف لا يختطف إلا شخصًا واحدًا بالليلة.

صرت أنظر حولي بحثًا عن هاتفي، رأيته مُلقى على الأرض بجانب الكهف فأسرعت إليه والتقطته فقال لي متسائلًا: ماذا ستفعل؟

أجبته قائلًا: لقد دخلت إيمان بهاتفها، سأتصل بها.

أمسك يدي وقال بحزن: هذا لن يجدي نفعًا، الهواتف لا تعمل داخل الكهف.

قلت: وماذا سيحدث إن حاولت؟

اتصلت على هاتف إيمان فوجدت هاتفها مغلقًا فنظرت للسيد سليمان فقلت له متعجبًا: كيف عرفت أن الهواتف لا تعمل داخل الكهف؟ وكيف عرفت أيضًا أن الكهف لا يختطف إلا شخصًا واحدًا بالليلة؟

بدا التوتر على وجهه وأجاب: لقد عرفت كل هذا من حديث بعض الناس بالمسجد.

وتابع: هيا لنعود للبيت لأسلمك رسالة والدك.

_ رسالة والدي؟ أي رسالة تلك؟

_ لقد ترك لك والدك رسالة كان قد كتبها بخط يده وطلب مني أن أسلمها لك حين تتم العشرين من عمرك.

_ لقد أتممت عامي العشرين منذ عام وبضعة شهور، فلماذا لم تخبرني بتلك الرسالة من قبل؟

_ كنت أظنها في البداية مجرد رسالة عادية، ولكن بعد ما حدث الليلة أدركت أنها ربما تساعدك في مشكلتك تلك.

ران عليّ صمت خفيف فقلت: وهل سأعود وأترك إيمان بداخل الكهف، هل سأستطيع العيش دونها؟

أمسك يدي وصاح قائلًا: لا تُحل الأمور هكذا يا "فارس"، لقد خلق الله الدنيا في ستة أيام وأنت تريد أن تصنع معجزة في ليلة واحدة؟ هيا لنعود للبيت الآن ونفكر سويًا في حل لذلك المأزق الذي وقعنا فيه.

عدنا للبيت فلما دخلنا قال لي السيد سليمان: ابقَ هنا حتى أجلب لك الرسالة وأعود.

دلف لغرفته فذهبت خلفه وصرت أراقبه من خصاص الباب فوجدته يرفع الحشية القطنية من فوق سريره الخشبي الصغير ويُخرج صندوقًا خشبيًا أسفل السرير وبه قفل حديدي، أخرج مفتاحًا من جيبه ففتحه وصار يقلب في الأوراق فالتقط ورقة وفتحها ولما قرأ ما بداخلها هز رأسه فأعاد باقي الأوراق إلى مكانها داخل الصندوق وأعاد الصندوق لمكانه تحت السرير، عدت مسرعًا قبل أن ينكشف أمري وجلست بالصالون ووضعت رأسي بين كفيّ فجاء وأعطاني الورقة.

فتحتها فوجدت مكتوبًا بداخلها "إن كنت تقرأ رسالتي الآن فاعلم أنك قد صرت قويًا، قريبًا ستعصف بك عاصفة، حينها لا تيأس، وفتش في أسرار صديقك قبل أن تفتش في أسرار عدوك، ولا تفصح عن هويتك إلا لجاسوس، وحافظ على دمائك فهي أغلى ما تملك، وابحث عن العلامات لتدلك على الخلاص، ولن يتمكن من رؤيتها إلا القوي"

نظرت للسيد سليمان فقلت له متعجبًا: ماذا يقصد برسالته تلك؟

هز كتفه وقال: لا أعرف.

عدت وقرأت الرسالة مرة أخرى فلم أفهم منها شيئًا سوى حديثه عن تلك العاصفة.

أخذت الرسالة ودلفت لغرفتي وجلست على السرير ففتحت الرسالة وصرت أقرأ بصوت جهوري: إن كنت تقرأ رسالتي الآن فاعلم أنك قد صرت قويًا!

لماذا السيد سليمان وأبي يربطان القوة بعمري؟

وما سر تلك القوة التي يتحدث عنها ذاك الرجل الفرعوني في حلمي، وتكرار حديث السيد سليمان عنها، والآن أبي؟

عدت لأكمل قراءة الرسالة "فتش في أسرار صديقك"؟

من يقصد؟

هل يقصد السيد سليمان؟

لا أفصح عن هويتي إلا لجاسوس؟!

وأحافظ على دمائي؟!

تركت الرسالة بجانبي وأمسكت برأسي وأنا أردد: لا أفهم شيئًا، ماذا يقصد أبي؟

انقضت تلك الليلة الحزينة وقد كانت أسوأ ليلة عشتها منذ ولادتي، فقد خلا البيت من أختي وصار البيت هادئًا وكأنه صحراء قاحلة لا يسكنها أحد، وصار موحشًا وحزينًا وكأن كل مَن فيه قد ماتوا.

لم أذق النوم طوال الليل، كنت أغفو قليلًا ثم يُخيل إليّ بأنني أسقط من فوق سفح جبل فأفتح عيني مرعوبًا وتتسارع ضربات قلبي ويجف حلقي فأزدرد ريقي وأعود للتفكير مرة أخرى في إيمان وما حدث لها.

تعالت أصوات زقزقة العصافير بالخارج وهي تغرد غادية ورائحة ما يوحي باقتراب شروق الشمس، فتحت نافذة غرفتي وأصبحت أرقب خروجها من بين الأفق، وما هي إلا دقائق قليلة حتى نشرت الشمس أشعتها الفاتنة على وجهي المنهك فأغلقتُ عيني وأطلقت تنهيدة كبيرة فقلت: لا والله؛ ليست تلك هي الشمس التي اعتدتها من قبل، وليست تلك هي نفس رائحة الأشجار ولا رائحة الهواء، وصوت العصافير ليس اليوم بالجمال الذي عهدته من قبل، سقطت على خدي بعض الدمعات كانت ساكنة في محجر عيني وقد كانت قبل ذلك لا تفيض ولا تغيض فقلت باكيًا: كان وجودك يا "إيمان" يُجمّل الأشياء في عيني، كانت عيناكِ كمرآة سحرية تنعكس فيها الأشياء لضدها، فكنت أرى النور في عينيكِ رغم عتمة حياتي، وكنت أرى

فيهما سروري وغبطتي رغم بؤسي وشقائي، وكنت أرى فيهما الأمل رغم يأسي وخيباتي.

أغلقت النافذة فمشيت وجلست على كرسي خشبي كان وسط الغرفة وأطرقت رأسي إطراقًا طويلًا لا يتخلله حركة ولا نأمة، فبكيت بكاءً شديدًا وقلت: كنت أحب الحياة من أجلك يا "إيمان" فوالله؛ إني أحبك حبًا معقودًا بحبل متين لا يحله إلا ريب المنون، والله؛ لن يهدأ لي روع ولا يسكن لي نبض حتى ألقاكِ أو أهلك دونك.

سمعت صوت خشخشة بالخارج فجففت دموعي وخرجت من غرفتي فوجدت السيد سليمان واقفًا بجوار باب البيت ويستعد للرحيل، اكتفيت بالنظر إليه ولم أحدثه، جلست وأطرقت رأسي في حزن وكمد، أخبرني إنه سيذهب إلى عمدة قريتنا ليخبره بما حدث وبعدها سيذهب إلى مركز الشرطة ليقدم بلاغًا باختطاف أختي فاكتفيت بهز رأسي له فخرج.

أنا أعلم أن عمدة قريتنا لن يفعل شيئًا، كل ما سيفعله هو أن يقول لك اذهب أنت الآن وسنخبرك بكل جديد، وكذلك مركز الشرطة، فهم يعلمون أن دخول الكهف يعني الموت، هو الدخول بلا عودة.

دلفت لغرفتي وجلست على سريري فنظرت للرسالة بجانبي ففتحتها وكررت قراءتها للمرة الثلاثين تقريبًا أو ربما أكثر، وضعت عيني على جملة "فتش في أسرار صديقك"

قلت في سريرة نفسي: يبدو أن أبي يريدني أن أفتش في غرفة السيد سليمان فلا أصدقاء لنا غيره، نهضت من مكاني مسرعًا ودلفت لغرفة السيد سليمان اقتربت من السرير ورفعت الحشية القطنية وسحبت الصندوق الخشبي من أسفله فوجدت القفل الحديدي مفتوحًا!

ذُهلت مما رأيت وقلت: هل نسي القفل مفتوحًا؟ أم أنه فعل ذلك متعمدًا ليعلم إن كنت سأفتش في ذلك الصندوق؟

نزعت القفل وفتحت الصندوق وصرت أقلب في الأوراق عن أي شيء يساعدني، ولكن أغلب الأوراق كانت أوراقًا عادية، فواتيرًا للمياه والكهرباء

وبعض الأوراق الأخرى غير المهمة، واصلت البحث أملًا في إيجاد أي ورقة تساعدني، أصابني اليأس والإحباط فتوقفت عن البحث وصرت أنظر في كل أرجاء الغرفة فربما هناك مخبأ سري آخر يخفيه عني، عدت للصندوق مرة أخرى وأكملت بحثي فتراءت إليّ ورقة عتيقة تشبه ورق البردي، التقطتها وفتحتها فوجدت مرسومًا بداخلها دائرة كبيرة الحجم ومكتوب بداخل الدائرة "لن يقبلك نجوسو إلا وأنا سمدت"

فحدثت نفسي متسائلًا: "سمدت"؟

ماذا تعني تلك الكلمة؟

ومن هو الذي يحدثني في تلك الجملة؟

هل هو أبي؟

هل هذا لغز؟

رغم عدم معرفتي معنى تلك الكلمة ولكنني فرحت كثيرًا لأنني وجدت ورقة في أسرار السيد سليمان ذُكر فيها كهف نجوسو وهذا يعني أن رسالة والدي ستساعدني في البحث عن أختي والوصول إليها.

أعدت كل شيء في مكانه كما كان من قبل وخرجت من الغرفة ودخلت لغرفتي وأنا أردد الكلمة المرة تلو المرة ويكاد رأسي ينفجر من كثرة التفكير.

سمعت صوت صرير باب البيت وهو يُفتح فخرجت من غرفتي فوجدت السيد سليمان والحزن يملأ وجهه فقلت له متسائلًا: ماذا حدث؟

أجاب بنبرة حزينة: لقد ذهبت إلى العمدة وأخبرته بما حدث فعنفني وقال لي إياك أن تذهب إلى مركز الشرطة، فلو علم الناس هنا بالقرية بما حدث سيظنون أننا نحن من أرسلنا إيمان إلى الكهف وسنسبب الكوارث مرة أخرى للقرية.

قلت له غاضبًا: أي كوارث تلك التي يتحدث عنها؟ ألسنا الآن في كارثة؟ لا أعرف لمَ الناس هنا يتحدثون وكأن ذلك الكهف هو ملك لنا، ندخله متى

نشاء ونخرج منه متى نشاء، ولا يعلمون أننا نعاني الآن منه مثلما عانى كل شخص فقد ابنه أو ابنته هنا من قبل.

نظر إلي نظرة يأس فتساءل: ماذا سنفعل الآن يا فارس؟

تنهدت وقلت: لا تسألني عما سأفعله، وأيضًا أنا كنت أعلم بأن عمدة القرية لن يساعدنا ولذلك لم أتفاجأ بحديثه معك.

عدت لغرفتي وبدلت ملابسي وخرجت من الغرفة صوب باب البيت فسألني السيد سليمان عن وجهتي فقلت له إنني أشعر وكأن البيت يضيق صدري فيه فسأخرج لأجلس بجانب البحيرة لأجلوه من ضيقه.

قال بقلق: ومتى ستعود؟

قلت بسخرية: لا تقلق يا سيد سليمان، فأنا في البداية كنت أود دخول الكهف شوقًا لأختي فكنت أتحدث بلا وعي، أما الآن قد عرفت أن أختي ذهبت إلى حيث ذهب من هم قبلها، لا أحد يعلم عنهم شيئًا، وكما يقال، هو الدخول بلا عودة.

صمتُ قليلًا ثم تابعت: لكنني لن أقف مكتوف الأيدي، سأجمع المعلومات والدلائل لأعرف ما يقبع داخل ذلك الكهف.

لاحت على وجهه ابتسامة خفيفة فقال: وأنا أيضًا لن أقف هكذا، سأجمع المعلومات أيضًا حول ماهية هذا الجبل والكهف.

ابتسمت له ابتسامة مصطنعة فخرجت من البيت وأنا لا أعرف أين أذهب، كان كل تفكيري منشغلًا فقط بأختي، هل تأكل، هل تشرب، هل استطاعت النوم في الليلة الماضية، احتبست الدموع في عيني وهي تتبادر إلى السقوط فقلت: لقد اشتقت لكِ كثيرًا أيتها المجنونة، أنا أعلم أنكِ على قيد الحياة، قلبي يخبرني بهذا، ومنذ اليوم لن أدع أحدًا يوقفني، وسأدخل الكهف رغمًا عنهم.

كنت أسير في شوارع القرية كالحائر الثاكل الذي فقد أحد أولاده ولا يعرف أين يبحث أو إلى أين يذهب، كل الناس من حولي منشغلة بأعمالها، لا أحد

يعلم بقصتنا الآن سوى عمدة قريتنا، ولو علم الناس هنا بما حدث لإيمان سيعم الفرح كل أرجاء القرية، كيف لا وهم لا يطيقون وجودنا في تلك القرية من الأساس، حتى منزلنا المتواضع المكون من الطابق الأرضي فقط يطمعون فيه، وحاول الكثيرون من قبل شراءه منّا بأي ثمن، فهم يريدون خروجنا من القرية بأية طريقة.

قريتنا معروفة بالزراعة وبها الأراضي الطينية الخصبة في شرقها بجانب نهر النيل، كل شخص مهتم بأرضه، أغلب الناس هنا إما ذاهبون لأرضهم، وإما عائدون من أرضهم، حتى من لا يمتلك أراضي زراعية تجده يعمل باليومية في الأرض أيضًا، فلا وقت لديهم للتسكع أو قضاء يومهم في ما لا ينفعهم، سكان صعيد مصر أغلبهم هكذا، لا يعيشون بترف مثل سكان العاصمة رغم أنهم يمتلكون أراضٍ زراعية باهظة الثمن، ولكن من عادات أهل صعيد مصر التي ورثوها منذ قديم الأزل أن بيع تلك الأراضي هو بمثابة وصمة عار، لقد ورثوا تلك الأراضي من آبائهم وأجدادهم، فالأرض بالنسبة لرجل صعيدي هي بمثابة عرضه وشرفه، ربما يعرض الشخص حياته للخطر أو يمر بضائقة مالية أو وعكة صحية صعبة ولكنه لا يفرط في بقعة واحدة من أرضه.

كنت أمشي بالشوارع حائرًا ملتاثًا، لا أعرف إلى أين أذهب أو إلى أي جهة أسير، أثناء تجولي بأحد الشوارع سرق نظري منزل الشيخ مسعود، وهو رجل يعمل في فك السحر ومعالجة الأشخاص الذين أصابهم مس من الشيطان، فكرت في أن أذهب إليه لأحدثه فربما يساعدني ولكني أخشى أن يردني خائبًا، بعد تردد كبير قلت في نفسي إن لم يوافق على التحدث معي ومساعدتي سأرحل وكأن شيئًا لم يكن.

ذهبت وطرقت الباب ففتح لي ابنه الأكبر سالم، فلما رآني امتلأ وجهه بالغضب وقال بنبرة حادة: ماذا تريد؟

_أريد مقابلة الشيخ مسعود لأطلب مساعدته في أمر ما.

_ أبي لا يقابل أمثالك، هل تريد أن تصيب بيتنا بالكوارث، اذهب من أمامي الآن.

اغرورقت عيني بالدموع من شدة الحرج، هممت بالرحيل فلما التفت وأدرت له ظهري سمعت صوتًا من خلفي يقول: فارس.

وقفت مكاني والتفتُ فوجدته الشيخ مسعود، اقترب إليّ فوجدني أبكي فقال بقلق: ما الذي حدث يا بني؟

قلت بصوت باكٍ: لقد فقدت أختي.

عقد حاجبيه وقال متسائلًا: اختطفها الكهف؟

هززت له رأسي فأمسكني من يدي وأدخلني منزله وأجلسني على إحدى الكراسي بغرفة الضيافة فقال: والآن توقف عن البكاء وأخبرني عما حدث لأختك.

توقفت عن البكاء وحين شعرت بالهدوء قليلًا قلت: ذهبت أنا وأختي إيمان إلى الجبل، فهي لم تذهب إليه منذ ولادتها، وكنت قد وعدتها من قبل إن نجحت في دراستها والتحقت بكلية الطب سأصطحبها معي إلى الجبل وبعد غروب الشمس طلبت مني أن ألتقط لها صورة أمام باب الكهف، رغم رفضي في البداية لكنني وافقت بعد إلحاح منها، فهبت عاصفة شديدة ظهرت بعدها دوامة ضبابية وصارت إيمان داخل تلك الدوامة وهي تدور بها فحاولت إنقاذها وإخراجها من داخل تلك الدوامة فلم أستطع ووجدت خيوطًا بيضاء تُشبه خيوط العنكبوت تلتف حولها وتغطها بالكامل ثم دلفت بها داخل الكهف، حاولت الدخول خلفها فلم أستطع، وجدت شيئًا يدفعني بعيدًا وكأنه يمنعني من الدخول.

وضع يده على لحيته البيضاء الكثيفة وأصبح يداعبها بأصابعه فقال متعجبًا: كل ما ذكرته يبدو منطقيًا، إلا تلك الخيوط البيضاء.

وتابع: لقد سمعنا عن عمليات الاختطاف من قبل، فمن قال أنه شاهد ابنه يهرول ناحية الكهف ويدخله، ومن شاهد ابنته تطير في الهواء كطائر بجناحين ثم دخلت الكهف، وبالأمس في الظهيرة شهود العيان من أصدقائه قالوا أن مراد ابن السيدة إبتسام دخل للكهف بمحض إرادته ولم يخرج.

_ وهل الكهف يختطف الناس في وضح النهار؟

_ الكهف يختطف الناس بعد غروب الشمس رغمًا عنهم، أما في وضح النهار فهو يقبل كل من يدخله بمحض إرادته.

_ ماذا تعني تلك الخيوط البيضاء، ولماذا حدث ذلك مع أختي فقط؟

أصبح يسير أمامي جيئة وذهابًا وهو ما زال يداعب بأصابعه لحيته وكأنه يفكر في أمر ما أو يعود بالذاكرة إلى عمليات الاختطاف السابقة، فجلس على أحد الكراسي بجانبي وقال بصوت خافت: لا أدري يا بني، الأمر محير كثيرًا.

وتابع: للأسف لا أستطيع مساعدتك، فهذا خارج عملي.

طأطأت رأسي حزنًا فقال لي متسائلًا: ما هي خطتك؟

_ أنا أعلم أن أختي على قيد الحياة، شيئًا ما بداخلي يخبرني بهذا.

صمتُ قليلًا ثم أكملت: سأدخل كهف نجوسو لأنقذ أختي.

تغيرت ملامح وجهه فجأة وحدق لي بعينيه وقال بغضب شديد: تدخل كهف نجوسو! هل جُننت، أتذهب إلى هلاكك بقدميك؟

_ فليكن هلاكي إذًا، أنا خسرت أختي وهي عندي أغلى من حياتي، فإن وجدتها فقد فُزت بها، وإن لم أجدها وهلكت فقد فُزت باللحاق بها أينما كانت.

_ هل تظن أن الأمر بتلك السهولة؟ لا أحد يعلم ما سر ذلك الكهف، فربما ستتعامل مع الجان، وربما يأخذك إلى الهاوية، وربما يأخذك إلى باطن الأرض السابعة.

_ سأذهب إلى أختي وليحدث ما يحدث.

بدا الهدوء يظهر على وجهه فقال: تعجبني جرأتك وتضحيتك من أجل أختك، ولكن الأمور لا تُحل هكذا يا بني، فدخول الكهف هو الدخول بلا عودة.

_ أنا أعلم كل هذا يا شيخ مسعود، ومن أجل ذلك أتيت إليك لتساعدني.

_ قلت لك أن أسرار ذلك الكهف خارج عملي.

وضعت يدي داخل جيبي وأخرجت رسالة أبي فأعطيتها له، فلما أخذها وقرأها قال متعجبًا: من كتب تلك الرسالة؟

_ السيد سليمان يقول إن أبي كتبها بخط يده.

_ يبدو أن والدك كتب لك لغزًا، الشيء الوحيد الذي استطعت فهمه هو ذكره لتلك للعاصفة التي ألمت بأختك.

اقتربت إليه ووضعت إصبعي على الرسالة فقلت له: هل رأيت ما كتب هنا؟

قرأ ما أشرت إليه بصوت خافت: فتش في أسرار صديقك!

نظر إلي متعجبًا ثم تساءل: من يقصد؟

أجبته مبتسمًا: السيد سليمان.

_ وهل لديه أسرارًا يخفيها عنك؟

_ حين دلف لغرفته ليحضر لي رسالة أبي كنت أراقبه من خلف الباب فوجدته يحتفظ بصندوق خشبي أسفل السرير، وعندما غادر المنزل دخلت غرفته وفتحت الصندوق فوجدت بداخله ورقة عتيقة تشبه ورق البردي ومكتوب بداخلها شيئًا أدهشني.

_ هل تلك الورقة معك الآن؟

_ خشيت إن أخذتها يلاحظ غيابها من صندوقه، ولكنني أحفظ ما كان مكتوبًا بداخلها جيدًا.

_ وما كان مكتوبًا بداخلها؟

_ كانت مرسومة دائرة كبيرة الحجم وبداخل الدائرة كُتب "لن يقبلك نجوسو إلا وأنا سمدت"

نظر إلي مندهشًا وقال بتعجب: ما معنى كلمة سمدت؟

_ لا أعلم، ولكنني متأكد أن حل ذلك اللغز يكمن في معرفة معنى تلك الكلمة.

شرد بتفكيره وأصبح يُقلب طرفيه في كل اتجاه وهو يردد: سمدت، سمدت، سمدت.

نهض من على كرسيه فجأة وقال: تلك الكلمة تُشبه الكلمات الفرعونية، أعطاني الرسالة وقال: اتبعني.

_ إلى أين؟

_ اتبعني ولا تسأل.

خرج من غرفة الضيافة وأنا أتبعه فصعد السلم الخرساني الذي يوصلنا إلى الطابق العلوي من بيته، وقف أمام إحدى الغرف وكان عليها قفلًا حديديًا ضخمًا فأخرج مفتاحًا وفتح القفل فأدخلني ومن ثم أغلق باب الغرفة علينا من الداخل.

أشعل الضوء ونظرت حولي فوجدتها مكتبة ضخمة تحوى المئات من الكتب النادرة والعتيقة، رائحة الكتب هنا تفوح في كل ركن بالمكتبة، وقفت مذهولًا من هول ما رأيت وقلت في نفسي: ذلك الكنز لا يجب أن يوضع على بابه قفلًا حديديًا فحسب، بل يجب أن يكون بابه مصفحًا لا تستطيع اختراقه قذائف المدافع والطائرات، سألته بتعجب: هل تعرف عناوين كل تلك الكتب يا شيخ مسعود؟

_ لو أغمضت عيني وقرأت أنت أية صفحة من أي كتاب سأخبرك ما هو الكتاب وما مضمونه.

اتسعت حدقتا عينيّ ذهولًا وقلت له مندهشًا: هل قرأت كل تلك الكتب؟

_ لم أقرأها كلها ولكنني قرأت أغلبها وأنا على علم بشكل كل كتاب هنا ومكان تواجده.

_ كيف وجدت الوقت الكافي لقراءة كل تلك الكتب؟

_ أنا أتعامل مع الكتب هنا كأنها الأكسجين الذي يبقيني على قيد الحياة، كلما شعرت بالاختناق والضيق جئت إلى هنا لأجلو اختناقي وضيقي بالكتب، بإمكاني اعتزال الناس جميعًا والبقاء مع الكتب .

ذهب صوب أحد الرفوف وأخذ يقلب في بعض الكتب فسحب كتابًا من بينها وحين قرأ عنوانه هز رأسه مبتسمًا فعاد إليّ وهو يحمل الكتاب فقال: اجلس هنا على ذلك الكرسي.

جلست وجلس هو بجواري فوضع الكتاب على الطاولة التي أمامنا وكان عنوانه "ترجمة الهيروغليفية"

فتح الكتاب وأخذ يردد: سمدت، سمدت، أين أنتِ يا سمدت.

كان محتوى الكتاب عبارة عن بعض الكلمات من اللغة المصرية القديمة ومكتوب بجانبها معنى الكلمة باللغة العربية، كان الكتاب مُرتبًا بالترتيب الأبجدي وقد فتح هو صفحات الكلمات التي تبدأ بحرف السين وقال لي: كل شخص يبحث عن الكلمة في الصفحة التي أمامه.

صرنا نبحث سويًا وكلما شرع بقلب الصفحة يسألني إن كنت أنهيت الصفحة التي أمامي فأقول له نعم قد انتهيت فيقلب الصفحة.

قلت له متسائلًا: أليس الكتاب مُرتبًا بالترتيب الأبجدي؟

أجاب: بلى.

قلت: إذًا فمن المفترض أن نذهب إلى الصفحات التي تبدأ بحرف السين ويليه حرف الميم.

نظر إليّ مبتسمًا فقال: لقد صدقت.

صار يقلب الصفحات حتى وصل إلى الصفحات التي تبدأ بحرف السين ثم يليه حرف الميم فقال: سنفعل الأمر نفسه، كلٌّ يبحث في الصفحة التي أمامه.

بعد البحث القليل وجدته يصيح قائلًا: ها هي، لقد وجدتها.

ذهبت بعيني إلى حيث يشير بسبابته على الكلمة فوجدت مكتوبًا "سمدت ومكتوب بجانبها _هو القمر المُكتمل عند الفراعنة"

قلت للشيخ مسعود متسائلًا: في أي يوم نحن في الشهر القمري؟

_ اليوم هو الرابع عشر من شهر محرم.

_ هذا يعني أنني لن أستطيع دخول الكهف إلا عندما يكون القمر مكتملًا!

_ يبدو أن ذلك هو حل اللغز، وأيضًا نجوسو هي كلمة فرعونية وتعني إله القمر عند الفراعنة.

_ وهل عمليات الاختطاف من قبل كانت مرتبطة باكتمال القمر؟

_ لا علاقة لاكتمال القمر بعمليات الاختطاف السابقة، فقد كان الكهف يختطف الناس في أية ليلة.

صمت الشيخ مسعود هنيهة وأكمل قائلًا: ولكنني أرى أن اختطاف أختك كان غريبًا وهي أيضًا اختطفها الكهف وقت اكتمال القمر في الليلة الماضية، والليلة سيكون القمر مكتملًا أيضًا وسيبدأ في النقصان من الغد.

_ هذا يعني إنني إن لم أستطع دخول الكهف في الليلة القادمة فسأنتظر شهرًا آخر.

وأردفت قائلًا: وهذا يعني أيضًا أن تلك الخيوط التي التفت حول إيمان ربما سيحدث معي الأمر نفسه، وهي مرتبطة باكتمال القمر عكس عمليات الاختطاف السابقة.

نظرت لساعتي فوجدتها تشير إلى الثالثة والنصف عصرًا فقلت: يتبقَ أمامي ثلاث ساعات حتى غروب الشمس.

فابتسمت له وقلت: أشكرك على مساعدتك لي ووقوفك بجانبي.

قال مبتسمًا: انتبه لنفسك جيدًا يا فارس، وأتمنى أن تجد أختك وتعودا لكي تفكا لنا طلاسم ذلك الكهف.

عقدت حاجبيّ وقلت له متسائلًا: لماذا الناس بقريتنا هنا تربط بين أبي والكهف، ولماذا ينعتاني وأختي بالمشؤومين؟

_ لأن كل سكان القرية قد رأوا والدك عند الكهف حين فُتح بابه وكنت أنت وأختك برفقته.

_ هل كان باب الكهف مُغلقًا من قبل؟

_ نعم، كان باب الكهف الصخري مغلق في السابق، ولم تكن تحدث حينها عمليات الاختطاف تلك، كان المكان آمنًا والقرية آمنة.

_ وما سبب تواجد أبي عند الكهف لحظة فتحه؟

ران عليه صمت خفيف فأجاب: لا أحد يعرف الحقيقة، هي مجرد أقاويل ترددها الناس، لكن الحقيقة المطلقة هي أن والدك كان بجانب الكهف بعد صلاة العشاء حين فُتح بابه وأنا رأيته بعيني وهو يضُرم النار بالكهف وقد كنت أنت وأختك مُلقيَيْن على الأرض بجانب الكهف.

_ ولماذا أبي كان يصطحبني أنا وأختي في ذلك الوقت؟ ولماذا يُضرم النار في الكهف؟

_ السيد سليمان لم يخبركما عن شيء كهذا أليس كذلك؟

_ بلى، لم يخبرنا عن والدي سوى وصف صورته وعمله فقط.

_ سأخبرك ما أعرفه وما كنت أخفيه عنك من قبل يا بني كونك ستدخل ذلك الكهف، ولكن تعدني ألا تخبر السيد سليمان بما سأقوله لك، فهو كان يخبرنا دومًا بأن لا نقص عليك شيئًا يخص والدك.

_ أعدك بهذا.

أطلق الشيخ مسعود تنهيدة كبيرة وأنشأ يقول: جاء والدك إلى القرية في أحد الأيام وابتاع بيتكم هذا بضعف ثمنه من مالكه، وقد كان غريب الأطوار، لا يُحدِث أحدً ولا يجلس مع أحد، كانت الناس تظن أنه هارب من ثأر أو ما شابه، لم يكن يعمل ولا يمتلك حتى حِرفة تساعده في جلب قوت يومه، كان يومه يبدأ بالمكوث عند الكهف طويلًا في الصباح ونراه يكتب

ويدون ملاحظاته في وريقاته وبعدها يعود للبيت ثم يعود للكهف بعد العصر ويمكث بجانبه حتى غروب الشمس ثم يأتيني هنا في المكتبة بعد صلاة العشاء ويظل يقرأ الكتب قرابة الثلاث ساعات ثم يعود للبيت، كانت الناس تنعته بغريب الأطوار لأنه لم يكن يفعل شيئًا هنا سوى ما ذكرته لك، كان السيد سليمان يأتيه مرة كل أسبوع يمكث معه يومًا واحدًا ثم يغادر، علمنا من بعض الناس هنا أن والدك والسيد سليمان يعملان في إحدى وكالات الفضاء المملوكة لشخص ثري وكان هذا الأمر مثيرًا للحيرة، فما علاقة وكالة الفضاء بالكهف والجبل؟ وما عمل وكالة الفضاء في قرية صغيرة كقرية بني حميل؟

بعدها اختفى والدك مدة عشر سنوات لا أحد يعلم عنه شيئًا وانقطعت أخباره، وكان السيد سليمان يأتي للقرية مرة كل أسبوع يسأل عنه ثم يرحل واستمر في تكرار زيارته تلك طوال العشر سنوات وهو يأتي ليسأل عنه ثم يرحل.

وفي إحدى ليالي يناير الباردة وبعد خروجنا من المسجد بعد صلاة العشاء كان الجميع يهرول ناحية الجبل، فقد رأينا نيرانًا مهيبة تندلع بالجبل فهرول أغلب سكان القرية إليه فوجدنا النيران تندلع في الكهف ووالدك يجمع الحطب والأخشاب ويُلقيها داخل الكهف ليزيد لهيب النار، وقد كنت أنت وأختك مُلقيين على الأرض بجانب الكهف.

وعندما سألته الناس عن سبب ما يفعله وأين كان طوال العشر سنوات الماضية قال إنه كان في الإسكندرية طوال العشر سنوات الماضية وتزوج بأمكما وأنجبكما فعاد الليلة للبيت فاختطفكما أحد اللصوص وهرب بكما نحو الجبل فلحق به وأوسعه ضربًا فاستند اللص بظهره على باب الكهف ففُتح الكهف فقذفه داخل الكهف وأحرقه.

كانت القصة غريبة وغير قابلة للتصديق ولكننا صدقناه وساعدناه في العودة لمنزله.

لم يمضِ ساعة أو ساعتان حتى وجدنا سيارتين فارهتي الهيئة نزل من إحداهما السيد سليمان ومعه السيد ناصر ونزل بعض الأشخاص الآخرين

من السيارة الأخرى، مكثوا مع والدك قرابة الساعتين ثم غادر السيد ناصر ومن معه وبقي السيد سليمان برفقة والدك.

كانت تلك الليلة غريبة ومرعبة، فقد سمعنا فيها أصواتًا لم نسمعها من قبل، وكانت أصوات الرعد عالية جدًا رغم أن السماء كانت صافية لا سُحب بها وبوسعك إحصاء النجوم الموجودة بها، وثمة أصوات غريبة كانت تصدر من الجبل لم نعرف كنهها.

مرت تلك الليلة وقد علم كل سكان القرية بأن شيئًا غريبًا قد حدث، وعلموا أن فتح باب ذلك الكهف ربما سيجلب لهم الكوارث واللعنات.

في اليوم التالي جاء إليّ والدك في المكتبة هنا وطلب مني بعض الكتب الخاصة بالصناعة والطب والزراعة وتعلم اللغات وطلب أن يبتاعهم مني فرفضت لأنني لا أبيع كنوزي، فأخبرني أنه يريدهم لأمر فيه خير للناس فوافقت وأهديتهم له كهدية.

ومنذ تلك اللحظة لم نر والدك، وعندما سألنا السيد سليمان عنه قال إنه ذهب ليجلب والدتك من الإسكندرية فتعرضا لحادث سير في طريق عودتهما فتوفيا، وظل السيد سليمان معكما منذ ذلك الحين وكان دومًا يخبرنا بأن لا نقص عليكما شيئًا.

زممت شفتي وقلت له: ومنذ ذلك الحين أصبح الكهف يختطف كل من يقترب إليه، وأصبحت أنا وأختي "إيمان" فأل شوم على القرية.

هز رأسه وقال: ومنذ ذلك الحين وتم التعاقد مع السيد ناصر لتقوم شركة الأمن التي يمتلكها بتأمين الجبل والكهف.

نظرت لساعتي فوجدتها تشير إلى الرابعة عصرًا، شكرت الشيخ مسعود على مساعدته لي فاقترب إليّ وقام باحتضاني وقال مبتسمًا: اصنع معجزة يا "فارس" وعُد بأختك، أنا أثق بك.

خرجت من منزل الشيخ مسعود وأنا مُشتت الذهن حائر الفكر وأنا أتساءل: لماذا السيد سليمان أخفى عنا تلك القصة عن أبي؟ وما علاقة السيد ناصر بالأمر حتى يأتيه بمنزلنا بعدما أضرم النار بالكهف؟ وما علاقة السيد ناصر

بالجبل ليأتي من أقصى شمال مصر إلى أقصى الجنوب هنا في الصعيد ليقوم بتأمين الجبل والكهف؟ وما سر تلك الكتب التي أخذها أبي من الشيخ مسعود؟

قلت في نفسي: لو قلت للسيد سليمان إنني سأدخل الكهف سيمنعني بشتى الطرق وسيحاول إيقافي، فلا بدّ عليّ أن لا أخبره بخطتي وعند ذهابه لصلاة المغرب بالمسجد سأخرج خفية وأدخل الكهف.

عُدت للبيت فلما دخلت وجدت السيد سليمان واقفًا خلف الباب وقد بدا عليه التوتر والاضطراب، نظر لي نظرات ثاقبة وقال بحنق: أين كنت طوال تلك المدة؟ لقد خرجت منذ العاشرة صباحًا والآن الساعة الرابعة والنصف، أين ذهبت؟.

_ كنت أتجول في الشوارع فحسب، لم أستطع العودة للبيت فإنني أختنق فيه بلا أختي.

_ ولماذا تركت هاتفك بالمنزل؟.

_ لقد نسيته.

ظل يقذف إلي الكلمات المستفزة والغاضبة الكلمة تلو الكلمة فقاطعته بغضب: أنا منهك جدًا الآن، سأدخل غرفتي لأستريح، لا أحتمل مزيدًا من الكلمات المستفزة.

دلفت لغرفتي وأغلقت الباب من خلفي فأخرجت حقيبة أبي التي ورثتها منه من خزانة ملابسي فوضعت بها بعض الخبز المجفف وقارورة مياه وهاتفي، ووضعت بأحد جانبيّ الحقيبة من الخارج مصباحًا يعمل بالبطارية وبالجانب الآخر وضعت سكينًا.

تجهزت وبقيت في غرفتي أنتظر خروج السيد سليمان لصلاة المغرب وصرت أراقبه من فتحة الباب التي يوضع بها المفتاح فوجدته يذهب إلى الحمام ويبدأ بالوضوء فابتسمت فرحًا وقلت محدثًا نفسي: سيخرج بعد قليل.

بعدما توضأ جاء وجلس في الصالون ينتظر أذان المغرب فلما سمع الأذان وجدته يدخل غرفته ويبدأ بالصلاة، فزفرت وقلت مُحدثًا نفسي: كان عليّ أن أعلم ذلك، فهو يخشى خروجي وذهابي للكهف ولذلك سيصلي المغرب والعشاء بالمنزل هنا كل يوم.

وتابعت: لا تفرط في تلك الفرصة يا فارس، إن فرطت فيها سيتحتم عليك الانتظار شهرًا آخر، ولكنني لو فتحت باب المنزل سيلفت صريره انتباهه!

نظرت لنافذة غرفتي وفتحتها ببطء شديد ونظرت للشارع فوجدت الهدوء يخيم عليه، أسرعت وأمسكت بالحقيبة وحملتها خلف ظهري وخرجت إلى الشارع عبر النافذة وأغلقت النافذة من خلفي وأسرعت عدْوًا نحو الجبل.

كنت أسير بخطىً مسرعة نحو الجبل خشية أن يفطن السيد سليمان لما فعلت ويلحق بي، فهو لو طرق عليّ باب غرفتي ولم أجبه سيخرج للشارع ويرى النافذة غير مغلقة من الداخل وسيعرف أنني خرجت منها.

حين وصلت إلى الجبل وذهبت خلفه حيث كهف نجوسو وقفت أمام باب الكهف فنظرت للقمر من فوقي وهو مكتمل قلت وكأنني أحدثه: أرجو أن يقبلني نجوسو لأنك سمدت.

فجأة هبت ريح خفيفة شعرت ببرودتها على وجهي وأنا أنظر للكهف، فسمعت صوتًا قادمًا من داخل الكهف وبدأ الصوت يقترب شيئًا فشيئًا حتى شعرت وكأن شخصًا يحدثني ويضع فمه داخل أذني، كان الصوت يقول: أُوناسيو، أُوناسيو، هنا عالمك وهنا عائلتك، وهنا أنت.

تعجبت من الصوت وقلت محدثًا نفسي: ماذا يعني أُوناسيو؟ وأي عالم وأية عائلة تلك؟

وأثناء ذلك هبت عاصفة شديدة محملة بالرمال فوضعت يديّ على وجهي من شدتها وحبات الرمل تنقر وجهي نقرًا، فلما توقفت ونزعت يديّ من على وجهي وجدت نفسي داخل دوامة ضبابية وهي تدور بي وصارت تلتف

حول جسمي الخيوط البيضاء وأنا أبتسم وأردد بداخلي: سأذهب إلى حيث ذهبت إيمان.

بعدها غطت الخيوط البيضاء كامل جسمي وصرت أتنفس بصعوبة شديدة وأنا لا أرى شيئًا داخل تلك الخيوط ولا أشعر بشيء بالخارج سوى إحساسي بالهبوط إلى أسفل فعرفت أنني قد دخلت الكهف الآن.

صرت أحرك ذراعيّ داخل تلك الخيوط بصعوبة شديدة وأضغطها بذراعيّ خارجًا لأقوم بتوسعتها من الداخل لأستطيع تحريك يدي وجلب السكين من جانب الحقيبة، بعدما استطعت الإمساك بالسكين ذهبت بها صوب وجهي وصرت أهشم تلك الخيوط لأستطيع الرؤية والتنفس، فتحت فتحة صغيرة تمكنت خلالها من التنفس بسهولة والرؤية قليلًا، وجدت نفسي أسقط لأسفل بسرعة شديدة ورأسي لأسفل وما زلت داخل الدوامة الضبابية وهي تحميني من شدة الهواء أو من الاصطدام بالصخور الكبيرة التي كانت بطريقي.

بعد مرور دقائق قليلة رأيت من مسافة بعيدة نقطة صفراء مضيئة بدت لي وكأنها الشمس، وكلما اقتربت منها يزداد حجمها، وبعد مدة قصيرة صرت داخلها، رأيت مجموعة أحجار صغيرة ولها ظل صغير بجانبها وكلما اقتربت يكبر حجم تلك الأحجار شيئًا فشيئًا وبعدما اقتربت أكثر أيقنت أن تلك الأحجار ما هي إلا جبالًا كبيرة الحجم وأنا ما زلت مستمر بالسقوط بشكل رأسي وبسرعة شديدة وأنا أنظر لاقتراب سطح الأرض وأفكر في السقوط المميت الذي سيحدث.

أمسكت السكين بسرعة وصرت أهشم تلك الخيوط التي تحتجزني وأنا أنظر إلى الأرض وأنتظر سقوطي وارتطامي المميت الذي يوشك أن يحدث.

قبل وصولي إلى الأرض بحوالي ثلاثين ذراعًا وجدت وضعية جسدي قد تبدلت من الوضع الرأسي إلى الوضع الأفقي وأصبحت أسير كطائرة يتحكم بها شخص ما، رأيت من مسافة بعيدة جبلًا شاهقًا فقلت محدثًا نفسي: لو اصطدمت بذلك الجبل مع تلك السرعة فحتمًا سأموت، نظرت إلى الأرض بالأسفل فتابعت قائلًا: ولو سقطت من تلك المسافة إلى الأرض

فربما تنكسر عظامي وربما أيضًا أموت، أمسكت السكين وأصبحت أهشم تلك الخيوط وأنا أردد: لأسقط على الرمال خير لي من أن أصطدم بالجبل.

بعدما أحدثت فتحة كبيرة ستمكنني من الخروج منها أخرجت قدماي ونزعت الحقيبة من على ظهري فاحتضنتها وأغمضت عيني وقذفت نفسي خارج تلك الخيوط.

كان السقوط سلسًا جدًا، وكأنني قد سقطت من أعلى كرسي خشبي وسط دهشتي الشديدة وأنا أحدث نفسي متسائلًا: هل تقل الجاذبية هنا عن أي مكان بالأرض؟

تابعت بنظراتي الخيوط التي سقطت منها فوجدتها قد عبرت من فوق الجبل بسلام، أصبحت أنظر حولي في كل الاتجاهات وأنا أتساءل: أين أنا؟

المكان هنا عبارة عن صحراء شاسعة ورمال ميثاء، ومجموعة صخور كبيرة، وصوت الهواء مرعب جدًا كأنه صوت عاصفة ، والشمس تبدو بعيدة جدًا والطقس بارد جدًا رغم أننا في فصل الصيف، بقيت واقفًا مكاني مذهولًا ومشدوهًا وأنا أتساءل: أين أنا وما تلك الأرض؟ ولماذا الشمس تبدو بعيدة جدًا هكذا؟ هل سقطت إلى الأرض السابعة؟ أم أنني دخلت عالم الجان وهكذا هو؟

لقد دخلت الكهف ليلًا! ، فكيف أجد نفسي هنا بالنهار والشمس تملأ تلك الصحراء!

نظرت لساعتي فوجدتها متوقفة، أسرعت وفتحت الحقيبة وأخرجت منها الهاتف لأحاول الاتصال بهاتف إيمان ولكنني فوجئت بأن الهاتف أيضًا لا يعمل رغم أنني كنت أشحنه لآخره قبل قدومي إلى هنا!

هل هي مجرد صدفة بأن تتعطل ساعتي وهاتفي في الوقت نفسه؟

أخرجت المصباح من الحقيبة وحاولت تشغيله ولكنه أيضًا لا يعمل!

شعرت بالخيبة حينها، فأنا الآن لن أستطيع معرفة الوقت هنا ولا الاتصال على هاتف إيمان، ولو استمر بقائي هنا في تلك الصحراء حتى الليل لن أستطيع استخدام المصباح أيضًا.

تنهدت وقلت: تلك البداية لا تُبشر بالخير، أشعر وكأن كل شيء يسير ضدي.

سرق نظري سرب من طيور الأبيس كان قادمًا من ناحية الجبل، فلما وصل ذلك السرب عندي ومر من فوقي وجدتها مجموعة من طيور الأبيس السوداء تحتاط بطائر أبيس أبيض كان بمنتصفهم ويتقدم عنهم قليلًا وكأنه قائدهم أو ما شابه.

فاندهشت وتساءلت: لماذا هذا الطائر هو الطائر الأبيض الوحيد بينهم؟.

وقفت مكاني حائرًا لا أعرف أي اتجاه أسلكه، وأصبحت أدور حول نفسي في حيرة وأنا أنظر في كل الاتجاهات لأبعد مسافة أستطيع رؤيتها فربما أرى شيئًا مميزًا فأسير نحوه، لا أرى حولي سوى الرمال والجبال وبعض الصخور الكبيرة، كنت أشعر بالعطش الشديد، فذهبت نحو إحدى الصخور الكبيرة فجلست بأسفلها وفتحت الحقيبة وأخرجت قارورة المياه فشربت منها الكثير وقلت محدثًا نفسي: لو كنت أعلم أن الكهف سيقودني إلى تلك الصحراء لأكثرت من المياه، ولكن عليّ القصد في الماء والطعام حتى أستطيع النجاة من تلك الصحراء أولًا.

استندت بظهري على الصخرة فوضعت يدي داخل الحقيبة وأخرجت صورة إيمان فنظرت إليها واغرورقتا عينيّ بالدموع فقلت وكأنني أحدثها: لقد اشتقت إليك كثيرًا أيتها الجميلة، أنا الآن قطعت نصف المسافة ودخلت الكهف واستطعت التحرر من تلك الخيوط، يتبقى لي النصف الآخر وهو إنقاذك والعودة بكِ إلى بيتنا، وضعت الصورة على صدري فشعرت بالدفء قليلًا فغلبني النعاس ونمت وأنا أستند على الصخرة.

استيقظت بعد مدة قصيرة على صوت قادم من مسافة بعيدة لم أستطع تمييز ماهية الصوت، نهضت من مكاني فرأيت من مسافة بعيدة غُبارًا كبيرًا بدا لي وكأنه عاصفة قادمة نحوي، صار الغبار يقترب شيئًا فشيئًا حتى بات

قريبًا مني بمسافة قريبة، اكتشفت أن مصدر الغبار هو مجموعة كبيرة من الحمير يقودهم شخصان من خلفهم ويحثونهم على الإسراع.

حين اقتربت الحمير إليّ أسرعت ووقفت أمامهم وأشرت لهم بيديّ أن يتوقفوا فتوقفت الحمير عن السير، ذهبت إلى الرجلان خلف الحمير وكانا يمتطيان حصانين ويلبسان ملابسًا غريبة مصنوعة من جلود الحيوانات، تغاضيت عن لباسهما وقلت لهما مبتسمًا: مرحبًا، أنا أبحث عن أختي هنا وقد ضللت الطريق، هل يمكنكما مساعدتي؟

نظرا إليّ وقد بدت على وجهيهما علامات الدهشة وصارا يحدثان بعضهما بلغة لم أفهم كنهها فقاطعتهما قائلًا: أنا لستُ لصًا، أنا أريد أن تساعداني فقط.

نظر إليّ أحدهما بغضب وصار يتمتم بكلام غير مفهوم.

قلت له متسائلًا: ما تلك اللغة؟ أم هي لهجة تستخدمونها هنا؟ أنا لا أفهم منك شيئًا.

صارا يشيران إلى ملابسي والغضب يملأ وجهيهما ويتمتمان بلغتهما الغريبة فقاطعتهما قائلًا: حسنًا، لا أريد مساعدتكما، أريد أن أشتري منكما حمارًا ليساعدني في رحلة البحث عن أختي.

صارا يهزان رأسيهما لبعضهما دليلًا على أنهما لا يفهمان كلامي فذهبت إلى أحد الحمير ووضعت يدي على ظهره وقلت: هذا، أريد أن أشتري هذا، وأصبحت أحك أصابعي ببعضها لأفسر لهما أنني سأدفع لهما المال.

ابتسم أحدهما ونظر للآخر وحدثه بلغتهما فابتسم الآخر وهز له رأسه فعاد للنظر إليّ فمد يده نحوي وكأنه يريد ثمن الحمار.

ذهبت مسرعًا نحو الصخرة التي كنت أتكئ عليها وفتحت الحقيبة وأخرجت خمسمئة جنيه وعدت إليهما مسرعًا وقلت لأحدهما: هذه خمسمئة جنيه كل ما أملك من أموال.

بالطبع أنا أملك خمسة آلاف أخرى داخل الحقيبة ولكنني أحاول التفاوض معهما كعادة كل شخص لأحصل على الصفقة بأقل تكلفة، فلو اكتملت الصفقة بالمبلغ الذي نريده ندوّن ذلك في قائمة الانتصارات، وقد يترك أحدنا حفنة من الجنيهات تفاخرًا بعد انتهاءه من الغداء في أحد المطاعم الشهيرة ليبرهن للناس أنه شخص كريم، وتجد نفس الشخص يتجادل مع بائعة البيض المسكينة لأكثر من نصف ساعة ليحصل في النهاية على جنيه واحد منها.

حين رأى المال بيدي ضحك ونظر لصديقه الذي معه وهو يشير إلى يدي، صارا يضحكان معًا بهستيرية، توقفا فجأة عن الضحك وترجل أحدهما من على ظهر حصانه وأخرج سيفه من غمده وأشار بالسيف نحوي وصار يتمتم بالكلام غير المفهوم بطريقة غاضبة وكأنه يعنفني على إيقافي لهما وإضاعة وقتهما.

صحت فيه غاضبًا: ماذا فعلت لتهددني بسيفك هذا؟

كل ما أطلبه هو حمار واحد من عشرات الحمير التي بحوزتكما ليساعدني في البحث عن أختي.

وتابعت: ألا تساعدون الناس هنا في أرضكم؟ أتتركون ضيفًا أتاكم مستنجدًا يهلك في تلك الصحراء؟

اتسعت حدقتا عينيه فجأة وبرز منهما الغضب حين رفعت صوتي فاقترب إليّ بسيفه قاصدًا مهاجمتي فأمسكت بيده ودفعتها بعيدًا عني فوجدته تطاير للأمام واصطدم ظهره بحصانه وسقط أرضًا، وضع يده على ظهره وصار يئن من شدة الألم وأنا مندهش مما حدث، رفعت يدي أمام وجهي وأنا أنظر إليها وأحدث نفسي قائلًا: هل يدي من فعلت به كل هذا، أم أن ذلك الرجل يفرط في مشاهدة الأفلام الهندية ويُعظّم الأمور؟

ترجل الآخر من على ظهر حصانه وأخرج سيفه واقترب إليّ وحين صار أمامي بمسافة قريبة نظر في عيناي فقال مرعوبًا: بوبو، بوبو.

فأسرع نحو صديقه فساعده على النهوض وأمره بأن يمتطي حصانه وامتطى هو الآخر حصانه وهو يشير إليّ بسبابته وما زال يردد: بوبو، بوبو.

صاح أحدهما في الحمير قائلًا: "عا" فانطلقت الحمير وهي تجري أمامهما مسرعة واتجها نحو الجبل الشاهق.

بقيت واقفًا مكاني مندهشًا مما حدث وأنا أحدث نفسي متسائلًا: بوبو! ماذا تعني تلك الكلمة؟

وتابعت: كلمة "عا" أعرفها، فهي تقال للحمار لحثه على السير ونحن نستخدمها في صعيد مصر أيضًا، ولكن بوبو تلك غريبة، أي لغة تلك؟ وما تلك الملابس الغريبة التي يلبسونها؟ لماذا يلبسون جلود الحيوانات؟ هل الكهف قادني إلى العصور السابقة؟

عدت إلى الصخرة الكبيرة وجلست أسفلها وأكلت بعض الخبز المجفف وشربت آخر ما تبقى لديّ من ماء.

تنهدت وقلت محدثًا نفسي: عليك أن تبحث الآن عن المياه يا فارس، إن أردت البحث عن أختك فعليك أن تبقى على قيد الحياة، وإن أردت البقاء على قيد الحياة فعليك بالبحث عن الماء وإيجاده وإلا هلكت في تلك الصحراء القاحلة.

نهضت من مكاني وابتعدت عن الصخرة قليلًا وأنا أنظر في كل الاتجاهات من حولي بحثًا عن أي شيء يُلفت الانتباه فأسير نحوه، فأنا أخشى أن أسير في أي اتجاه خاطئ يكلفني ذلك حياتي.

عدت إلى الصخرة وجمعت أغراضي ووضعتها داخل الحقيبة وأغلقتها وحملتها خلف ظهري وأنا ممسك بقارورة المياه الفارغة، فتحت قارورة المياه بعدما لاحظت بعض قطرات المياه تستقر أسفلها وأصبحت أضع تلك القطرات على لساني وأبتلعها فما فعلت شيئًا سوى أنها قد شوقتني للمياه أكثر وأعطتني شعورًا بالعطش أكثر من ذي قبل، وقفت بجانب الصخرة حائرًا لا أعرف ماذا أفعل أو أي اتجاه أسلكه، ضربت الصخرة بكف

يدي ضربة قوية لأخرج ما بداخلي من غيظ فوجدتها قد انشقت لنصفين وكادت تسقط عليّ لولا أن أسرعت مبتعدًا عنها.

نظرت إلى يدي متعجبًا فقلت لها وكأنني أحدثها: ماذا حدث لكِ اليوم؟ هل صرتِ قوية إلى هذا الحد لدرجة أن تقومي بتكسير الصخور؟

تركت المكان ومشيت قليلًا فنظرت إلى الجبل فقلت محدثًا نفسي: يبدو أن هذا الجبل هو منقذي، فتلك الخيوط التي قفزت منها كانت تتجه نحوه ثم عبرته، وأيضًا ذلك الرجلان ذهبا بالحمير صوب ذلك الجبل، وطيور الأبيس أيضًا كانت قادمة من خلفه، ربما أجد خلفه بيوتًا أو بُحيرة أو ربما وجدت سوقًا يبيعون فيه الماء، المهم هو أن أجد الماء.

سرت نحو الجبل وكلما ظننت أنني قد اقتربت إليه أشعر وكأن الجبل يبتعد عني، المسافة كانت بعيدة جدًا عكس ما كنت أتوقعه.

خارت قواي شيئًا فشيئًا بسبب العطش الشديد الذي شعرت به وأصبحت أسير بخطىً بطيئة حتى توقفت مكاني يائسًا فسقطت على الأرض مغشيًا عليّ.

استيقظت بعد مدة قليلة فوجدت الرمال تلتصق بخدي الأيسر فنزعتها بيدي واستجمعت بعضًا من قواي فنهضت ووقفت ناظرًا صوب الجبل، رأيت طيورًا تحلق فوق شيء ما من مسافة قريبة، ابتسمت فرحًا وحدثت نفسي قائلًا: الطيور لا تحلق إلا فوق الماء أو فوق شيء ميت، وأتمنى أن يكون تحليقها الآن فوق الماء.

سرت بخطىً بطيئة نحو تحليق الطيور وأنا أدعو الله أن أجد الماء، حين وصلت وجدتها مزرعة يلتف حولها من الخارج جدارًا خشبيًا ووجدت بابها الخشبي مفتوحًا، دخلت فوجدت بداخلها مجموعة من الحيوانات كالبقر والجاموس والأغنام ومزروع بداخلها أيضًا نبات القمح والشعير وبعض الأشجار المثمرة.

صحت بأعلى صوتي قائلًا: هل من أحد هنا؟

فلم يرد أحد.

كررت ندائي فربما يخرج لي أحد من تلك الغرفة الخشبية التي كانت قريبة من بوابة المزرعة، ولكن لم يخرج منها أحد أيضًا ولم يجيبني أحد.

سرت بخطى مترددة بحثًا عن الماء فوجدت رجلًا يجلس بجانب بئر ويملأ الدلو من البئر ويسكبه في الجدول الصغير الذى يوصلها إلى القمح والشعير، اقتربت إليه وعندما صرت قريبًا منه قلت له: السلام عليكم.

نظر إليّ نظرة تعجب ولم يجب.

قلت ربما لم يفهم لغتي مثل ذلك الرجلين، فهو يلبس الجلود مثلهما.

ارتسمت على وجهي ابتسامة مصطنعة وقلت له: أريد أن أشرب.

صار ينظر إليّ متعجبًا وإلى ملابسي الغريبة عنه فهز رأسه دليلًا بأنه أيضًا لا يفهم.

ذهبت إلى جدول المياه وجثوت على ركبتيّ وملأت يديّ ببعض المياه وقذفت المياه داخل فمي وقلت له: أريد أن أفعل هكذا، أشرب.

ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة وأشار إلى الماء وقال مبتسمًا: مو.

نظرت إليه متعجبًا فقلت: ما معنى مو!

فكررها ثانية وهو ما زال يبتسم ويهز رأسه: مو، مو.

قلت في نفسي ربما هذا اسمها عندهم كبعض اللهجات العربية، ففي مصر نقول "مَيّة" وفي سوريا يقولون " مَّي" وفي السودان يقولون "مُويا"

قلت له مبتسمًا: نعم، مو، مو.

فأشار بيده إلى جدول الماء وهز لي رأسه وقال: "امبو".

رفعت رأسي تجاهه وأنا مندهش مما سمعته، قلت في نفسي: لقد وصل بك الأمر يا فارس أن تتم معاملتك كالأطفال هنا ويقال لك امبو! فلتكن امبو إذًا، المهم أن أشرب وأتخلص من عطشي الشديد هذا.

شربت حتى ملأت بطني وأمسكت قارورة المياه وهممت لأملأها فرأيت الرجل يتقدم نحوي وكأنه يريد أن يسألني عن شيء ما.

وقفت لأحدثه فوجدته ينظر لعينيّ تارة ولشعري الأسود تارة أخرى، بدت علي وجهه علامات الدهشة وتراجع بضع خطوات للخلف وصاح بأعلى صوته قائلًا: بوبو، بوبو.

صار يكررها عدة مرات فخرج ثلاثة فتيان من الغرفة الخشبية وهم متوشحون بالسيوف وقادمون بأقصى سرعتهم تجاهي والرجل يشير لهم إليّ وما زال يردد: بوبو، بوبو.

خرجت من المزرعة عَدْوًا والثلاثة فتيان يلاحقونني، صرت أجري بين الصخور وأقوم بتغيير اتجاهاتي ومراوغتهم لكي يفقدوا أثري، بعد عشر دقائق من العدو المتواصل تمكنت من الهرب منهم فتوقفت وجثوت على ركبتيّ وأنا أنهج وضربات قلبي تتسارع فقلت في نفسي: لقد خسرت كل الماء الذي شربته، وفي نفس الوقت لم أستطع ملء قارورة المياه.

لاحظت وجود شجرة بلوط ضخمة قريبة مني فنهضت وسرت نحوها وحين وصلت إليها جلست أسفلها واستندت بظهري على جذعها وما زالت أنفاسي تتسارع وقلبي يخفق بشدة وكأنه سيخرج من بين أضلعي.

بعدما ارتحت قليلًا وسكن قلبي صحت بصوتٍ عالٍ قائلًا: أين أنا، وما تلك الصحراء، وما معنى كلمة بوبو التي يقولها لي الناس هنا!

سمعت صوت قهقهة قادمة من خلفي فالتفت للخلف فوجدت فتىً أشقر الشعر وأخضر العينين ينام على ظهره ويضع قدمًا فوق الأخرى ويضحك بهستيرية.

رمقته بنظرات تعجب وقلت له متسائلًا: من أنت؟ ولماذا تضحك؟

اعتدل من نومته وجلس على الأرض وأصبح يمعن النظر إليّ فقاطعت نظراته قائلًا: لعلك مثلهم، لا تفهم لغتي ولذلك لن تجيبني.

اقترب إليّ فأمسكت بحقيبتي وغطيت بها وجهي وقلت: أرجوك ابتعد عني ولا تنظر إليّ، سأحدثك ولن تفهم لغتي ثم ستنظر إلى عينيّ وشعري فتقول لي بوبو، بوبو، ثم تشهر لي سيفك وتبدأ في مطاردتي وأنا لا طاقة لديّ لأعاود الجري مرة أخرى.

عاد لضحكه وقال: دعني أنظر إليك لأعرف لماذا يقول لك الناس بوبو.

أبعدت الحقيبة عن وجهي وقلت له متعجبًا: ماذا قلت؟ أنت تتحدث بلغتي؟

نظر إلى عينيّ فازدادت ضحكاته الساخرة، قاطعت ضحكاته وقلت له غاضبًا: ما المضحك في عيني؟

_ هل تريد معرفة معنى كلمة بوبو؟

_ ماذا تعني؟

_ بوبو تعني الشبح.

_ وما المرعب في عينيّ لتجعلاني أشبه الشبح؟

_ لأنهما سوداوان.

_ وما الضير إن كانت سوداء؟

_ لأن الجميع هنا يمتلك شعرًا أشقر وعينان خضراوان، وأنا متعجب مما أراه فيك، فكيف تمتلك شعرًا أسودًا وعينان سوداوان.

وتابع متسائلًا: من أي مملكة أنت؟

_ من مملكة الصعيد.

_ لا تحاول العبث معي وأخبرني من أي مملكة أنت فأنا قد صرت جاسوسًا الآن، وأكاد أجزم أنك أيضًا قد صرت جاسوسًا مثلي.

تذكرت حينها رسالة أبي "لا تفصح عن هويتك إلا لجاسوس"، قلت له متسائلًا: كيف أصبحت جاسوسًا؟

_ لقد هربت اليوم من مملكة "موريكا"، وأنا ذاهب لألتحق بمملكة "الجواسيس" وكل من يهرب من تلك المملكة يُسمى جاسوسًا.

_ ما هي مملكة "موريكا"؟ وما هي مملكة الجواسيس؟

_ سأخبرك بكل شيء ولكن بعدما تخبرني أولًا من أي مملكة أنت.

_ سأخبرك عن حقيقتي، ولكن تعدني أن يبقى سرًا بيننا ولا تخبره لأحد.

_ أعدك بهذا.

_ لقد اختطف كهف نجوسو أختي فدخلت الكهف لأنقذها، فجاء بي الكهف إلى هنا.

نظر إلى متعجبًا فتساءل: تعني أنك بشري؟

هززت له رأسي فتابع قائلًا: هذا مستحيل، كيف نجوت أنت؟ كل بشري يدخل هنا يتم قراءة تعويذة خاصة به ويتم تحويله لطائر أبيس أو يُقتل إن كان طفلًا أو عجوزًا.

اتسعت حدقتا عينيّ دهشة وقلت له متسائلًا: هل كل من يختطفه الكهف يتحول لطائر أبيس؟

هز لي رأسه فتذكرت طيور الأبيس التي شاهدتها عند قدومي هنا فقلت متسائلًا: تعني أن أختي كانت من ضمن تلك الطيور التي شاهدتها اليوم؟

عقد حاجبيه وكأنه لا يفهم شيئًا فتابعت: حين دخلت هنا وجدت سربًا من طيور الأبيس السوداء وبمنتصفها طائرًا أبيض بدا لي وكأنه قائدهم.

_ طائر الأبيس الأبيض الذي رأيته هذا لم يكن قائدهم، هو بشري تم تحويله لطائر أبيس.

صمتَ هنيهة ثم أردف: طيور الأبيس السوداء هم أشخاص من شعبنا، يتم تحويلهم عقابًا لهم على خطأ اقترفوه أو سرقة سرقوها أو مخالفة التعليمات، أما الطيور البيضاء هي البشريين، فربما الطائر الذي شاهدته اليوم يكون أختك، وربما هو بشري آخر غيرها.

نزلت كلماته تلك عليّ كالصاعقة، شعرت بدوران الأرض من حولي وشعرت أنني على وشك السقوط مغشيًا عليّ، استجمعت قواي فقلت له متسائلًا: وأين ستذهب تلك الطيور؟

_ يأخذونهم لمملكة "الغوائل"

سألته بفضول: وماذا سيفعلون في تلك المملكة؟

_ سيأخذونهم للعب.

اتسعت حدقتا عينيّ دهشة وقلت بتعجب: اللعب!؟

_ سأخبرك بكل شيء في وقته، ولكن أخبرني، كيف استطعت أنت التحرر منهم؟

_ لقد استطعت التحرر من تلك الخيوط البيضاء التي كانت تلتّف حولي فسقطت بالجوار هنا.

رفع حاجبيه وقال بتعجب: إن كان ما قلته صحيحًا فقد فعلت معجزة لم يفعلها أحد من قبل سوى رجل واحد وفي النهاية تم إعدامه.

قلت له متسائلًا: أي أرض تلك؟

_ تلك ليست أرضًا، نحن الآن في أُوناسيو.

_ وأين تقع دولة أُوناسيو تلك؟

أُوناسيو ليس دولة؛ أُوناسيو هو كوكب.

دُهشت مما سمعته وقلت له متسائلًا: تعنى أن الكهف يقودنا إلى كوكب آخر بعيدًا عن الأرض؟

رفع حاجبيه وهز رأسه فقلت له متعجبًا: كيف هذا؟

_ لقد استطعت أنت عبور فجوة زمنية تمكنت من خلالها الدخول لكوكبنا في مدة قليلة، والمميز في تلك الفجوة أن الزمن ثابت لا يتغير فيها.

_ هل تمزح معي؟ ما تقوله هذ من رابع المستحيلات، أبتلك السهولة استطعت دخول كوكب آخر غير كوكبنا؟ ذلك الأمر تعجز عن فعله أعظم مركبة فضائية ولو كانت تسير بسرعة الضوء!

_ هناك أشياء تحدث هنا، لا يصدقها العقل البشري، نحن فقط من نصدقها لأننا اعتدنا عليها.

ران عليّ صمت خفيف فقلت: لقد استطعت التحرر قبل عبور ذلك الجبل، ولطالما لا نستطيع معرفة إن كان ذلك الطائر الأبيض هو أختي أو ليست هي فعليّ أن أعبر ذلك الجبل فربما أختي تكون خلفه فسأذهب وأنقذها فربما لم يتم تحويلها بعد.

قال بغضب: هل جُننت، تذهب للموت بقدميك؟ هل ستحارب جيشًا لوحدك؟

_ سأحارب الكون كله لأنقذ أختي.

_ هذا الذي تقول عنه جبلًا هو ليس كذلك، هو سور مملكة "موريكا" تم بناؤه ليحمي المملكة، ولو دخلت فلن تسطيع الخروج، إنهم يقتلون الناس بالداخل بأقل الأخطاء ولا يسمحون لأحد بالخروج من المملكة إلا ميتًا أو ملعونًا.

_ وماذا سأفعل؟ هل أبقى هنا حتى يقتلون أختي أو يحولونها لطائر؟

_ ستأتي معي ونذهب إلى مملكة "الجواسيس" ونطلب من الملك مُحِبْ دخول المملكة ثم تقص له قصتك وأنا ضمين لك بأنه سيساعدك، فهو لا يرد أحدًا يطلب مساعدته.

_ وكم تبعد مملكة "الجواسيس" من هنا؟

_ إن استمررنا في السير نهارًا والنوم ليلًا سنصل إلى هناك بعد ثلاثة أيام.

صحت فيه غاضبًا وقلت: تريدني أن أنتظر ثلاثة أيام حتى تُقتل أختي؟

قال بحنق: أنا قلت لك ما رأيته صحيحًا، فافعل ما شئت.

مشي بضع خطوات فتوقف فجأة ثم التفت إليّ وقال: لو لم تتحول أختك لطائر فلديك فرصة لتعود وتنقذها، وإن تم تحويلها فلديك أيضًا فرصة لتنقذها من الموت، يتبقى شهر على موعد عيد استقلال مملكة "الغوائل" وعلى موعد اللعبة.

بقيت واقفًا مكاني لا أدري ماذا أفعل، فأنا لم أمر بمأزق كهذا في حياتي أكون مُطالبًا فيه باتخاذ قرار ما بسرعة دون التفكير والتأني، لعل ما يقوله هذا

الشاب صحيحًا، ولعل ما أفكر فيه أنا أيضًا هو الصحيح، ولكني لا أعرف أحدًا هنا ولا أعرف الطرق وسأجد صعوبة في التعامل مع الناس هنا مثلما حدث لي مع الرجلين اللذين كانا يسوقان الحمير والرجل صاحب المزرعة، ولعل هذا الشاب يكون هو العلامة التي ستساعدني، أسرعت خلفه قائلًا: انتظر، سآتي معك.

ابتسم وقال: أحسنت صُنعًا يا بوبو.

قلت له بحنق: فارس، اسمي فارس.

قال مبتسمًا: يا له من اسم جميل.

وتابع: وأنا اسمي سراج.

عقدت حاجبيّ وقلت بتعجب: إنه اسم عربي!

_ نعم هو كذلك، حين ولدت كان يتعلم أبي اللغة العربية فقام بتسميتي اسمًا عربيًا، وأنا تعلمت اللغة العربية بعد وفاته.

_ وما هي اللغة الرسمية هنا.

_ الهيروغليفية.

توقفت عن السير وقلت له متعجبًا: لغة المصريين القدماء! كيف تجيدونها؟

_ لقد جعلها الملك أوناس لغتنا الرسمية عندما دخل الكوكب هنا.

_ من هو الملك أوناس؟

قال غاضبًا: أنت كثير الأسئلة يا فارس، عندما نصل لمملكة "الجواسيس" ستعرف كل شيء.

قلت له متسائلًا: مملكة "الجواسيس" التي سنذهب إليها هل بها الرجال فقط أم الرجال والنساء.

أجاب متعجبًا: بل بها الرجال والنساء.

قلت: إذًا، فعيني تلك التي ترعب الرجال هنا ستعجب هناك النساء.

غضن حاجبيه وقال متسائلًا: وكيف ذلك؟

أجبته بسخرية: أنت كثير الأسئلة يا سراج، قلت لك عندما نصل لمملكة "الجواسيس" ستعرف كل شيء.

صرنا نضحك سويًا فقال: علينا الإسراع قبل غروب الشمس.

أثناء سيرنا قلت له: أتعلم يا سراج أن لغتكم بها كلمات تشبه لهجتنا كثيرًا؟

وتابعت: كلمة بوبو بعدما أخبرتني إنها تعني الشبح تذكرت أننا نقولها أيضًا ولكننا نقول "بُعبُع"

وأيضًا كلمة "مو" قريبة من كلمة ماء، وكلمة امبو التي قالها لي ذلك الرجل صاحب البئر.

صمتُ قليلًا وصرت أضحك فنظر إليّ سراج متعجبًا وقال: امبو تعني اشرب.

قلت له ضاحكًا: أنا أعلم ذلك، ولكنها تُقال للأطفال عندنا.

ابتسم سراج ابتسامة هادئة فتابعت كلامي: وكلمة عا التي قالها ذلك الرجل للحمير نقولها أيضًا في قريتنا.

نظر إليّ سراج بغضب وقال: ألا تتعب من كثرة الثرثرة يا فارس؟

_ أنا أريد أن أهوّن عليك عناء الطريق بالحديث معك.

_ هَوّن عليّ عناء الطريق بصمتك.

بعدما غربت الشمس توقفنا وأخبرني بأننا سنبيت هنا تلك الليلة، قمنا بحفر حفرتين ليحميانا من برودة الطقس وبقينا طوال الليل بداخلهما، في الصباح أيقظني سراج لنكمل طريقنا، نظر إلى ملابسي وقال: انتظر هنا ولا تبرح مكانك حتى أعود إليك.

دخل إحدى المزارع وخرج ومعه بعض الملابس المصنوعة من جلود الحيوانات وطلب مني أن أرتديها وأتخلص من ملابسي التي ألبسها لئلا يفطن لي أحد بسبب ملابسي الغريبة والمختلفة عن الجميع، نظر إلى

الحقيبة خلف ظهري فقال: وهذه أيضًا تخلص منها لتبعد عن نفسك وعني الشبهات.

أمسكت الحقيبة واحتضنتها وقلت له بغضب: أنا أفرط في أي شيء إلا تلك الحقيبة، لقد ورثتها من أبي وهي آخر ما تبقى لي منه.

_ لا بأس بالحقيبة، ولكن هيا بدّل ملابسك تلك.

رفعت حاجبيّ وقلت بخجل: ولكني لا أعرف كيف تلبسونها.

تنهد وقال بغضب: لقد غضبت من صاحب البئر لأنه يقول لك امبو، والآن أنت مثل الأطفال لا تعرف كيف ترتدي ملابسك.

_ وما ذنبي؟! فأنا لم أرتديها من قبل.

كانت الملابس التي أحضرها لي عبارة عن قطعتين من الجلد، قطعة مخصصة للجزء العلوي من الجسم وقطعة أخرى للجزء السُفلي، كانت تفوح منها رائحة غريبة ومقززة تُشبه رائحة دماء الحيوانات المذبوحة، أُصبت بالسعال الشديد عندما اقتربت تلك الملابس من أنفي، كانت رائحتها مقززة جدًا، صار سراج يلف قطعة الجلد ببعضها ويقوم بربطها ببعضها بواسطة خيوط رفيعة وقصيرة تم صنعها خصيصًا في جوانبها، بدأ بربط الخيوط من الأعلى حتى وصل إلى سُرتي، اتسعت حدقتا عينيه وفغر فاهُ دهشةً وذهولًا حين رأى الشامة البيضاء أعلى سُرتي، توقف قليلًا وصار ينظر إلى عينيّ تارة وإلى الشامة البيضاء تارة أخرى وعلامات التعجب تسيطر عليه، لاحظت تغيّر ملامحه فباغته متسائلًا: لماذا توقفت؟

ازدرد ريقه بصعوبة بالغة وسألني بفضول: متى حصلت على تلك الشامة؟

عقدت حاجبيّ وأجبته بتعجب: حصلت! مَن مِنّا باستطاعته الحصول على شامة كهذه؟

صمتُّ هنيهة ثم أردفت قائلًا: لقد ولدت بها.

هزّ رأسه مُبتسمًا فواصل مساعدتي في ارتداء ملابسي فسألته بفضول: لماذا لفتت انتباهك تلك الشامة؟ ألها قصة ما بكوكبكم هنا؟

أجاب بغير اكتراث: لا، لقد كان سؤالًا فحسب.

بعدما رأيت ردة فعله هذه حين رأى تلك الشامة تأكدت أن الحلم الذي تحررت منه له علاقة بما يحدث لي هنا الآن، وربما تلك الشامة هي العلامة التي كان يقصدها الرجل الفرعوني في الحلم، يبدو أن لتلك الشامة قصة ما هنا يعرفها سراج ولكنه يُخفيها عني.

واصلنا السير نحو مملكة "الجواسيس"، كان سراج يدخل بعض المزارع التي تقابلنا في طريقنا ويجلب لنا منها الطعام والماء.

سألته عن سر تلك المزارع الكثيرة التي كنا نمر بها، ولماذا هم مستقلون عن الناس في أي مملكة أو أي قلعة من تلك القلاع التي مررنا بها أثناء سيرنا؟

أجاب قائلًا: في أي مملكة لو حصلت على قطعة أرض بداخلها وقمت بزراعتها طوال العام فسيكون نصيبك من محصولها الرُبع فقط، والمتبقي يكون من نصيب الحاكم، فاختار هؤلاء الهرب من أي مملكة وقاموا باستصلاح أرض تصلح للزراعة وقاموا بحفر بئر على رأسها ويقومون بزراعتها، يحصل الأشخاص الذين يقومون بحماية تلك الأرض على رُبع المحصول نظير حمايتهم، والمتبقي يكون من نصيب صاحبها.

_ وهل يسكنون داخل مزارعهم؟

_ منهم من يسكن داخل مزرعته، ومنهم من يتخذ كهوف الجبال سكنًا له.

قبل غروب شمس اليوم الثاني أخبرني سراج أننا سنبيت تلك الليلة هنا ونحن الآن على بُعد مسافة قريبة من مملكة "الجواسيس" وسنكمل المسافة المتبقية صباحًا.

في الصباح أكملنا المسافة المتبقية فلم نلبث كثيرًا حتى وصلنا لمملكة "الجواسيس"، كانت المملكة ذات سور حجري ضخم تم بناؤه بواسطة الأحجار الكبيرة وقد تم تسويتها وجعلها مصطفة بجانب بعضها البعض بطريقة رائعة وعليها بعض النقوش التي تشبه النقوش الفرعونية وبوابة المملكة كانت خشبية ضخمة مصنوعة من الخشب المتين.

طلب مني أن أبقى مكاني أنتظره وسيذهب هو ليتحدث مع الحارس الموجود في برج المراقبة أعلى السور.

ذهب إليه وأصبح يتحدث معه بلغتهم فرأيت الحارس الموجود ببرج المراقبة يتحدث مع شخص آخر داخل المملكة وسراج قادم نحوي.

فلما وصل إليّ سألته: هل سمحوا لنا بالدخول؟

أجاب: نعم سمحوا لنا بذلك ولكنهم سيقومون بتفتيشنا أولًا ثم سيذهبون بنا لمقابلة الملك محب لنطلب منه العيش داخل مملكته وتقص عليه أنت قصتك فربما يساعدك.

صار سراج يقلب النظر إليّ وهو ينظر لشعري تارة ولعينيّ تارة ولملابسي تارة أخرى، فنظر للحقيبة وقال بقلق: أنا لا أخشى شيئًا سوى تلك الحقيبة اللعينة.

وتابع قائلًا: عندما ندخل لا تسِر بالقرب من الناس، ولا تختلط بأحد ولا تحدث أحدًا، إن أردت فعل أي شيء فأخبرني أولًا، لا نريد الوقوع في المشكلات هنا.

بقينا واقفين أمام البوابة منتظرين فتحها، أشار الحارس الموجود ببرج المراقبة بيده للداخل ففُتحت البوابة ودخلنا فاستقبلنا ثلاثة حراس كانوا يرتدون الجلود المصبوغة باللون الأحمر والتي يبدو أنها ملابس موحدة للحراس هنا.

أدخلونا غرفة صغيرة كانت بجوار البوابة وبدأوا بتفتيشنا، كانت أنظار الحراس متسلطة عليّ، كانوا يقلبون النظر إلى شعري الأسود وعينيّ السوداوين بتعجب وذهول، تيقنت حينها أنني في مأزق كبير الآن، فالملابس وإن كانت تُشبه ملابس الجميع هنا فشعري وعيني مختلفين ويصعب إخفاؤهما.

لاحظ سراج اندهاش الحراس من لون شعري وعيني فوجدته يزدرد ريقه بصعوبة وقد بدا عليه التوتر.

نظر أحدهم إلى الحقيبة خلف ظهري وأمعن النظر فيها فقاطع سراج نظراته وحدثه بلغته وكأنه يفسر له حقيقة تلك الحقيبة، خرج أحد الحراس من الغرفة وهو يشير لنا بأن نتبعه.

بعدما خرجنا سألت سراجًا بفضول شديد: أين سنذهب؟

_ سنذهب لمقابلة الملك محب في قصره ليقص له كلٌّ منّا قصته ليسمح لنا بالعيش هنا.

_ والحقيبة؟

_ ستظل معهم ليقوموا بتفتيشها أولًا ومن ثم يرسلونها إليك.

_ كل أموالي داخل الحقيبة.

_ لا تقلق، هذه مملكة العدل، لا يسرق فيها أحد.

_ هه، نعم هي مملكة العدل، ولذلك اسمها مملكة "الجواسيس".

زفر سراج وقال بحنق: ألا تكف عن ثرثرتك تلك أيها الأحمق.

وضعت يدي على فمي وقلت: لقد صمتُّ الآن، ولكن لو نقص شيئًا من حقيبتي سأحاسبك أنت.

سرنا خلف الحارس وعيناي تراقب الأجواء داخل المملكة، كانت الأجواء في غاية الجمال والروعة، كانت البيوت مكونة من طابقين ولكنها كانت عالية جدًا وواسعة جدًا وتُشبه المعابد الفرعونية القديمة، كانت تبرز من كل بيت شُرفة بالداخل تطل على حديقة البيت، ولكل بيت حديقة، ولكل بيت شكله الخاص والمختلف، وكأن الجميع تنافس هنا على إظهار بيته بصورة أجمل من البيت الذي يليه، بدت لي البيوت وكأنها بُنيت بواسطة أفضل مهندسي العمارة في الكون، فما يميز البيوت هنا هو اختلافها وأنها لا تُشبه بعضها من حيث اللون.

كنت أسير بفرحة عارمة وأنا أتأمل جمال البيوت من حولي وزخرفتها الساحرة التي أصابتني بالذهول، كان الصخب يسيطر على أجواء المملكة بالداخل، الشوارع ممتلئة بالأطفال والرجال والنساء، الشيوخ تجلس بشكل

دائري في مجلس لهم ويجلس في المنتصف شخص يبدو وكأنه يعلمهم شيئًا ما أو يقص عليهم بطولاته وجولاته على الكوكب هنا، بعض الأشخاص كان جالسًا وتتجمع حوله الأطفال وأمامه مجموعة من الأفاعي وهو يعزف لها بالناي فتتراقص أمامه وسط فرحة الأطفال حوله، وشخص آخر يداعب قردًا ويجعله يقفز من فوق الأطفال ويقوم بمصافحتهم وهم يضحكون فرحًا ويهتفون ويهللون له وهم في حالة كبيرة من السعادة والانتشاء، توقفت عن السير وصرت أنظر إليهم مسرورًا ومغتبطًا فأمسكني سراج من ذراعي وجذبني إليه وقال بحنق: هيا أيها الطفل الصغير لنكمل مسيرنا، وعندما ننتهي من مقابلة الملك محب سأعود بك إلى هنا لتلعب مع الأطفال.

لم أكترث لكلام سراج لقد أسرتني أجواء المملكة كثيرًا، فلا هواتف تشغلهم، ولا تلفاز يهدم فطرتهم التي ولدوا بها، المملكة هنا تعجّ بالحياة، رائحة الخبز تفوح من كل بيت، رغم بساطة ملابسهم وفقرهم الشديد إلا أن الجميع هنا يسير مُبتسمًا ويحيي الآخر بابتسامات عابرة، وكأن السعادة قد أنستهم الفقر الذي يعيشونه.

تابعنا السير خلف الحارس فأدخلنا قصرًا كانت جدرانه مختلفة عن جدران البيوت الأخرى، جدرانه من الخارج كانت مبنية بواسطة الأحجار الصغيرة المقطعة من الجبال ومتراصة بجانب بعضها بشكل جميل واحترافي وكانت ألوانها جميلة ومتنوعة.

بعدها دخلنا إلى غرفة كبيرة وبها مصطبة حجرية كبيرة يبدو وكأنها مخصصة للضيوف ومفروش عليها بعض الجلود وأمرنا الحارس بالجلوس عليها وانتظار الملك محب.

بعد مدة قليلة دخل علينا الملك محب وبجانبه حارسان، نهض سراج من مكانه وبقيت أنا جالسًا مكاني لم أقف، نظر إليّ سراج نظرات عتاب وأشار إليّ برأسه بأن أقف فوقفت.

كان الملك محب كهلًا في أواخر الأربعين من عمره ذا وجه مستدير وممتلئ ولديه شعرًا أشقر يتخلله بعض الشعر الأبيض وعيناه خضراوان ولحيته شقراء متوسطة الطول ويتخللها أيضًا بعض الشعر الأبيض.

سار الملك محب نحو كرسيه الخشبي الضخم فجلس وأمر الحارسين بالانصراف وأشار لنا بالاقتراب فاقتربنا ووقفنا أمامه فجثا سراج على ركبتيه فلحقت به وجثوت بجانبه وسألته بقلق: سراج، ماذا حدث لك؟ هل أنت بخير؟

فأجاب هامسًا: أيها الأحمق، أنا أجثو احترامًا وإجلالًا للملك.

ارتسمت على وجه الملك محب ابتسامة خفيفة وأشار لسراج بالوقوف فوقف وصارا يُحدثان بعضهما بلغتهما وأنا واقف لا أفهم شيئًا ولا أفعل شيئًا سوى أن أنظر للملك محب تارة ولسراج تارة أخرى وأرى ابتسامات سراج للملك محب وتعابير وجهه المغتبطة فأجزمت على أنه قد وافق على أن نعيش هنا وربما سيوافق على مساعدتي وإنقاذ أختي.

أثناء حديثهما دخلت فتاة صغيرة ترتدي رداءً قصيرًا مصنوعًا من الصوف وتلف حول جبينها خيطًا من الصوف ليمنع تطاير شعرها الأشقر الطويل.

كانت تمسك في يدها سيفًا وصارت تُري الملك محب مهارة يبدو أنها تعلمتها حديثًا، صار الملك محب يصفق لها بحرارة وسعادة، قلت لسراج هامسًا: من تلك؟

_ إنها الملكة نيڤيا، ابنة الملك محب.

عقدت حاجبيّ وسألته بفضول شديد: ماذا يعني اسم نيڤيا

أطبق "سراج عينيه فزفر وقال بغضب: فارس؛ هل أنت بكامل قواك العقلية؟ هل هذا وقت تفسير معاني الأسماء أيها الأحمق؟

تابع الملك محب حديثه مع سراج وبقيت الفتاة واقفة بجوار الملك محب وأنا أنظر إليها وتنظر هي إليّ بتعجب شديد، لقد كانت قصيرة القامة بيضاء

البشرة خضراء العينين ولعينيها لمعان وبريق لم أره في أي عين رأيتها من قبل، وكأن كل جمال الكون قد اجتمع في عينيها.

بقيت واقفًا أتأمل ذلك الجمال ولم أعِ شيئًا إلا عندما ضربني سراج بذراعه في بطني وقال لي هامسًا: الملك محب يسألك ما قصتك؟

_ هل أتحدث معه بلغتي؟

_ نعم، هو يجيد التحدث بأربع لغات ومن ضمنهم اللغة العربية.

_ كيف تعلم كل تلك اللغات؟

همس إليّ بغضب: هل كل البشريين أغبياء هكذا مثلك؟ أتريدني أن أترك لقاء الملك محب وأجلس لأقص عليك كيف تعلم كل تلك اللغات أيها الأحمق؟

قاطعنا الملك محب وقال بحِدة: أنت، كفى ثرثرة وأخبرني لماذا جئت إلى هنا؟

_ لقد فقدت أختي واختطفها كهف نجوسو فدخلت الكهف لأنقذها فقادني إلى هنا وقابلت سراج فقال لي إنك ستساعدني في إنقاذ أختي.

_ كيف نجوت أنت وكل بشري يدخل هنا يتم تحويله لطائر أبيس ويرسلونه لمملكة " الغوائل" أو يقتلونه؟

_ لقد استطعت التحرر من الخيوط البيضاء التي كانت تلتف حولي وقفزت من داخلها قبل أن تدخل بي مملكة "موريكا".

نظر إليّ مندهشًا وقال بتعجب: خيوط بيضاء!

_ نعم، ونفس الخيوط كانت تلتف حول أختي أيضًا عندما اختطفها الكهف.

صار يداعب لحيته بأصابعه وهو ينظر إليّ ويشرد بتفكيره فنهض من على كرسيه وقال بجدية: لقد وافقت على مكوثكما داخل مملكتي، ستحصلان على راحة اليوم وغدًا، وبعد غد سيتسلم كل شخص منكما عمله الجديد،

سيحصل كل شخص منكما على ثلاث قطع ذهبية نظير عمله لمدة شهر، أول سنة ستسكنان في مسكن العمال ويتوجب على كل شخص منكما أن يدّخر كل شهر قطعة ذهبية على الأقل ليشتري لنفسه منزلًا خاصًا به بعد مرور عام، ومن لم يستطع فسنطرده من مملكتنا، فلا مكان للكسالى داخل مملكتنا.

أشار لسراج ثم تابع: هذا بالنسبة لك أنت، أما ذلك البشري فهو لم يقنعني بقصته تلك وسيقابلني غدًا في نفس هذا الموعد بمفرده وعليه أن يفكر في شيء أكثر جدية يقوله لي ليجعلني أقتنع بقصته.

نظر إلى الفتاة الصغيرة وأردف: اذهبي معهما يا نيقيا لتريهما مسكنهما الجديد وعرفيهما القوانين جيدًا.

هزت له رأسها مع ابتسامة خفيفة فسارت أمامنا وتبعتها أنا وسراج فقلت له هامسًا: كيف فهمت ما قاله الملك وقد تحدث باللغة العربية؟

همس لي سراج بكلام لم أسمعه جيدًا فقلت له: ماذا قلت؟

توقفت الفتاة عن السير فجأة ونظرت إليّ وقالت بغضب: يقول لك إنني تعلمت اللغة العربية بمساعدة من أبي، هل أنت أصم؟ هيا اتبعاني ولا تكثرا الحديث.

فغرت فاهي ذهولًا مما سمعته وأنا أحدث نفسي قائلًا: كيف لفتاة صغيرة مثلها تتعلم لغة صعبة كاللغة العربية!

بعدما وصلنا لمسكن العمال وجدناه مكانًا واسعًا جدًا ومكونًا من مجموعة غرف صغيرة وبكل غرفة يسكن شخصان، فتحت الفتاة الصغيرة إحدى الغرف فدخلت وأمرتنا بالدخول، أعطت المفتاح لسراج وقالت له: عند خروجكما من الغرفة ستقومان بغلقها.

وتابعت: الحمام ستجدونه في الساحة الخارجية وهو حمام عام لكل العمال، وفي موعد كل وجبة ستسمعان صوت الأجراس ومن يتأخر وتفوته أية وجبة فسيظل جائعًا حتى موعد الوجبة التالية.

نظرت إليّ وأكملت: بعد لقاءك مع أبي في الغد سأقوم بتسليمكما عملكما الجديد، هذا لو قبل أبي أن تظل هنا.

اشتطت غيظًا وقلت لها بغضب: مالي أنا وتلك القوانين؟ لقد جئت إلى كوكبكم اللعين هذا لأنقذ أختي وأعود من حيث جئت لا لأتعلم القوانين وأنتظر وجبات الطعام.

صاح سراج قائلًا: فارس، لا يعلو صوتك أمام ابنة الملك، فهي وريثة العرش وبمثابة ملكة.

قاطعته الفتاة الصغيرة قائلة: دعه يقول ما يشاء، إنه قلق على أخته، وسأتغاضى عما فعله هذا من أجل أخته وفقط.

تركتهما وذهبت إلى أحد الكراسي الخشبية الموجودة بالغرفة فجلست ووضعت رأسي بين كفيّ في حزن وقد سيطر عليّ الصمت، غادرت الفتاة فأغلق سراج الباب خلفها فجاء إليّ مسرعًا وقبل أن يتحدث قلت له بغضب: لا تتحدث معي، فأنت سبب قدومي إلى هنا.

بدا الحزن على وجهه وقال بنبرة حزينة: سامحني يا فارس، لقد ظننت أن الملك محب سيساعدك على الفور، ولكنه خيب ظني.

نظر إليّ وقال بتعجب: ولكن الأمر الذي حيرني هو أنني رأيت الملك محب متأثرًا بقصتك ويستمع لك بإنصات شديد وقد بدت على ملامحه علامات الدهشة ففرحت وقلت في نفسي حتمًا سيساعدك والأكثر حيرة هو أنه طلب مقابلتك غدًا بمفردك!.

_ لن أنتظر للغد، بعد قليل سأذهب إلى البوابة وأتسلم حقيبتي وأرحل من هنا.

_ لو فعلت ذلك ستثير حولك الشكوك وسيظنون أنك جئت إلى هنا لتتجسس عليهم وربما سجنوك وسجنوني معك.

نهضت من على الكرسي وقلت له غاضبًا: وماذا سأفعل يا سراج؟ أما رأيت ما حدث؟ أقول له إن أختي أسيرة وربما سيقتلونها أو يحولونها لطائر إن لم

ألحق بها وأنقذها فيقول لي ستعمل وتحصل على القطع الذهبية كل شهر وبعد سنة تشتري بيتًا خاصًا بك، هل جئت بي إلى هنا ليتم أسري كأختي يا سراج؟

أطرق رأسه هنيهة ثم رفعه ونظر إليّ فقال: أمامنا الآن خياران يا فارس، الخيار الأول هو أن ننتظر حتى الغد لتقابل الملك محب وتحاول إقناعه بأن يساعدك، والخيار الثاني هو إن رفض الملك محب مساعدتك بعد لقائك به في الغد فسأساعدك على الخروج من هنا، وفي كلا الخيارين سننتظر حتى الغد.

تنهدت وقلت: لقد سرنا في الصحراء لمدة ثلاثة أيام، فلا ضير إن انتظرت يومًا آخر.

انقضت الليلة وفي الصباح استيقظنا على صوت الأجراس الذي يوحي ببدء وجبة الفطور، قال لي سراج متعجلًا: هيا لنلحق وجبتنا.

حين خرجنا من الغرفة وجدنا عشرات العمال مصطفين خلف بعضهم وينتظر كل شخص منهم دوره لدخول الحمام، قلت لسراج: هل تأخرنا؟

_ لقد تأخرنا على دخول الحمام ولكننا لم نتأخر على وجبة الفطور، هيا نذهب لنأكل أولًا.

عقدت حاجبيّ وقلت له باشمئزاز: هل تريدني أن آكل ويداي متسختان؟ وفمي ووجهي أيضًا متسخان.

_ إن انتظرت خلفهم فستفوتك وجبة الفطور.

_ اذهب أنت وسألحق بك.

انتظرت خلف العمال وبعد انتظاري لمدة طويلة دخلت فقضيت حاجتي وغسلت يديّ ووجهي وفمي ثم خرجت وقبل أن أدخل لغرفة الطعام أوقفني أحد الحراس ومنعني من الدخول لأن الوقت انتهى.

انتظرت سراج بالخارج فوجدته قادمًا نحوي وهو يمسك بشيء يأكله فقلت له متسائلًا وقد سال لعابي: ما هذا الذي تأكله يا سراج؟

أجاب وهو مستمر بالأكل: إنه الخبز الممزوج بالبيض واللبن.

تنهدت وقلت له: هل وجبة الغداء سيكون موعدها قريبًا؟

نظر إليّ بطرف عينه وقال: وجبة الغداء سيكون موعدها بعيدًا جدًا جدًا.

صمتَ قليلًا وتابع: ولكنك إن كنت تمتلك صديقًا اسمه سراجًا فسيكون موعدها الآن، فوضع يده داخل ملابسه الجلدية وأخرج قطعة قماش صغيرة ملفوفة حول بعضها فمدها إليّ، حين فتحتها وجدت داخلها خبزًا وبيضًا وقطعة من الجبن.

قلت له مبتسمًا: سرقت وجبة الفطور الخاصة بي؟

هز رأسه مُبتسمًا فبدأت بالأكل، توقفت فجأة وقلت له متسائلًا: سراج، هل سرقتها بيديك المتسختين هاتين؟

أجاب بحنق: نعم، وإن كانت لا تُعجبك فردها إليّ.

فباشرت الأكل وقلت: لا بأس بيديك، فأنا جائع.

بعدما أكلت قلت: ماذا سنفعل الآن؟

_ سنذهب إلى الحانة لنشرب شرابًا.

_ هل تشرب الخمر يا سراج؟

_ أنا لا أشرب الخمر، وأيضًا هو ممنوع هنا، فمن يقوم بصنعه هنا أو شُربه سيعرضه ذلك للسجن، وإن كرر الأمر فيكون نفيه خارج المملكة هو الخيار الأخير.

_ وكيف سنذهب إلى الحانة وأموالي كلها بداخل الحقيبة.

_ هل لديك أموال يا فارس؟

_ نعم.

_ كم قطعة ذهبية تمتلك؟

_ أموالي ليست ذهبًا.

_ فضة إذن.

_ أموالي ليست ذهبًا ولا فضةً ولا نحاسًا.

وتابعت: عملتنا هي الجنيه المصري.

غضن حاجبيه وقال متعجبًا: ما هو الجنيه المصري؟

_ هي عملة ورقية نستخدمها في كوكبنا.

أطبق عينيه وأخذ شهيقًا كبيرًا ثم أخرجه فقال بغضب شديد: فارس، هل سبق أن قلت لك أنك أحمق من قبل؟

_ نعم، لقد قلتها لي أربع مرات تقريبًا من قبل.

_ إذًا، فخذها مني للمرة الخامسة أيها الأحمق.

وتابع: هل جُننت؟ هل تريدنا أن نذهب إلى الحانة ثم نطلب الشراب وبعدما ننتهي نُعطي النادل مجموعة أوراق لعينة؟ سيقتلنا أيها الأحمق.

_ وماذا سنفعل الآن؟

_ أنا معي قطعة ذهبية، سنذهب إلى السوق وأقوم بتحويلها لخمسين قطعة فضية ومن ثم نذهب للحانة.

ذهبنا إلى السوق وأصبحنا نسير داخله ببطء شديد، كان السوق مزدحمًا بالمشترين والبائعين وبعض التجار وبعض الحراس الذين يراقبون السوق.

وقف سراج أمام أحد الأشخاص وقد كان جالسًا وأمامه طاولة خشبية كبيرة وبها أدراج صغيرة فأعطاه القطعة الذهبية ثم قام الرجل بإعطائه خمسين قطعة فضية فأخذهم سراج وقال لي هيا نذهب إلى الحانة.

دخلنا الحانة وجلسنا على أحد المقاعد الخشبية وأمامنا طاولة خشبية صغيرة فسألني: ماذا تريد أن تشرب؟

_ هل يصنعون القهوة هنا؟

عقد حاجبيه وقال متعجبًا: ما هي القهوة؟

_ دعك من هذا، هل يصنعون الكابتشينو؟

أطلق تنهيدة كبيرة فقال بحنق: فارس، نحن هنا في كوكب أُوناسيو، انسَ كل شيء يتعلق بكوكبكم اللعين هذا، فلن تجد هنا ما اعتدت عليه بكوكبكم.

_ أنا لا أعرف شيئًا هنا، فلتطلب لي أنت شرابًا.

نظر إليّ مُبتسما فقال: أحسنت صنعًا يا بوبو.

نادى على النادل فلما جاءه صار يتحدث معه بلغتهم فهز له النادل رأسه ثم رحل.

سألته بفضول: ماذا طلبت؟

_ لقد طلبت لنفسي الجعة، وطلبت لك أنت "الآنست".

_ ما محتوى هذين المشروبين؟

_ ستعرف لاحقًا.

جاء النادل بعد مدة قليلة ومعه المشروبان فوضع أمامي مشروبًا أصفر اللون وبأسفله حبوب خضراء اللون وبيضاوية الشكل ووضع أمام سراج مشروبًا أبيض اللون وله رغوة تُشبه رغوة الحليب.

أمسكت مشروبي وارتشفت منه رشفة صغيرة فنظرت ل سراج مبتسمًا فقال: إنه لذيذ، أليس كذلك؟

قلت له بسخرية: هذا يانسون أيها الساذج.

غضن حاجبيه وقال بتعجب: من هم أولئك الذين ينسون؟

قلت له ضاحكًا: هذا المشروب الذي طلبته لي يُسمى بكوكبنا يانسون.

أمسك مشروبه ومده إليّ فقال: تذوق هذا لنرى إن كنت تعرفه أم لا.

أخذته منه وارتشفت منه القليل فضحكت وتعالت ضحكاتي في الحانة فقال ساخرًا: ما الأمر؟ هل تسمونه يتذكرون بكوكبكم؟

قلت له ضاحكًا: تلك نسمِها بكوكبنا البوظة.

وتابعت ساخرًا: الأسماء بكوكبكم تبدو غريبة كغرابته.

بعدما انتهينا من الشراب خرجنا من الحانة فقلت لسراج: إلى أين المسير الآن؟

قال: هيا نسير ناحية القصر لننتظر هناك حتى يحين موعد لقائك بالملك محب.

سرنا نحو القصر فوجدنا بجانب القصر تجمعًا للناس وهم ملتفون بشكل دائري حول شيءٍ ما والجميع يصيحون ويهللون ويهتفون لشخص ما، فلما اقتربنا وجدنا بالداخل شخصًا ضخمًا ذو عضلات قوية ويرفع ذراعيه تفاخرًا لتبرز عضلاته الكبيرة والقوية وسط تصفيق كل الحاضرين فقلت لسراج متسائلًا: ما هذا؟

_ إنها مسابقة تُقام كل شهر لاختبار مهارة الناس هنا في المصارعة.

_ ومن هذا الضخم؟

_ إنه "أكوابار" أقوى رجل في مملكة "الجواسيس" هنا.

سألته بفضول: وما قوانين تلك اللعبة، هل تعتمد على الضرب المبرح أم خنق المتسابق لمنافسه حتى الموت؟

_ لو فعل أي شخص ما قلته سيعتبر خاسرًا، قوانين اللعبة هي أن تطرح منافسك أرضًا، بلا أية ضربة تؤلم الآخر، وممنوع الاقتراب من منطقة الرأس، لأنها في الأخير مجرد لعبة.

_ هل تلك اللعبة شبيهة بلعبة مملكة "الغوائل"؟

_ تلك اللعبة هنا لها قوانين تحكمها، أما اللعبة التي أخبرتك عنها في مملكة "الغوائل" فلا ينتصر فيها إلا من يقوم بقتل التسعة طيور الأخرى ويبقى طائره فقط على قيد الحياة.

خفق قلبي وتسارعت ضرباته بعدما سمعت منه كلمة قتل، فربما تكون أختي إيمان مُشارِكة في تلك اللعبة.

سألته بفضول شديد: ما هي مملكة "الغوائل" تلك؟ وكيف تُلعب تلك اللعبة بها؟

شرد بعينيه إلى ساحة المصارعة فأجاب بصوت خافت: مملكة "الغوائل" هي أخطر مملكة على كوكبنا هنا، إنهم ورغم فسادهم وظلمهم إلا أنهم أقوياء جدًا وأذكياء جدًا، بعدما استقلوا في السابق عن مملكة "موريكا" اختاروا لأنفسهم مكانًا بعيدًا عن "موريكا" في أقصى الغرب من كوكبنا، مكانًا يصعب الوصول إليه، جعلوا لمملكتهم بوابة واحدة فقط ويحدها من الثلاث جهات الأخرى بحر "الغياهب" وأي شخص يُخطئ يتم الحكم عليه بإلقائه في هذا البحر وهو أشد أنواع العقاب بالمملكة، لا يفتحون باب مملكتهم لأحد إلا يوم عيد الاستقلال الخاص بهم، يتزوجون ويتكاثرون ويزداد عددهم كل يوم.

قاطعته متسائلًا: أين تقع تلك المملكة؟

_ بعد جبال "المنيف" أربعة جبال شاهقة، كل جبل أشد خطرًا من الآخر، كل جبل له قصة وحكاية، ولكل جبل وحش يحرس الممر الخاص به، لا تستطيع عبورها راكبًا، ستهلك الماشية، ولا تستطيع عبورها سيرًا، ربما ستهلك قبل أن تصل ولو وصلت لن تستطيع الدخول، فهم لا يسمحون لأحد دخول مملكتهم أيًا كان إلا يوم الاستقلال وبدء اللعبة.

صمتَ هنيهة ثم أضاف: عقدوا اتفاقية مع «ناتون» بأن لا يعادون بعضهم البعض ووافقوا على حمل «ناتون» للكتاب وبقاءه بحوزته على أن يجلب لهم كل بشري يدخل الكوكب أسيرًا بعد تحويله لطائر "أبيس" ليحتفلوا كل عام بعيد استقلالهم على مشاهد قتلهم وصرخاتهم وأنينهم، ويتسابق الجميع ليشارك في لعبة "البقاء" وهي لعبة قاتلة يشارك فيها عشرة أشخاص يتم اختيارهم من بين المئات من المتقدمين للاشتراك في اللعبة، ويتم اختيار الأكثر مهارة في القنص وتسديد السهام بعد عمل اختبار مخصص لهم، يحصل كل متسابق على طائر أبيس أبيض ويكون مطالبًا بحمايته من تسديدات المتسابقين الآخرين ومحاولة قنص طائره الخاص

به، وأي سهم يصيب الطائر ربما يقتله على الفور، فالبشريين هنا يتنفسون بواسطة دماءهم ولو فقدوا بعضًا منها ماتوا.

شردت وتذكرت رسالة أبي حين قال فيها "حافظ على دمائك فإنها أغلى ما تملك"، أيقنت الآن أن أبي يعرف كثير من أسرار هذا الكهف.

نظرت لسراج وسألته قائلًا: وما الجائزة التي سيحصل عليها المتسابق الفائز؟

_ ستكون له أمنية يتم تحقيقها له أيًا كانت، وسيحصل في النهاية على الطائر نفسه ليكون رفيقه مدى الحياة.

شعرت بالقلق بعدها ودعوت الله أن لا يكون قد تم تحويل أختي لطائر حتى لا تشارك في تلك اللعبة الوحشية والقاتلة.

عدت لمتابعة ما يجري في ساحة المصارعة فقلت لسراج متسائلًا: من ينظم تلك المسابقة؟

_ ينظمها الملك محب والملكة نيڤيا هي من تُشرف عليها.

صرت أقلب النظر من حولي بحثًا عن الملكة نيڤيا فوجدتها تجلس على أحد الكراسي ويجلس حولها كثير من النساء، فلما رأتني أنظر إليها نهضت من مكانها وسارت قادمة نحونا وتتبعها النساء من خلفها فوقفت أمامنا أنا وسراج وهي تنظر إليّ فقالت: هل أعجبتك مملكتنا أيها البشري؟

قلت مبتسمًا: لقد أعجبتني الأجواء هنا كثيرًا، إنها رائعة.

نظرت ل سراج وقالت: ألا تُشارك في مسابقتنا أيها المُدرب وتُصارع "أكوابار"؟.

قال لها مُبتسمًا: أنا أعمل مُدرِبًا في مهارة القتال بالسيف أيتها الملكة، لا أقدر على مصارعة العمالقة أمثال "أكوابار".

هزت له الملكة نيڤيا رأسها بابتسامة صغيرة فاقتربتُ بفمي قريبًا من أُذن سراج وقلت له بصوت هامس: ولماذا لم تخبرني من قبل أيها الأحمق أنك كنت مُدَرِبًا لمهارة القتال بالسيف؟

أجاب غاضبًا وبصوت خافت: وهل لو كنت أخبرتك بشيء كهذا كنت ستعطيني جائزة؟

قاطعتنا الملكة نيقيا قائلة: وأنت أيها البشري، ألا تُرينا بأسك وتصارع "أكوابار"؟

ران عليّ صمت خفيف فتنهدت وقلت: كلٌّ مُيسر لما خُلق له، أنا كنت أعمل في كوكبنا في شركة تقوم بتأمين إحدى الأماكن السياحية، لذا فأنا لا أجيد ما يجيده كل شخص هنا.

تمتمت الملكة نيقيا ببعض الكلمات باللغة الهيروغليفية جعلت كل النساء من خلفها يضحكن جميعًا فقلت لسراج متسائلًا: ماذا قالت؟

أجاب بصوت خافت: قالت إن سمح لك والدها الملك بالمكوث هنا ستُعينك في قسم الطهي مع النساء.

فاشتطت حينها غضبًا وبرزت عروقي من شدة الغضب فنزعت الثوب الجلدي الذي يُغطي الجزء العلوي من جسمي فدُهشن النساء حين رأين عضلاتي المفتولة وعروقي البارزة وصار الجميع ينظر بتعجب لتلك الشامة البيضاء أعلى سُرتي وأصبحوا يتمتمون ببعض الكلام غير المفهوم، أعطيت الثوب لسراج فوجدته يمنعني من مصارعة العملاق "أكوابار" ويحاول إيقافي ولكنني كنت مصممًا على مصارعته، فلقد تعلق الأمر الآن بكرامتي فإن خسرتها فقد خسرت كل شيء.

تقدمت نحو ساحة المصارعة فأفسحت لي الناس لأدخل وهم يهللون ويصيحون بكلمات بلغتهم لم أفهم كنهها ولكنني أيقنت أنها كلمات تدل على السخرية وكأن لسان حالهم يقول: ماذا سيفعل ذلك العصفور مع هذا الأسد "أكوابار".

دخلت لساحة المصارعة ووقفت أمام العملاق "أكوابار" نظر إليّ ثم ضحك ساخرًا وهو يرفع رأسه إلى أعلى ويواصل الضحك بسخرية، عاد ونظر إليّ فأشار إليّ بيده بأن أقترب، اقتربت إليه وأمسكنا بيد بعضنا البعض وانحنينا معًا ورأسي تلتصق برأسه وكلٌّ منا يحاول أن يتمكن من الآخر،

أوشك أن يمسك بذراعي ولكنني فطنت لخطته فالتففت خلف ظهره بسرعة فائقة ولففت يديّ حول خصره وعقدتهما معًا ورفعته عاليًا ثم طرحته أرضًا بكل سهولة.

سيطر الصمت على وجوه الجميع، وجدت الجميع يحدقون إليّ ويفغرون أفواههم من فرط الذهول، فنظرت إلى الملكة نيڤيا فوجدتها تفعل مثلهم، اتسعت حدقتا عينيها وتفغر فاها دهشة وذهولًا من هول ما رأت، زالت سحابة الصمت من على وجوه الحاضرين فصفقوا لي بحرارة وهم يرددون: أُوناسيو، أُوناسيو، أُوناسيو.

وجدت سراجًا يهرول إلي وعندما وصل عندي قال لي مندهشًا: كيف فعلت ذلك يا أُوناسيو؟

عقدت حاجبي وقلت له متعجبًا: من هو أُوناسيو الذي يهتف الجميع باسمه هنا؟ أم يهتفون للكوكب؟

_ أوناسيو هو ابن الملكة أسمايا وهو الملك الشرعي لكوكبنا هذا، والذي ينتظر الجميع هنا قدومه وتحرير الكوكب من ظلم ناتون وابنيه وهو بطل خارق ويملك قوى خارقة لأنه يمتلك الدم النبيل.

_ وما هو الدم النبيل؟

_ إن تزوج ذكر بشري بأنثى من كوكبنا فإنهما ينجبان ذكورًا وإناثًا يمتلكون الدم النبيل ويحصلون على القوة الخارقة عندما يحصلون على العلامة.

_ ما هي تلك العلامة؟

وضع الثوب الجلدي على بطني وعقده وقال: سأخبرك لاحقًا، ولكن عليك إخفاء تلك الشامة الآن.

عقدت حاجبيّ بتعجب فأردف: قلت لك سأخبرك فيما بعد بكل شيء، اخفِها الآن فحسب.

اقتربت إلينا الملكة نيڤيا والنساء من حولها فقالت مبتسمة: أحسنت صنعًا أيها البشري.

فهززت لها رأسي مع ابتسامة مصطنعة فاقتربن النساء فأصبحن يضعن أيديهن على عضلاتي وعلى عينيّ السوداوين ويحسسن بأيديهن على شعري فصاحت فيهن الملكة نيڤيا وحدثتهن بلغتهن بنبرة حادة فانصرفن.

قالت: هيا بنا لتقابل والدي فقد أخبرني بأن آتي بك بعد انتهاء المسابقة لتقابله.

سارت الملكة نيڤيا وسرت خلفها أنا وسراج قال لي سراج برجاء: حاول أن تقنعه يا فارس، تلك فرصتك الوحيدة لتضمن مساعدته لك في إنقاذ أختك.

هززت له رأسي وأكملنا السير خلف الملكة نيڤيا، حين وصلنا للقصر وقفت ونظرت لسراج فقالت له: ستنتظر أنت هنا وأشارت لمصطبة حجرية بجانب جدار القصر بمدخله فهز لها رأسه مبتسمًا فذهب وجلس عليها.

دخلنا للغرفة التي يتواجد بها الملك محب فوجدته يقف أعلى سلم خشبي وينظر إلى الخارج عبر إحدى النوافذ ويبدو أنه كان يشاهد مصارعتي للعملاق "أكوابار".

قالت له الملكة نيڤيا: أبتِ، ها قد أتيتك بالبشري.

التفت الملك محب إلينا وصار ينزل من على السلم الخشبي ويقف حارسان يمسكان له السلم أسفله.

قلت لها هامسًا: اسمي فارس، لا أحب نعتي بالبشري.

قالت بابتسامة مصطنعة: حسنًا أيها الفارس.

بعدما نزل الملك محب من على السلم الخشبي أمر الحارسان بأخذ السلم والخروج.

فذهب وجلس على كرسيه وقال: اقترب.

اقتربت إليه فمد يده خلف كرسيه وأخرج حقيبتي وقال بنبرة صارمة: هل تعلم أنني أعرف الكذب في عيون الناس؟

وتابع مردفًا: سأسألك بضعة أسئلة، لو كذبتني سأعاقبك، هل فهمت قولي؟

هززت له رأسي فتابع متسائلًا: من أين حصلت على تلك الحقيبة؟

_ لقد ورثتها من أبي.

_ وهل رأيت والدك من قبل؟

_ لا أذكر أنني رأيته من قبل، ولم أرَ أمي أيضًا، فلقد توفيا في حادث سير حين كنت صغيرًا.

_ ومن أخبرك أن تلك الحقيبة كانت ملكًا لوالدك؟

_ السيد سليمان أخبرني بذلك، وهو من قام برعايتي وأختي بعد وفاة أبي وأمي.

اتسعت حدقتا عينيه وقال بتعجب شديد: ما اسم والدك بالكامل؟

_ علاء الدين كامل العوضي.

نهض من على كرسيه واقترب إليّ وأشار للثوب الجلدي الذي أرتديه وقال: انزع ثوبك هذا.

عقدت حاجبيّ متعجبًا فصاح قائلًا: قلت لك انزعه.

نزعت الثوب الجلدي فأخذ يمعن النظر للشامة البيضاء الموجودة أعلى سُرتي فلاحت على وجهه ابتسامة كبيرة ووضع يديه على كتفي وهو يبتسم وسط دهشتي الشديدة ودهشة الملكة نيڤيا، فقاطعته الملكة نيڤيا قائلة: أبتِ! ما الأمر؟

نظر إليها وهو مستمر بابتسامته فقال: هل تعلمين من هذا يا نيڤيا؟

_ أيعقل أن يكون هو؟

_ نعم هو، إنه أوناسيو.

اتسعت حدقتا عينيها وفغرت فاها وهي تحاول أن تنطق ببعض الكلمات ولكن الكلمات قد توقفت على طرف لسانها فتمتمت بكلمات لم أفهم كنهها، جثا الملك محب على ركبتيه أمامي فتبعته الملكة نيڤيا وجثت هي أيضًا على ركبتيها وسط دهشتي الشديدة وأنا أحاول فهم واستيعاب ما يحدث من حولي فقلت للملك محب متسائلًا: ماذا يعني أنني أوناسيو؟

نهض من على الأرض وقال بتأثر: أنت أوناسيو الملك الشرعي لهذا الكوكب.

ضحكت بسخرية وقلت: أنتم مخطئون، أنا لست هو، أنا فارس، ولست أوناسيو، ولست ملكًا عليكم ولست ملكًا على أحد البتة.

بدا الهدوء على وجهه وقال بصوت خافت: أعلم أنك لا تصدق ما أقول، ولكنها الحقيقة، أطرق الملك محب رأسه هنيهة ثم رفع رأسه وأشار إلى كرسيه وقال: اجلس أيها الملك.

صحت فيه غاضبًا: لن أجلس، وقلت لك أنني لست ملكًا على أحد، أنا جئت إلى هنا لأنقذ أختي ولا علاقة لي بكوكبكم هذا.

وتابعت متسائلًا: ولكن، ما قصة أوناسيو هذا؟

_ اجلس، وسأقص عليك قصة أوناسيو.

_ قد قلت لك أنني لن أجلس، وإن كنت تظن إنني الملك هنا فأنا آمرك بأن تجلس أنت وتقص عليّ قصة أوناسيو.

نظر للملكة نيڤيا وقد بدا عليها التأثر فهزّت له رأسها بأن يجلس، فذهب وجلس وبقيت أنا والملكة نيڤيا واقفين أمامه فأخذ شهيقًا كبيرًا ثم أخرجه فأنشأ يقول: منذ آلاف السنين كانت هناك قبيلة من الجان تسكن في صعيد مصر وتُسمى "الشماشقة" وقد عاثوا في الأرض فسادًا وغووا وضلوا، وكان من ضمن هذه القبيلة بعض الشرفاء الذين رفضوا هذا الفساد والظلم وعلى رأسهم شخصًا يُدعى «حور» وقد أخبر جميع الشرفاء بأنهم سيغادرون الأرض ليسكنوا أحد الكواكب الأخرى ليؤسسوا مملكة خاصة بهم يسودها السلام والأمان.

أخبره أحد الشرفاء بأن هناك كهفًا بإحدى الجبال يمكنهم من خلاله العبور إلى أحد الكواكب، فدخلوا هنا وأسسوا مملكتهم وقاموا بتسميتها مملكة حور كناية على حور الذي اختاره الجميع بأن يكون ملكًا عليهم.

دارت السنين دورتها ومرت مئات السنوات وهم يتكاثرون ويعملون على إصلاح الكوكب وقد كانوا يشتهرون بالحكمة والعدل.

ومنذ أربعة آلاف سنة وتحديًدًا في عصر الأسرة الخامسة الفرعونية وكان يحكم مصر حينها الملك «أوناس»، كثُر الفقر والقحط بعصره فخرج الشعب جميعًا في ثورة غضب رافضين حكمه وظلمه فتم القبض عليه وحُكم عليه بالنفي خارج مصر إلى مملكة «كوش» الواقعة في جنوب مصر حينذاك.

أثناء حبسه أخبره أحد الكهنة الذي كان مسجونًا معه أنه يُخبئ شيئًا سيهب له حريته، وحين سأله الملك "أوناس" عن هذا الشيء أخرج له كتابًا اسمه "سينيت"، وكانت "سينيت" تلك هي لعبة قديمة كان يلعبها القدماء المصريون بواسطة طاولة خشبية وبها مجموعة مربعات، وكانوا يلعبونها بحجر النرد، وكانوا يطلقون عليها "لعبة المرور" فهم كانوا يظنون أنها تنقلهم إلى العالم الآخر وتربط الأحياء بالأموات، وأخبره الكاهن أيضًا أن الكتاب مذكور فيه أن ثمة جبل بجنوب مصر به كهف يُسمى نجوسو يمكنه العبور من خلاله إلى العالم الآخر بواسطة قراءة تعويذة الدخول التي ذكرها الكتاب، وقال له إنهم سيمرون قريبًا من ذلك الجبل أثناء طريق نفيهم إلى مملكة كوش فسيعمل هو وبقية السجناء المنفيين على إحداث عراك وقتال مع الحراس ويأخذ الملك "أوناس" الكتاب ويذهب إلى الجبل ويقرأ تعويذة الدخول ويدخل، وبعدما دخل الملك أوناس كوكبنا هذا وقد كان أول بشري تطأ قدميه الكوكب تم القبض عليه والذهاب به إلى الملك حور وهو كان الملك حينها وهو من سلالة الملك حور الأول وقد كان يطلق على كل من يحكم الكوكب اسم حور، وحين سأله عن كيفية دخوله ولماذا دخل الكوكب أخبره كذبًا بأن سكان الأرض قد أرسلوه إليهم ليتجسس عليهم ويعود لهم بأخبارهم ليحتلوا كوكبهم، أخبره خُبثًا بأنه لن يعود

وسيعيش معهم بعيدًا عن ظلم البشريين، ولم يخبره بأي شيء بخصوص الكتاب الذي يملكه.

صدقه الملك حور وأعجب به وأصبح من المقربين إليه وبعد سنوات قام بتعيينه وزيرًا له.

طوال تلك السنوات كان الملك أوناس لا يفكر في شيء سوى أن يسيطر على الحكم في الكوكب والانتقام من كوكب الأرض.

صار يقوم برشوة حكام القلاع المجاورة بالذهب والفضة في محاولة منه لضمهم إلى صفه، فاستطاع تكوين مجموعة كبيرة من المؤيدين له وقام بالانقلاب على الملك "حور" فقتله هو وزوجته، ولكن أحد الشرفاء قام بتهريب ابنه إلى جبال "الأخاضر" الواقعة أقصى الشرق هنا بكوكبنا، وبعد البحث الكثير عنه لم يتمكن من إيجاده فظن أنه قد مات ومات بموته ملك أبيه وأجداده.

حاول بعدها الملك أوناس الزواج من إحدى الفتيات هنا لينجب ذكرًا يحمل الدم النبيل وتكون لديه قوى خارقة يتمكن من خلالها في التحكم بالكوكب وتحريكه صوب الأرض ليصطدم به ومن ثم يهلك كل سكان الأرض ومن ثم يحتله.

قاطعت الملك محب قائلًا: نحن نسمع الشائعات بالأرض عن اقتراب أحد الكواكب إلينا واصطدامه بكوكبنا وتدميره.

_ تلك ليست شائعات، التعاويذ المذكورة في كتاب "سينيت" قوية جدًا وبإمكانها تحريك كوكبنا هذا صوب الأرض ليصطدم به، ولكن هذا لن يحدث إلا بواسطة شخص قوي يمتلك الدم النبيل ويمتلك قوى خارقة.

أكمل الملك محب قائلًا: باءت كل محاولات إنجاب الملك أوناس بالفشل، فهو لم يستطع التأقلم بمناخ كوكبنا وفقد دماءً كثيرة بالإضافة لكبر سنه فلم يستطع الإنجاب بعدما تزوج بالكثير من النساء هنا، فتبنّى سبعة فتيان ليسوا لديهم عائلة وقد اختارهم أقوياء وأذكياء وسلمهم كتاب "سينيت" وعلمهم فك كل الرموز والتعاويذ التي بداخله وأمرهم بأن يتوارثوا الحكم

من بعده وطالبهم بتنفيذ أمنيته وهي احتلال الأرض وتدميرها انتقامًا له، وقام بإطلاق اسم أوناسيو على الكوكب ظنًا منه بأنه سينجب يومًا ما فتىً يمتلك الدم النبيل ويقوم بتسميته أوناسيو.

مات الملك أوناس ومرت السنوات تلو السنوات وكان الصراع فيها على الحكم يملؤه الغدر والقتل والخيانة، قام كل ممن هم من سلالة الفتيان السبعة بقتال بعضهم البعض ولم يتبقَ من سلالتهم على قيد الحياة سوى ناتون واستطاع أن يتولى حكم الكوكب.

تزوج ناتون وأنجب ذكرين هما «رع» و «موراس»، وبعدما كبرا قام بتعينهما وزيرين له فهو يخشى غدر مَن هم حوله.

في فترة حكم ناتون وابناه ازداد الفقر على الكوكب وكثُر الظلم وضاق الحال على الجميع فخرج الحكيم «أتوم» للناس بفتاة تُدعى «أسمايا» وهي آخر من تبقى من سلالة الملك حور بعدما هلك الجميع في جبال "الأخاضر" بوباء الطاعون فأحدث الناس ثورة تمكنوا من خلالها من إزاحة ناتون وابنيه من الحكم وتنصيب الملكة أسمايا ملكة للكوكب.

كان الجميع هنا يظن أن ناتون بإمكانه تدمير الكوكب بواسطة الكتاب الذي بحوزته فوافقت الملكة أسمايا على شروطه وهي أن يظل ابنيه وزيرين لها.

في أحد الأيام وتحديدًا قبل الظهيرة تعالت الأصوات على الكوكب بأن شبحًا بشريًا بشعر أسود وعينين سوداوين قد دخل كوكبنا، فتم القبض عليه وتكبيله بالسلاسل بواسطة الحراس وأرسلوه إلى الملكة أسمايا داخل قصرها فلم يستطع أحد فهم لغته، فقد كان يتحدث باللغة العربية ولا يوجد شخص على كوكبنا يجيد التحدث بها أو فهم أية كلمات منها، فقام "رع" وموراس ابنا ناتون بتفتيشه ظنًا منهما أنه قد دخل الكوكب بواسطة كتاب آخر غير الذي بحوزة أبيهما فلم يجدا معه شيئًا فأمراه بأن يجثو على ركبتيه احترامًا للملكة أسمايا ولكنه رفض، قاما بضربه والتمثيل به أمام الناس فانهال عليهما بالضرب بواسطة رأسه وقدميه فطرحهما أرضًا.

ابتسمت حينها الملكة أسمايا إعجابًا بقوته وجرأته، فكيف لشخص مكبل بالسلاسل أن يفعل بشخصين كل هذا ويطرحهما أرضًا، فأمرها ناتون بإعدامه ليكون عبرة لغيره من البشريين الذين يحاولون دخول الكوكب فرفضت وقالت أنها ستسمح له بالعيش داخل القصر وأن يوضع تحت الحراسة المشددة لتعرف قصته ولماذا دخل الكوكب.

ظل هذا الرجل يعيش داخل القصر وقد أحبه الجميع سواء داخل القصر أو خارجه، فقد كان يساعد الفقراء ويسترد حق المظلوم وقام بتعليم الناس بعض الصناعات اليدوية والزراعة وقام بتعليم عشرات الأشخاص لغته العربية بعدما تعلم هو لغتنا الهيروغليفية وأصبح معروفًا على كوكبنا باسم «بوبو» وهي تعني الشبح باللغة الهيروغليفية، وكان الجميع يتألبون حوله في كل مجلس يتعلمون منه لغته وبعض الحرف اليدوية وقد تعلقوا به أشد تعلق.

على الجانب الآخر كان ناتون وإبناه يراقبون تحركاته جيدًا، فهم كانوا متأكدين أنه قد دخل الكوكب بواسطة أحد الكتب ولا شيء غير ذلك، وكانوا يطلقون على كل من يجلس مع ذلك البشري أو يساعده بالجاسوس.

بعد انتهاء الشهر المحدد أصدرت الملكة أسمايا قرارًا يسمح له بالعيش على كوكبنا وجعلته المسؤول الأول عن الزراعة والصناعة على الكوكب.

بعد مرور سنتين ازدهر الكوكب بزراعته وتم حفر الآبار بكثرة لتساعد على الزراعة وتمت صناعة السيوف والدروع والرماح وبعد قصة حب دامت لسنتين تزوجت الملكة أسمايا بذلك البشري رغم معارضة ناتون وابناه خوفًا من انجاب مولود خارق يدمرهم ويقضي على آمالهم في تدمير الأرض، ولكن الملكة أسمايا تسلحت حينها بشعبها الذي خرج في الميادين والشوارع يعرب عن فرحته وسعادته بذلك الزواج.

بعد عام واحد أنجبا ذكرًا وتمت تسميته أوناسيو على اسم الكوكب من قِبل ناتون وهو اسم مشتق من اسم الملك أوناس.

لم تجد الملكة أسمايا أمامها سوى الموافقة على الاسم خشية من أن يصيبوه بأذىً بواسطة الكتاب.

وبعد مرور ثلاث سنوات أنجبت فتاة وقام الرجل البشري حينذاك بتسميتها إيمان.

في تلك الفترة كان ناتون وابناه يحيكون أمورًا قذرة من خلف الملكة أسمايا وكانوا يتظاهرون أمامها بالمثالية، استطاعوا شراء حكام القلاع بالذهب وقاموا برشوة الكثير من الشعب بالذهب والفضة حتى كبر مؤيدوهم ولم يتبقى للملكة أسمايا سوى بعض الشرفاء من حولها الذين ينعتونهم ناتون وابناه بالجواسيس.

بعدها انقلب ناتون وابناه على الملكة أسمايا وسلبوا منها الحكم وطالبوا الرجل البشري بتسليمهم أوناسيو ليكبر بينهم ويعلمونه فك رموز كتاب "سينيت" ليحقق وصية جدهم الأكبر الملك أوناس بتدمير الأرض، واقترحوا عليه أن يأخذ هو الفتاة لتكبر معهما ولن يمسوهم بسوء.

أمرت الملكة أسمايا ذلك البشري باصطحاب أوناسيو وإيمان والهروب بهما من الكوكب والعودة إلى الأرض.

ذهب إلى "الصخرة الطائرة" الموجودة بجبل "الزرقاء" وقد سمي بهذا الاسم لأن نجمة زرقاء اللون تستقر أعلاه طوال الليل، وحين وقف على الصخرة الطائرة أخرج الكتاب وقبل أن يقرأ تعويذة الخروج جاء ناتون وهو مُمسك بالملكة أسمايا ومعه حراسه فوضع السيف على عنقها وأمره بتسليم الطفل والكتاب ليضمن حياة الملكة أسمايا، ولكن الملكة أسمايا صاحت فيه بأن يشرع في قراءة التعويذة والخروج من الكوكب لينقذ الطفلين فقرأها وخرج من الكوكب وعاد للأرض.

قاطعت حديث الملك محب متسائلًا: ولماذا لم تخرج معه من الكوكب؟

تنهد وأجاب: نحن كالسمك يا بني، إن خرجنا من كوكبنا هذا نختنق ونموت، أنتم تستطيعون العيش على كوكبنا وتتنفسون بواسطة دماءكم، أما نحن فلن نستطيع العيش على كوكبكم على الإطلاق، أجدادنا كانوا

يعيشون على كوكبكم بكل سهولة ولكن الآن في عصر التكنولوجيا والترددات والذبذبات الصوتية أصبح الأمر مستحيلًا، تلك الترددات والذبذبات الصوتية تصيبنا بالاختناق.

هززت رأسي فأكمل حديثه قائلًا: بعد يومان عاد مرة أخرى لكوكبنا لينقذ الملكة أسمايا وترك الطفلين مع أحد أصدقائه بالأرض وقام بتسليم نفسه لناتون فطلب منه أن يعود ويجلب الطفلين فرفض، فأخبره ناتون بأنه سيتغاضى عن جلب الطفلين ولكنه إن أراد أن يبقى على قيد الحياة فعليه تسليمه الكتاب الذي استطاع بواسطته دخول الكوكب والخروج منه.

فرفض البشري طلبه وآثر الموت على أن يسلمه الكتاب فقام ناتون بقطع عنقه أمام الجميع.

نظر إليّ الملك محب فوجدني لا أقدر على التحدث وقد اغرورقتا عيني بالدموع ، أطرق رأسه حزنًا وكمدًا وقال بصوت حزين: هذه هي قصتك يا أوناسيو.

قلت له بتعجب: تقصد أن هذا البشري هو أبي، والملكة أسمايا هي أمي؟

هز رأسه فقلت ساخرًا: ولماذا أسأل هذا السؤال؟ لعلني أحمق، كل شيء متضح أمامي وأنا ما زلت أسأل.

كنت أتظاهر أمام الملك محب والملكة نيقيا بالقوة والصمود ولكن سرعان ما تلاشت قوتي وخار صمودي فجثوت على ركبتي ووضعت يديّ على وجهي وانهمرت الدموع من عيناي وكأنها نهر جارٍ وأنا أصيح: أبي، ماذا فعلوا بك يا أبي.

اقترب إليّ الملك محب مسرعًا فنزع يديّ من على وجهي وأمسكهما وأوقفني فقال: لا وقت للبكاء يا أوناسيو، أمك أسيرة لديهم منذ سبعة عشر سنة والآن ربما قد التحقت بها أختك.

نظرت إليه وصحت فيه غاضبًا: أنا لست أوناسيو، أنا فارس، لا أريد سماع هذا الاسم مرة أخرى.

قال مبتسمًا: ذلك الاسم تحبه أمك، فهي كانت تقول عنك دائمًا أنك ستصبح أوناسيو الخير.

اقتربت الملكة نيڤيا إليّ وأصبحت تمعن النظر في عيناي وقالت للملك محب متسائلة: أهذه هي الدموع يا أبتِ؟

_ نعم يا ابنتي، تلك هي الدموع.

نظرت إليهما متعجبًا فأردف الملك محب قائلًا: نحن لا نمتلك الغدد الدمعية مثلكم، لا تفرز أعيننا الدموع، نحن هنا نبكي بقلوبنا وليس بأعيننا.

_ كيف دخل أبي هنا، وما سبب دخوله؟

_ كان والدك يعمل في وكالة الفضاء المملوكة للسيد ناصر.

_ السيد ناصر!

فهز رأسه فأكمل: كثرت الشائعات بكوكبكم عن قُرب كوكب مجهول إلى كوكبكم واصطدامه به، وكان والدك هو المُكلَّف بمتابعة هذا الأمر وكان يعمل معه السيد سليمان مساعدًا، وفي أحد الأيام جاء صديق لوالدك في مكتبه وأعطاه كتابًا يقول إنه عثر عليه في أحد المقابر الفرعونية التي اكتشفها أحد الأشخاص المجهولين، حاول والدك فك رموز الكتاب وبعد عناء طويل استطاع فك رموزه وتوصل لاكتشاف عظيم وهو أن ثم كهف في أحد الجبال بمصر يمكنه من خلاله دخول أحد الكواكب المجهولة.

بعد البحث المتواصل استطاع والدك معرفة الجبل والكهف وهو جبل بني حميل الموجود بقرية بني حميل في محافظة قنا بصعيد مصر والكهف هو كهف "نجوسو".

وبمساعدة من السيد ناصر تم شراء منزل له في قرية بني حميل وكان قريبًا من الجبل وطالبه بدخول الكهف لمعرفة أسرار ذلك الكوكب ولتنفرد وكالته بهذا الاكتشاف العظيم.

صار والدك يتردد على الجبل والكهف يوميًا لدراسته واختيار الوقت المناسب لدخوله واستطاع فك رموز تعويذة المرور ودخل.

قاطعته قائلًا: الناس بقريتنا تقول أن أبي هو من فتح باب الكهف.

_ هذا ليس صحيحًا، من فتح باب الكهف هو ناتون بواسطة الكتاب الذي بحوزته وأطلق تعويذة أشبه بلعنة وهي اختطاف كل من يقترب للكهف ظنًا منه بأن الكهف سيجلبك إليه ذات يوم.

_ ولماذا أضرم أبي النار بالكهف؟

_ عندما عاد والدك للأرض وخرج من الكهف ورأى باب الكهف مفتوحًا ولم يُغلق ظن أن ناتون وحراسه سيلاحقونه فأضرم النار بالكهف، وحين عاد للبيت جاءه السيد ناصر في منزله وعنفه كثيرًا على تأخره وأنه تزوج وأنجبكما أنت وأختك عوضًا عن جمع المعلومات وتصوير الصور لكي تنفرد الوكالة الخاصة به بهذا الاكتشاف العظيم، فأمره بدخول الكوكب في الليلة القادمة ليزود الوكالة بالصور والمعلومات، لم يخبره والدك بأن الهواتف والكاميرات وأي شيء يتعلق بالتكنولوجيا لا يعمل على كوكبنا، كان يظن أنه لو أخبره بذلك ربما كان سيقتلك أنت وأختك ولا يستطيع العودة لينقذ أمك، فأمر السيد سليمان بتهريبكما خارج القرية.

قلت له متعجبًا: ولكن السيد سليمان أخبرنا أن وصية أبي له بأن لا نغادر القرية.

ران عليه صمت مهيب فتنهد وقال: وذلك ما أحزنني، يبدو أن السيد سليمان قد خان والدك.

_ وكيف عرفت أن والدي قد أمره بأن نترك القرية؟

_ حين قام والدك بتهريبكما عاد مرة أخرى فجاءني وأعطاني مجموعة من الكتب التي ستنفعنا في إعمار الكوكب وقال لي ذلك، وقال لي أيضًا أنه استطاع إخفاء الكتاب في مكان ما على كوكبنا هنا.

أمسكت حقيبتي وفتحتها فأخرجت منها رسالة أبي وأعطيتها للملك محب فلما قرأها ابتسم ساخرًا فقال: لم أكن أتوقع أن يفعل السيد سليمان كل هذا، فلقد كان والدك يثني عليه كثيرًا ويقول أنه بمثابة الأخ لا الصديق.

غضنت حاجبي وقلت له بتعجب: ماذا تقصد؟

_ تلك الرسالة مكتوبة بخط يد السيد سليمان، وأنا أعرف خط يده جيدًا.

فذُهلت مما سمعت فقلت متعجبًا: ولماذا فعل هذا؟

_ عندما التقيت بوالدك قبل إعدامه قال لي أنه أخبر السيد سليمان بأمور لم يخبرها للسيد ناصر ولكن يبدو أن السيد سليمان استغل هذا الأمر في تسليط فكرك وذهنك نحو الكهف.

وتابع: يبدو أنه يُحيك أمرًا مع السيد ناصر.

فشردت بذهني وأنا أفكر في الأحداث التي حدثت بعد اختفاء أختي وفجأة اتسعت حدقتا عينيّ وقلت مندهشًا: الحقيبة! الحقيبة كانت في غرفة إيمان عندما اختفت، لقد جهزتها إيمان ووضعت بها بعض الطعام والماء قبل ذهابنا إلى الجبل وأمرتها بأن تتركها بغرفتها، وعندما عُدت إلى البيت وجدتها في خزانة ملابسي وهي فارغة! لا أدري كيف لم أنتبه لهذا؟

ابتسم الملك محب وقال: لقد وقعت ضحية لعبة خطط لها السيد ناصر ونفذها السيد سليمان.

ضحكت بسخرية وقلت: يا لذلك العجوز!

أين ذهب عقلي حين قال لي عند الجبل أن والدي ترك لي رسالة؟

ألم يتذكرها سوى في تلك اللحظة؟

وأيضًا عندما ترك لي القفل الذي على صندوقه مفتوحًا!

كان الملك محب ينظر داخل الرسالة ويضحك فقلت له متسائلًا: ما يضحكك؟

أجاب ضاحكًا: الكتابة التي داخل الرسالة يقول لك أن والدك هو من كتبها لك، ألم تنتبه أنها كتابة حديثة؟

ضحكت وقلت: لقد خدعني ذلك العجوز.

فضغطت على أسناني من شدة الغيظ وقلت غاضبًا: لقد فعل كل ذلك من أجل تلك الوكالة اللعينة، لقد جعلوا إيمان فأر تجربة لكي يصلوا لمبتغاهم، ماذا لو أصابها سوء، وماذا لو قُتلت، وماذا لو لحقت بها أنا وقُتلتُ، أحياتي وحياتها لا قيمة لهما عندهم؟ ولكن؛ خدعتهم تلك جاءت لتصب في مصلحتي، لو لم يفعلا ذلك ما كنت لأعرف حقيقة أبي وما كنت دخلت الآن لأنقذ أمي.

نظرت للملك محب فقلت له: والآن، هل ستساعدني بجيش من مملكتك لتحرير أمي وأختي؟

_ لن نفعل ذلك، فهذا مبتغاهم.

وتابع: لقد احتجزوا أمك طوال تلك السنوات يقينًا منهم بأنك ستعود يومًا ما، فيمارسون عليك الضغوط بواسطتها لتخضع لهم، والآن أكاد أجزم أنهم احتجزوا أختك ليفعلوا بها الأمر نفسه، وأنا أستبعد قصة تحويلها لطائر أبيس لتشارك في لعبة "البقاء" فهي بالنسبة لهم الآن كنز ثمين سيستخدمونه لترضخ لمطالبهم.

_ وكيف سيعرفون أنها أختي؟

_ أنت وأختك تمتلكان الدم النبيل، فأنتما هنا لستما ككل البشر، أنت وأختك تدخلان الكوكب بواسطة الحماية وهي الخيوط البيضاء التي تلتف حولكما وقت دخولكما الكهف، وأيضًا أنتما لا تستطيعان الدخول إلا والقمر مكتمل، عكس كل البشريين، فهم باستطاعتهم الدخول في أي وقت.

_ وما الحل إذًا؟

_ ستعود الآن إلى مسكنك وستتعامل مع الناس كأنك شخصً عادي وغدًا سأخبرك بخطتنا.

نظر إليّ مبتسمًا وأردف: لا تقلق، ثق بي.

****

خرجت من عنده وقبل أن أخرج من بوابة القصر سرق نظري شخصًا كان نائمًا على المصطبة الحجرية بجانب الجدار ويضع قدمًا فوق الأخرى فحدثت نفسي متعجبًا: تلك النومة أعرفها جيدًا!

اقتربت إليه فوجدته سراجًا، فصرت أضحك فاستيقظ على صوت ضحكي فقلت له ضاحكًا: لقد نسيت أنك هنا.

_ لا بدّ أن تنسى، فشخص مثلك يجلس مع الملك وابنته من وقت الظهيرة وحتى غروب الشمس فحتمًا سينسى سراج المسكين.

وتابع: لابد أنك أكلت الأرز واللحم بالداخل وشربت الشراب حتى امتلأت بطنك.

_ ألا تفكر في شيء سوى الأكل أيها الساذج؟

نهض من على المصطبة الحجرية وسار نحو بوابة القصر فخرج وأنا أتبعه، توقف فجأة فقال غاضبًا: شخص يجلس على تلك المصطبة اللعينة منذ الظهيرة وحتى غروب الشمس بلا أي طعام أو شراب، بماذا تريده أن يفكر؟

وتابع: هل تريدني أن أفكر في مغازلة النساء داخل القصر هنا؟ أم تريدني أنشد الشعر للعصافير والعناقيد على الأشجار هنا؟

_ أنت لم تسألني يا سراج ماذا فعلت مع الملك محب حتى!

_ عرفت من ضحكتك أنه وافق على مكوثك هنا بل ووافق على مساعدتك.

نظر إلى الحقيبة بيدي وتابع: إن لم تخبرني أنت فحقيبتك تلك قد فسرت الأمر.

دقت الأجراس التي تُنبئ ببدء وجبة العشاء فوجدته يتركني ويهرول عَدْوًا نحو مساكن العمال وأنا أضحك، يا لهذا المجنون!

وصلت لمساكن العمال ودلفت لغرفة الطعام فوجدته يجلس على إحدى الطاولات فجلست بجواره وهو ينهش طعامه نهشًا كالأسد الجائع، جاء أحد الطهاة ووضع أمامي صحنًا به الأرز واللحم فتوقف سراج عن طعامه فجأة وكأن شيئًا قد ألم به، فقلت له متسائلًا: ما الأمر؟

فأشار إلى الصحن الذي أمامي فقال: لماذا يُقدمون لك أنت الأرز واللحم؟

_ وماذا يعني ذلك؟

_ العمال هنا لا يأكلون الأرز واللحم إلا مرة واحدة في الأسبوع، ويأكلون جميعًا الأرز واللحم، لا تفضيل لشخص على آخر.

نظرت حولي لبقية العمال فوجدت كل الصحون أمامهم متشابهة، الجميع هنا يأكلون الخبز والجبن والبيض فأخذت صحني وذهبت به إلى الطهاة فقلت بصوت خافت: من منكم يتحدث اللغة العربية؟

فوجدت الطاهي الذي أحضر لي الصحن يهز رأسه مبتسمًا فقال: أنا أتحدث اللغة العربية.

سألته قائلًا: لماذا صحني هذا مختلف عن باقي الصحون؟

أجاب: إنها أوامر الملكة نيقيا، وإن خالفت أمرها ستعنفني كثيرًا.

وضعت الصحن جانبًا وأخذت صحنًا مثل باقي العمال فقلت له مبتسمًا: إن سألتك فقل لها إنني قد أكلت ما فيه.

هز لي رأسه مبتسمًا فعدت وجلست بجوار سراج فوجدته ينظر إليّ بغضب فقاطعت نظراته متسائلًا: لمَ تلك النظرات الغاضبة؟

زفر وقال بحنق: تفرط في الأرز واللحم أيها الأحمق؟

فنظر إلى الصحن بعيدًا وأكمل: إن كنت لا تريده فأعطه لصديقك، ألست صديقك؟

بدأت بالأكل وأنا أضحك فقلت له: أنا أحب العدل أكثر من حبي للطعام يا صاح.

فوجدته يتوقف عن الأكل فجأة فقلت له بتعجب: لماذا توقفت؟

_ لقد شبعت.

_ سراج يشبع؟ لابد أنك تمزح.

نهض من مكانه وبيده صحنه وهم بالمغادرة فقلت له متسائلًا: إلى أين؟

فأجاب: سأذهب به إلى الطهاة.

_ ولماذا تفعل ذلك والطهاة هنا يقومون بالأمر بعد مغادرتنا؟

_ أنا أحب المساعدة يا صديقي أكثر من حبي للطعام.

ذهب بصحنه نحو الطهاة وأصبح يتحدث معهم ويبتسم لهم ويبتسمون له، أكملت طعامي وبعدما خرجنا أوقفني سراج وقال لي: فارس، أعطني حقيبتك.

_ ولماذا تريدها؟

_ أريدها وحسب.

فأعطيتها له ففتحها وأخرج منها قطعة من الجلد ملفوفة حول بعضها البعض ففتحها وأخرج صحن الأرز واللحم من داخلها فقلت له ضاحكًا: كان عليّ أن أعلم منذ البداية، سراج لا يشبع على الإطلاق.

فبدأ بنهش اللحم وقال: أنا لا أدع الفرص الجميلة تفوتني يا صديقي.

مشينا بعدها إلى الحانة فطلب لي سراج "الانست" وطلب لنفسه شرابه المعتاد وهو الجعة، وأثناء جلوسنا دخلت الملكة نيڤيا وصارت تتفقد الناس وتبادلهم الابتسامات فقلت ل سراج متسائلًا: لماذا تتفقد الناس ليلًا هكذا؟

_ إنها تخشى أن يشرب الناس هنا الخمر أو يلعبون القمار أو يقومون بالمراهنات.

حين رأتنا الملكة نيڤيا أقبلت إلينا فنظرت لسراج فقالت له: مرحبًا بالبارز المُبارز.

فابتسم وقال: مرحبًا بكِ أيتها الملكة.

نظرت إليّ وإلى الشراب أمامي فقالت بتعجب: أيها الفارس، هل أنت بخير؟

_ اسمي فارس لا الفارس، الفارس هو الذي يمتطي حصانه ويذهب به للقتال ويقاتل على ظهر حصانه، أما أنا فاسمي فارس هذا اسمي وليست صفتي.

فضحكت ضحكة لم أسمعها من قبل، ضحكة كفيلة بأن تعيد الحياة لجسد ميت، ضحكة كفيلة بأن تُسقط علينا النجوم لتدور حولها، ضحكة كفيلة بأن تأتي بالعصافير والعناقيد ليستمعوا لطرب ضحكتها فازدردت ريقي بصعوبة وقلت لها متسائلًا: لماذا عندما نظرتِ للشراب أمامي سألتيني إن كنت بخير؟

_ لأنك تشرب "الانست".

وتابعت قائلة: لا يشرب "الانست" إلا الطفل أو المريض.

نظرت لسراج فوجدته يبعد ناظريه بعيدًا عني وكأنه لا يستمع لحديثنا فقلت لها: نعم أنا مريض، لقد آلمتني بطني من أكل الأرز واللحم

فابتسمت وقالت بسعادة: هل أعجبك الأرز واللحم؟

_ لقد كانا لذيذان جدًا.

_ أنا من صنعتهما بنفسي.

عدت ونظرت ل سراج وأنا أشتاط غيظًا بداخلي فوجدته ينظر إليّ ويبتسم بسخرية فعدت ونظرت لها وتظاهرت بالابتسامة فقلت: شكرًا لكِ أيتها الملكة، لقد كان الطعام لذيذًا جدًا.

حين غادرت هرولت إلى سراج ووضعت يديّ حول رقبته وأنا أخنقه وقلت له غاضبًا: أيها الأحمق، تخدعني وتطلب لي شرابًا يُقدَّم للأطفال والمرضى؟

_ لقد وجدته يليق بك يا صديقي حين وجدتك تطلب القوة والكالشينو.

_ اسمهما القهوة والكابتشينو أيها الساذج.

وتابعت: وأيضًا تأكل الأرز واللحم اللذين صنعتهما لي الملكة نيقيا بنفسها!

قال بحنق: وهل أنا من قلت لك لا تأكلهما؟ ألست أنت من أخبرتني بأنك تحب العدل أكثر من حبك للطعام؟ هل كرهت العدل الآن وأحببت الطعام؟

اقترب بفمه إلى أذني وتابع هامسًا: أنت والملكة نيڤيا أحمقان.

غضنت حاجبيّ وقلت له متعجبًا: لماذا؟

_ تقول لها أن بطنك تؤلمك بسبب أكلك للأرز واللحم فقالت لك بكل سذاجة: هل أعجبك الأرز واللحم اللذان صنعتهما لك؟

ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة فقلت له: يا صديقي، كل النساء هكذا، إن كنت ترقد في المستشفى بسبب أكلك لوجبة قد صنعتها زوجتك لك وعندما يسألها الطبيب الذي يعالجك عن مكونات الوجبة فستقول له إن ذلك سر ولن تخبره لأحد أيًا كان، وربما تموت أنت ولا تَبُح هي بذلك السر.

خرجنا من الحانة وذهبنا لغرفتنا فتمددنا على السرير بجانب بعضنا ونحن نحملق لسقف الغرفة وكلّ منّا شارد في بحر مخيلته، سألني سراج قائلًا: لم تقل لي يا فارس كيف سيساعدك الملك محب في إنقاذ أختك.

_ لقد قال لي أنه سيخبرني بالخطة غدًا.

سمعنا طرق الباب فصرنا ننظر لبعضنا البعض متعجبين فنهضت من على السرير وذهبت ففتحت الباب فوجدتها الملكة نيڤيا ولكنها قد جاءت بطلة جديدة، لقد كانت تلبس رداءً باللون الأبيض وتعقد على جبينها خيطًا أسود، ولأنني طويل القامة وهي قصيرة أصبحت تنظر إليّ لأعلى وعيناها الخضراوان تلمعان وأنا أنظر إليها بلا تحدث حتى توردا خديها خجلًا فقاطعت نظراتي قائلة: هل سأقف طويلًا هنا بالخارج؟

فازدردت ريقي بصعوبة وقلت لها: تفضلي أيتها الملكة.

فلما دخلت نظرت لي ولسراج فقالت: لقد أمرني أبي بأن تأتيا معي إلى القصر، فلقد تم تجهيز غرفة لكما.

قلت لها: شكرًا له ولكِ، ولكننا سنبقى.....

فقاطعني سراج وقال بتسرع: اذهبي أنتِ أيتها الملكة وأخبري الملك محب بأننا قادمان.

هزت رأسها مبتسمة وخرجت فقلت لسراج غاضبًا: ما هذا الذي فعلته؟

_ لم أفعل سوى الصواب.

_ لا أريد أن أُسبب تعبًا لأحد.

_ وهل تظن أن الملك محب والملكة نيفيا هم من سيقومان بخدمتنا؟

وتابع: القصر به الكثير من العمال والخدم، وهم من سيقومون بذلك.

ذهبنا إلى القصر فاستقبلتنا الملكة نيفيا واصطحبتنا لغرفة قد تم تجهيزها لنا وقالت لنا إن احتجنا لشيء فسنجد العمال بالخارج.

بعدما غادرت هرول سراج نحو السرير فقفز عليه كالطفل الصغير وأنا أراقبه وأضحك فقال: أتريد أن تظل في غرفة العمال وتنام على سرير محشو بالجلود وتترك هذا السرير المحشو بالكتان المريح؟

ذهبت فتمددت بجواره ونحن نحملق لسقف غرفتنا فقال لي متسائلًا: لمَ يفعل معك الملك محب كل هذا يا فارس؟

_ لا أعلم، ربما لأنني غريب عن كوكبكم هذا.

فأخذت شهيقًا كبيرًا ثم أخرجته زفيرًا وقلت بنبرة حزينة: لقد اشتقت لأختي كثيرًا يا سراج.

فنظرت لسراج فوجدته غارقًا في النوم، نهضت من على السرير ومشيت نحو الشُرفة، وجدت الملكة نيفيا تجلس على كرسي خشبي بوسط الحديقة وتمسك بيديها كتابًا وتقرؤه، تظاهرت بالسعال لألفت انتباهها فنظرت إليّ مبتسمة فقالت: أنت هنا؟ ألم تنم بعد؟

_ إن الكرى عجز على أن يلم بجفوني.

لاحت على شفتيها ابتسامة لطيفة وقالت: إن الكرى لا يهجر إلا عاشقًا أو مهمومًا، فأيهما أنت؟

_ أنا العاشق الذي أرهقته المفاجآت هنا فما وجدت الوقت لأعشق، وأنا المهموم الذي أهمه فقدان أحبائه أيضًا هنا فما زال الهم يلاحقني أينما حللت.

_ إن كنت تريد الانضمام إليّ لتروِّح عن نفسك ولو قليلًا هنا فتعال.

_ حسنًا، أنا قادم.

دخلت وصرت أبحث عن مرآة لأصفف شعري فلم أجد، اشتطت غضبًا وأنا أحدث نفسي قائلًا: أين يضعون المرآة هنا؟

صففت شعري بيدي وخرجت إليها فجلست على كرسي خشبي كان بجانبها، قلت لها: هل يمكنني سؤالك أيتها الملكة.

_ أنا الآن لست ملكة عليك، الملك الحقيقي لهذا الكوكب الآن هو أنت ولطالما نحن لوحدنا هنا فقل لي يا نيڤيا.

_ حسنًا، هل يمكنني سؤالك يا نيڤيا؟

_ اسأل.

_ ماذا يعني اسم نيڤيا؟

_ يعني الأبيض الثلجي في اللغة اللاتينية، وقد اختاره لي أبي حين تعلمها.

لاحت على وجهي ابتسامة لطيفة وقلت لها مبتسمًا: مثلما نقول في كوكبنا، هو اسم على مُسمى.

فوجدتها تبعد ناظريها عني وتنظر للسماء خجلًا ثم عادت لتقرأ في الكتاب مرة أخرى، نظرتُ لصفحة السماء الموشّاة بالنجوم اللامعة متنوعة الألوان ما بين الحمراء والخضراء والزرقاء فعدت ونظرت إليها فقلت لها متسائلًا: ألا يوجد قمر بكوكبكم يا نيڤيا؟ منذ جئت إلى هنا ولم أرَ أية أقمار في السماء.

وضعت الكتاب داخل فمها وحدقت لي بعينيها الساحرتين فأجابت بصوت هادئ: لا ليس لكوكبنا أية أقمار.

نظرت إليها وللكتاب داخل فمها وهي تعضه بأسنانها وعينيها تلمعان وكأن نجمتين قد سقطتا من السماء فاحتلتا عينيها فقلت لها بتلقائية: أنتِ قمر أوناسيو يا نيڤيا.

عقدت حاجبيها وقالت متعجبة: ماذا قلت؟ تعني أنني أنا قمرك؟

ارتبكت من ردها فقلت لها بتوتر: لا، أنا أقصد أنكِ قمر أوناسيو الكوكب لا أوناسيو أنا.

صارت تضحك حين رأت ردة فعلي فقررت الانسحاب من هذا الموقف المحرج، قلت لها: سأذهب للنوم الآن. فنهضت من على الكرسي وابتعدت عنها وأنا أراقبها بأطراف عيني فأجدها تنظر إليّ مبتسمة والكتاب ما زال داخل فمها وهي تعضه بأسنانها برفق، دخلت الغرفة وأغلقت الباب فاستندت بظهري على الباب وأغمضت عيني وأطلقت تنهيدة طويلة وقلت: رفقًا بالكتاب يا نيڤيا، فوالله لو كان ينطق لقال لكِ رفقًا بي فإني أذوب.

ذهبت وتمددت على السرير بجانب سراج الغارق في نومه فحدثت نفسي متسائلًا: ماذا دهاك يا فارس؟

هل هو الحب؟

عُدت لأجيب نفسي قائلًا: لا يا فارس، لا وقت للحب لديك، لابد أن ينصّب كل تفكيرك في أمك وأختك، وأثناء محادثة نفسي غلبتني أول سِنة من النوم فنمت.

فتحت عيني في الصباح فوجدت نيڤيا تنظر في عيني وتُحدق لي فنهضت فزعًا وجلست على السرير وقلت لها متسائلًا: ما الأمر؟

قالت ضاحكة: لقد حاول سراج إيقاظك ولكنك كنت غارقًا في النوم، فذهب ليتناول الإفطار مع أبي وجئت لأوقظك.

وتابعت بسخرية: إن كنت لا تُجيد السهر فلا تسهر.

بقيت جالسًا أتثاوب وأفرك عيني ولم أنبس ببنت شفة فأردفت قائلة: هيا لنلحق وجبة الإفطار معهما.

هززت لها رأسي فقالت: إن ذهبت ووجدتك قد عدت لنومك فسأستخدم معك المياه الباردة هذه المرة.

هززت رأسي مبتسمًا فخرجت، قمت فغسلت وجهي وفمي وذهبت إليهم فجلست بجوار سراج فوجدته ينظر إليّ بخجل شديد، نطق الملك محب وقال: لقد توصلنا لخطة يمكننا من خلالها إنقاذ أمك وأختك يا فارس.

صرت أنظر للملك محب تارة ولسراج تارة أخرى فقاطع الملك مُحب نظراتي قائلًا: لقد أخبرت سراجًا بكل شيء، وهو سيكون جزءًا من خطتنا.

نظرت لسراج فقال بصوت خافت: أنا متأسف أيها الملك عن كل ما بدر مني طوال الأيام الماضية.

قلت له غاضبًا: سراج، أنا لست ملكًا، أريدك أن تعاملني مثلما كنت تعاملني في السابق وإن وجدت منك تغيرًا فسأغضب منك، هل فهمت يا سراج؟

هز رأسه واقترب إليّ وهمس غاضبًا: لماذا لم تخبرني بحقيقتك فور علمك بها أيها الأحمق؟

همست له ساخرًا: وهل لو أخبرتك بذلك كنت ستعطيني جائزة أيها الأحمق؟

وجدته يبتسم ويطيل ابتسامته فنظرت له بتعجب فقال: حين بدلت لك ملابسك في طريق قدومنا للمملكة هنا وحين رأيت الشامة البيضاء أعلى سرتك عرفت حقيقتك، وأيقنت أن من يقف أمامي هو أوناسيو وليس مجرد بشري عادي.

نهض الملك محب من مكانه ونظر إلينا فقال: المهمة نحو مملكة "موريكا" ستكون سرية، لقد علموا بدخولك الكوكب حين ذهبت إليهم الخيوط البيضاء التي تحررت منها فارغة، وربما هم يبحثون عنك الآن.

نظر إليّ فقال: هل تُجيد ركوب الخيل يا فارس؟

_ لا.

ضحك سراج فنظرت له بغضب فتوقف عن الضحك.

فأكمل الملك محب وقال: هل تُجيد المبارزة بالسيف؟

_ لا.

_ هل تُجيد مهارة القتال بيديك؟

صمتُّ قليلًا وقلت: نعم أجيد ذلك، فلقد صارعت "أكوابار" العملاق ورفعته عاليًا ثم طرحته أرضًا بكل سهولة.

نطق حينها سراج وقال بحماس: نعم فعل ذلك وأنا شاهدته بنفسي.

نظرت له مبتسمًا فوجدته يشير لي بأصبعه الإبهام ويهز لي رأسه.

نظر الملك محب لنيڤيا وهو يبتسم وتبتسم هي له فقلت له متسائلًا: ما الأمر؟

أجاب ضاحكًا: أنا من أمرت نيڤيا بأن تستفزك لتصارع "أكوابار" لأعرف حينها هل حصلت على العلامة وصرت قويًا أم لا.

وأكمل: ستذهب أنت وسراج ونيڤيا بشكل سري نحو مملكة "موريكا"، ولأن الطريق الرئيسي سيكون مُراقبًا فإنكم ستذهبون عبر طريق "ديارا"، وهو طريق صعب وموحش ولكنه آمن عن الطريق الرئيسي.

وتابع: المهمة ستكون بعد أسبوع من الآن.

نهضت من مكاني وقلت بحنق: وهل سأنتظر اسبوعًا آخر، ماذا لو أصاب أمي وأختي مكروه؟

تنهد الملك محب وقال: لن يمسوهما بأي سوء يا فارس، هم يريدونك أنت، سيحافظون على حياتهما من أجلك أنت ومن أجل الكتاب.

وتابع: أنت لا تجيد ركوب الخيل ولا استخدام السيف، قواك الخارقة لوحدها لن تنفعك، فإن تم خدشك بسيف أو سهم ونزفت بعض دمائك فستفقد حياتك، ولذلك لا بد أن تتدرب أولًا وبعدها ستذهبون لمهمتكم.

نظر لنيڤيا فقال: ستعلمينه أنتِ ركوب الخيل يا نيڤيا من الصباح وحتى الظهيرة.

قاطعته ساخرًا: تلك الطفلة الصغيرة ستقوم بتعليمي؟

_ لا تستهن بتلك الطفلة يا فارس، فلديها من المهارة ما لا يملكه الكثير هنا.

عاد ونظر لسراج وأكمل: وأنت ستعلمه مهارة القتال بالسيف من بعد الظهيرة وحتى غروب الشمس.

نظر لنيڤيا مبتسمًا وأردف: مهمتك قد بدأت الآن أيتها البطلة.

هزت له رأسها مبتسمة فنظرت إليّ وقالت بجدية: هيا لنذهب إلى الإسطبل.

نظرت إليها بازدراء فقاطعت نظراتي وقالت بنبرة صارخة: هيا اتبعني ولا تطيل النظر إلي هكذا.

سارت أمامي وأنا أتبعها فنظرت للخلف نحو سراج فوجدته يضحك ويلوّح لي بيده مودعًا فقلت في نفسي هامسًا: أكره سذاجتك تلك أيها الأحمق.

وصلنا للإسطبل فدخلت نيڤيا إحدى الغُرف الصغيرة فخرجت ومعها حصان أسود ضخم مُرعب الهيئة فقلت لها بتعجب: سأتدرب على هذا؟

_ نعم، نظرًا لصعوبة مهمتنا فلن تتدرب على حصان مُدَرب من قبل، ستدربه بنفسك ليكون حصانك الخاص، فالحصان على شطر فارسه.

_ في أسبوع واحد سأتدرب على هذا الضخم؟

_ أنا تعلمت ركوب الخيل في يومٍ واحد.

وتابعت بسخرية: هل كنت تظن أنني سأجلب لك حمارًا لتتعلم عليه ركوب الخيل، أم أنكم بكوكبكم تطلقون على الحمير خيولًا؟

وصاحت غاضبة: هيا اقترب ولا تضيع الوقت.

فلما اقتربت قالت: أهم شيء في امتطاء أي حصان هو أن تجعله يشعر بالأمان معك، يجب أن يعلم أنك أنت من ستمتطيه لا العكس، لا تحاول إغضابه حتى لا يظن أنك تعبث معه، انظر إلى ما سأفعله أنا.

أمسكت اللجام ووضعت قدمها بجانب الحصان فصعدت فوق ظهره بكل سلاسة ويُسر فتحركت به وأصبحت تسير به أمامي جيئة وذهابًا فنزلت من على ظهر الحصان وقالت: ماذا تعلمت الآن؟

ران عليّ صمت خفيف فقلت لها: لا شيء.

تنهدت وقالت بغضب: لا تقل لا شيء، أنت هنا لتتعلم، يجب أن تنتبه لكل شيء أفعله.

وتابعت: أول شيء ستفعله عند امتطائك الحصان هو أن تمسك بلجامه وتقف بجانب الحصان الأيسر وتضع قدمك اليسرى داخل ركاب السرج ثم تقفز عليه برفق لتصعد فوق ظهره، وعندما تصعد تجلس على ظهره بشكل مستقيم، كتفاك وأذناك ومقعدتك يجب أن يكونوا على خط مستقيم مع بعضهم، ثم تضغط على بطن الحصان بواسطة عضلات ساقيك برفق لتحثه على السير، وإذا أردت الإسراع تضغط بقوة.

أعطتني اللجام وقالت: الآن افعل كما قلت لك، لا أريد أخطاءً كثيرة، ستتعلم اليوم رغمًا عنك امتطاءه، ما زال أمامنا الكثير لتتعلمه.

ذهبت نيڤيا وجلست على صخرة صغيرة في إحدى زوايا الإسطبل وبدأت أنا في تنفيذ ما قالته وفي كل محاولة تقول: محاولة جيدة، حاول مرة أخرى.

بعد عدة محاولات ما بين الخاطئة والجيدة والمثالية تعلمت امتطاء الحصان وصارت نيڤيا تبتسم لي في كل محاولة.

عدنا للقصر وقت الظهيرة وحين دخلنا وجدنا الملك محب وسراج يجلسان على مائدة الطعام وينتظرانا، جلسنا وبدأنا في الأكل فقال الملك محب لنيڤيا متسائلًا: ماذا فعل فارس؟

_ لقد أبلى بلاءً حسنًا يا أبتِ، ولا أظن أننا سننتظر أسبوعًا.

أثناء تناولنا الطعام نهض سراج من مكانه وترك طعامه ودلف للداخل وسط دهشتنا الشديدة فعاد ومعه سيفان ودرعان وصار يحكهم ببعضهم البعض وقد أصدر بواسطتهم صوتًا مزعجًا فنظر إليّ وقال بحزم: هيا أيها المُبارز، لقد بدأ درسنا الآن.

قلت له بتعجب: وطعامي؟

أجاب ساخرًا: لو كنت تجلس وتتناول طعامك ودخل عليك عدوًا هل ستقول له أرجوك انتظرني حتى أنهي طعامي؟

وصاح غاضبًا: هيا قم.

قمت من على طعامي وأنا أشتاط غضبًا بداخلي فقلت له: هيا نذهب لغرفتنا أيها المُدَرِب.

ذهبنا للغرفة فأعطاني سيفًا ودرعًا وقال: هل تُجيد أي شيء يخص السيف؟

هززت له رأسي نافيًا فوضع سيفه ودرعه جانبًا وأخرج تفاحة ووضعها فوق رأسه ومَدَّ ذراعيه بجانبه وقال لي: حاول الآن أن تُسقطها من على رأسي.

_ سأفعلها بكل سهولة أيها الأحمق.

_ هيا افعلها إذًا.

أمسكت السيف وحاولت إسقاطها من على رأسه ولكنه كان سريع التوقع جدًا، وكأنه يقرأ أفكاري ويعرف متى سأمد السيف نحوه وأسدد ضربتي، صرت أحاول كثيرًا لأسقطها ولكنه كان يراوغني ويُغير اتجاهاته في كل مرة بطريقة ماهرة جعلتني أفقد الأمل وأُصاب باليأس فتوقفت.

ضحك وأمسك بسيفه ودرعه وأعطاني التفاحة وقال: الآن سأحاول أنا إسقاطها.

أخذت التفاحة ووضعتها فوق رأسي فاقترب إليّ قليلًا وأنا مُنتبه له، وجدته يُغلق عينيه ويمد سيفه ويجعله موازيًا لعينيه وقال بصوت هامس: أهم شيء في تلك اللحظة يا صديقي هو أن تتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، فتنهد وقال بصوت خافت: أناة القط، ووثبة الأسد.

فجأة ضرب بسيفه فوق رأسي ضربة قوية أغمضت على إثرها عينيّ فشعرت بالهواء الذي خلفته الضربة يلامس شعري، فتحت عينيّ وشعرت بثقل التفاحة على رأسي فضحكت وقلت: محاولة فاشلة أيها المُدرب.

ابتسم وقال: نعم هي محاولة فاشلة، والآن أعطني التفاحة لنعيدها ونُكمل تدريبك.

التقطت التفاحة من على رأسي فوجدتها مقسومة لنصفين، فضحك بصوت عالٍ فقلت له بتعجب: كيف فعلت ذلك؟

_ احفظ هذا جيدًا، لا بد أن تتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

_ من علمك هذا؟

_ أبريس.

_ من هو أبريس؟

_ ستعرف لاحقًا.

بدأ سراج في تعليمي كيفية إمساك السيف والهجوم به وكيفية الدفاع بواسطة الدرع ووضعيات الجسم أثناء الهجوم والدفاع، في اليوم الثالث انضم سراج إلينا أنا ونيقيا ليعلمني المبارزة على ظهر الحصان والقفز من على ظهره وهو يسير بأقصى سرعته والوقوف على ظهره بكلتا قدمي.

في اليوم الخامس وأثناء جلوسنا لتناول وجبة الغداء قالت نيقيا للملك محب أنني قد بت جاهزًا للمهمة الآن وقد تعلمت كل شيء.

نظر الملك محب لسراج فأخبره أنني أيضًا قد تعلمت المبارزة الأرضية والمبارزة على ظهر الحصان منذ اليوم الرابع.

نهض الملك محب من مكانه وقال: لو قلتما لي إن فارسًا تعلم ركوب الخيل والمبارزة منذ اليوم الأول كنت سآمركم بالذهاب إلى مهمتكم في الحال، فهدفنا هو إضافة مهارة ركوب الخيل والمبارزة بالسيف إلى قواه الخارقة لتساعده.

وتابع بحماس: ستخرجون قبل بزوغ فجر الغد إلى مملكة "موريكا"، فاستعدوا.

بعدما انتهينا من وجبة الغداء قلت لسراج متسائلًا: هل سنذهب الآن لنتناول الشراب بالحانة؟

_ لا، سترافقني اليوم إلى مكان لم تذهب إليه من قبل.

_ ما هذا المكان؟

_ اتبعني وستعرف عندما نصل إلى هناك.

خرجنا من القصر فسرنا مبتعدين عن المنطقة السكنية حتى وصلنا إلى المنطقة الزراعية أقصى الشرق من المملكة وقد كانت منطقة شاسعة وبها العديد من الآبار التي يستخدمها المزارعون في الزراعة والكثير من المزارعون يعملون، توقف سراج وأصبح ينظر إلى المزارعون وقد سيطر الصمت على ملامح وجهه فقلت له متسائلًا: لماذا جئت بي إلى هنا؟

قال بنبرة حزينة: جئت بك إلى هنا لتعلم أنك لست الوحيد الذي فقد عزيزًا عليه.

أشار بيده نحو المزارعون وتابع: كل هذه الناس قد فقدوا عزيزًا عليهم، فمن فقد والده ومن فقد والدته ومن فقد أخاه أو أخته.

صمت قليلًا فتنهد وأكمل: ومن فقد عائلته بأكملها مثلي.

_ كيف فقدت عائلتك؟

_ بعد قتل والدك بثلاث سنوات اعترض الشرفاء على الكوكب والذين كان ينعتهم ناتون بالجواسيس على قتل والدك وسجن والدتك فبدأ بسجن بعض الناس وتعذيبهم فاقترح علينا الملك محب بأن نهاجر بعيدًا أقصى الجنوب ونؤسس مملكة خاصة بنا فاتفق الجميع بأن نهاجر خفية حتى لا يفطن لنا أحد، ولكن ناتون عرف بخطتنا عن طريق كلابه التي تعيش بيننا والتي يتحكم بها بالذهب، فطارد من رحل وسجن من بقي وكان من ضمن

السجناء الذين لم يتمكنوا من الرحيل عائلتي، أمي وأبي وأخي الأكبر، تم تعذيبهم حتى الموت.

كان عمري حينها عشر سنوات، عملت في صناعة السيوف والدروع حتى تعلقت بالسيف وتعلمت فنون القتال به وعندما أصبح عمري سبعة عشر عامًا قام ناتون بتعييني مدربًا للأطفال داخل القصر وهو لا يعرف من أنا، ولا يعرف أنه قد قتل أبي وأمي وأخي، ومن يومها وأنا أخطط للهرب من مملكة "موريكا" لألتحق بالملك محب لنؤسس جيشًا فأعود وأنتقم لعائلتي.

تأثرت بكلام سراج كثيرًا، ولأول مرة أجد هذا المَرِح يتحدث بحزن هكذا، ربتُّ على كتفه وقلت له: سننتقم يا سراج، أعدك بأن أول شيء سأفعله بعد تحرير أمي وأختي هو قطع عنق "ناتون" وِابناه.

وتابعت مازحًا: لم تقل لي بعد، لماذا جئت بي إلى هنا؟

قال ضاحكًا: كل هذا ولم تفهم أيها الأحمق؟

نظر سراج إلى عمال الزراعة فتابع قائلًا: انظر حولك! لو كنت تعمل في مملكة "موريكا" وجئت إلى هنا ستظن أن العمال هنا يمرحون لا يعملون، العمال هناك يقف الحراس خلفهم بالسوط ومن يتهاون في عمله ينهالون عليه بالضرب حتى يُفقدونه الوعي ثم يتركونه مغشيًا عليه، ومن يساعده يضربونه أيضًا.

تعمل طوال الشهر هناك وتحصل في آخر الشهر على قطعة ذهبية واحدة، ويقومون بتقديم اللحم للعمال مرة واحدة في الشهر وهو لحم الحمير.

_ لحم الحمير! ولماذا يقدمون لهم لحم الحمير؟

_ يقال أن تناول لحوم الحمير يورث الغباء والعبودية، وهم يريدون الناس هكذا، يأكلون ويعملون وينامون فقط.

_ ولماذا لا يتحد الناس ويمتنعون عن أكل تلك اللحوم؟

_ يا صديقي، هم يطعمونهم بالقدر الذي يُمسك أودهم ويدفع عنهم الموت، هذا أشبه بحبس أسد داخل قفص لمدة شهر بلا طعام وعندما

حرروه من حبسه وضعوا أمامه كومًا من اللحم فانهال على اللحم دون أن يكترث لنوع اللحم أو مصدره.

نظر سراج للشمس فتنهد وقال: لقد تأخرت الشمس عن المغيب اليوم.

_ ولماذا تتعجل غروبها هكذا؟

_ إذا غربت الشمس فهذا يعني أن وجبة العشاء قد اقتربت، لقد جُعت كثيرًا.

رفعت حاجبيّ وقلت بضيق: غريب أمرك يا سراج رغم كل هذا الحزن الذي بداخلك وتفكر في الأكل؟

_ أنا أهرب من حزني إلى الأكل، فهو الشيء الوحيد الذي يبقى لي حين يغادرني الجميع، هل رأيت من قبل قطعة لحم قالت لك اغرب عن وجهي فأنا لا أريدك؟

قلت له ضاحكًا: أنت أغرب شخص رأيته على الإطلاق، حين تفرح تأكل، وحين تحزن تأكل، الشيء الوحيد الذي لا يمكنك الأكل خلاله هو النوم، وربما تأكل أيضًا وأنت نائم في أحلامك.

بعدما عدنا للقصر وجدنا أمامه عربيتين خشبيتين بعجلتين خشبيتين ومُثبت في كل عربة حصانًا ليجرها فقلت لسراج متسائلًا: ما هذا؟

فأجاب قائلًا: تلك العربات تُستخدم في نقل الملك محب إلى الأماكن الزراعية ومصنع السلاح وأحيانًا يستخدمها في تفقد الأسواق، ولكنني لا أجد تفسيرًا لوجودها هنا في هذا الوقت.

دخلنا القصر فوجدنا نيڤيا واقفة خلف بوابة القصر بالداخل وهي تعقد يديها وتضعهما خلف ظهرها، حين رأتنا قالت غاضبة: أين كنتما؟

أجابها سراج: لقد ذهبنا لنتفقد المنطقة الزراعية.

قلت لها متسائلًا: ما الأمر؟

فأشارت برأسها لأحد عمال القصر فاقترب وأعطاها بعض الملابس المصنوعة من الصوف فأخذتهم منه وقالت: اتبعاني إلى غرفتكما.

نظرت ل سراج متعجبًا فوجدته يبادلني نظرات التعجب فتبعناها ودلفنا الغرفة فوضعت الملابس على السرير فأمسكت ثوبًا أبيض مقسم لقطعتين، قطعة تُلبس في الجزء العلوي من الجسم وقطعة للجزء الأسفل، نظرت إليّ فقالت: هذا الثوب لك يا فارس، سيليق عليك نظرًا لاسمرار لون بشرتك.

أعطت الثوب المتبقي لسراج وقد كان بُنّي اللون وقالت له: وهذا لك يا سراج.

وقفت أنا وسراج متعجبين وكلانا يمسك بثوبه بيديه ولا نعرف هل هذين الثوبين سنلبسهما لمهمة الغد أم هم مجرد هدية.

قاطعت نيڤيا ذهولنا وقالت: هيا البسا هذين الثوبين الآن، ستذهبان معي بعد قليل لحضور عُرس ابنة أحد الوزراء.

وتابعت: لا تتأخرا، سأنتظركما بالخارج.

بعدما غادرت نيڤيا وجدت سراج ينظر إليّ مُبتسمًا فقاطعت نظراته وسألته: ما سبب تبسمك هذا؟

_ أقسم لك يا صديقي بأن الملكة نيڤيا هي معجبة بك، فإنني أعرف نظرات الإعجاب في عيون النساء

_ قد قلتها، مجرد إعجاب، كلنا تعجبنا الأشياء، ولكن ليست كل الأشياء نحبها.

_ الإعجاب يولد الحب، وربما أنا مخطئ وهي تحبك وليست معجبة بك.

_ لا وقت لديّ لأعرف هذا ، أنا دخلت كوكبكم لأنقذ أختي وبعدما دخلت اكتشفت أن أمي أسيرة أيضًا، فأنا لا أفكر في أي شيء هنا سوى تحريرهما.

وتابعت: هيا نلبس هذين الثوبين ولا نتأخر على نيڤيا.

_ بمناسبة الثوبين، هل رأيتها عندما أعطتك الثوب الأبيض وقالت لك؛ هذا الثوب سيليق ببشرتك السمراء يا فارس؟ بينما سراج المسكين قالت له؛ هذا لك يا سراج.

كان سراج يتكلم وهو يقلد نيڤيا ويتحدث كما تتحدث هي وقد غيّر نبرة صوته ما أصابني بالضحك الشديد فأخبرته أن يكف عن مزاحه هذا وأن نعجل ونرتدي ملابسنا لئلا نتأخر.

بعدما لبسنا الثوبين خرجنا إلى الحديقة الموجودة بالقصر وجلسنا منتظرين نيڤيا فلم يمضِ من الوقت إلا بضعة دقائق حتى أقبلت علينا نيڤيا فلما رأيتها وقفت مذهولًا مما رأيته!

كانت ترتدي فستانًا باللون الأسود ومطرزًا بالخرز الشبكي ذي اللون الذهبي وتلبس فوق رأسها طوقًا مصنوعًا من الخرز، وقد احتل جمالها الحديقة وأصبحت تتطاير الفراشات من حولها وكأنها حورية، فلما وقفت أمامي وصارت تحدثني وتحدث سراجًا لم أسمع منها أية كلمة على الإطلاق، كنت أقلب النظر لفستانها تارة ولعينيها الخضراوين تارة أخرى ولا أسمع شيئًا من حولي، لقد أفقدني جمالها الوعي ولم أتمالك نفسي فنطقتُ بتلقائية قائلًا: أنتِ جميلة جدًا يا نيڤيا.

فوجدتها تنظر بعيدًا عني من شدة الخجل واكتفت بابتسامة خجولة وقالت: هيا لنذهب للعُرس ولنعد سريعًا لنستعد لمهمة الغد.

كان "سراج" ينظر إليّ ممتعضًا وقال بسخرية: هيا بنا أيها العاشق، أنسيت أن أمك وأختك أسيرتان؟ لا وقت لديك للعشق.

سرنا نحو العربتين الواقفتين أمام القصر فوجدنا إحداهما مليئة بالهدايا التي تم إعدادها للعروسين، ذهبنا إلى العربة الأخرى فجلسنا في المقعد الخلفي وكان سائق العربة يجلس في مقعد صغير بالأمام فأمرته نيڤيا بالتحرك فانطلق.

بعدما وصلنا إلى العُرس تفاجأت بالزغاريد والأهازيج فقلت لسراج ضاحكًا وأنا أرفع صوتي ليستطيع سماعي من الصخب الذي يملأ المكان: سراج، يبدو أن هذا العُرس هو بكوكبنا.

نظر لي سراج بتعجب فتابعت ضاحكًا: نحن نفعل في أعراسنا مثلما تفعلون أنتم الآن ولكن نختلف نحن عنكم بمكبرات الصوت.

ذهبت نيڤيا وباركت للعروسين وقدمت لهما الهدايا فأجلسنا أحدهم على طاولة خشبية مستطيلة الشكل فجاءت نيڤيا وجلست بجوارنا فقالت لي متسائلة: هل أجواء العُرس أعجبتك يا فارس؟

قلت والسعادة تملأ وجهي: نعم، أعجبتني كثيرًا.

وتابعت: هذا أول عُرس أجلس فيه من ضمن المدعوين، فكيف لا تُعجبني أجواؤه؟

عقدت حاجبيها وقالت بتعجب: ألم تحضر عُرسًا بكوكبكم من قبل؟

ران عليّ صمت مهيب فتنهدت وقلت بنبرة حزينة: لقد كنت وأختي منبوذين بقريتنا، لا يدعونا أحد لعُرس، ولا يُحدثنا أحد، ولا يختلط بنا أحد، كنا منعزلين لدرجة أنه لو نشب حريق بمنزلنا لن يساعدنا أحد في إخماده، وربما تركونا نتفحم ولا يمدون لنا يد العون.

صمتُ هنيهة ثم أكملت: عندما كنت صغيرًا كنت أقف أنا وأختي إيمان قريبين من أي عُرس وأمسك بيدها ونحن مستعدان ومتأهبان في أية لحظة يطردنا فيها أصحاب العُرس.

تأثرت نيڤيا بكلامي فقالت مبتسمة: الآن يا فارس لو وقفت وقلت للناس أن من يجلس بجانبي هو أوناسيو الملك الشرعي للكوكب سينهال عليك الناس بالترحيب والتهليل.

_ لا أريد هذا يا نيڤيا، بعدما أقوم بإنقاذ أمي وأختي سيعرف الجميع هذا، لنُبقِ المهمة سرًا كما أمرنا الملك محب.

هدأت الأهازيج واحتل الصمت كل العرس وتقدم العروسان فجلسا على أحد الكراسي فجاء كهل بلحية طويلة ومعه كتاب كبير وبدأ يدون داخله بعض الكتابات فعرفت أن هذا عقد الزواج، وبعدما انتهى من كتابة العقد نزع العريس "حلقة البعث" من يد زوجته اليمنى ووضعها في يدها اليسرى فانطلقت الأهازيج والزغاريد ودقت الطبول واقترب العروسان لبعضهما وهما واقفان وصار كل منهما يضم كفيه لبعضهما ويضعهما أسفل ذقنه ويهز رأسه ويقفز بقدميه لأعلى، حين رأيت رقصتهما صرت أضحك كثيرًا وسط دهشة سراج ونيقيا وتساؤلهما عن سبب ضحكي.

اقترب بعض الأطفال إلينا وأمسكوا بيد نيقيا وصاروا يحدثونها بلغتهم فقامت وذهبت معهم لساحة الرقص وضمت هي أيضًا كفيها ووضعتهما أسفل ذقنها وصارت تهز رأسها وتقفز بطريقة مضحكة وترقص مع الأطفال ويصفقون لها وهي تنظر إليّ فتجدني مستمر بالضحك.

بعدما انتهت من الرقص جاءت وجلست بجانبي فقالت متسائلة: لماذا تضحك على رقصتي؟

_ تلك الرقصة التي ترقصونها تُشبه رقصة الهنود على كوكبنا.

_ من هم الهنود؟

_ هم أُناس خارقون ويفعلون أشياءً خارقة، ولكنها بطريقة مضحكة مثل رقصتكم تلك.

جاء أحد الأشخاص فوضع أمامنا الطعام والفاكهة فوجدت سراجًا ينظر إليّ وإلى الطعام فقال: هل سنأكل الآن أم سننتظر إنهاء حديثكما؟

قلت له ضاحكًا: ابدأ أنت بالأكل يا سراج ولا تكترث بحديثنا.

فجأة وجدت فتاةً تقف أمامي وتحدثني بلغتها فلم أفهم منها شيئًا فحدثتها نيقيا بلغتهم فانصرفت والحزن يملأ وجهها.

قلت لسراج متسائلًا: ماذا قالت تلك الفتاة؟

أجاب هامسًا: لقد قالت لك هل يمكنك الرقص معي أيها الوسيم، فقالت لها الملكة نيڤيا إنك لا تجيد الرقص وأن تذهب لشخص آخر غيرك.

نظرت لنيڤيا وقلت لها معاتبًا: ما هذا الذي فعلتيه؟

أجابت بحنق: لقد قلت لها الحقيقة، أنت لا تجيد الرقص.

_ كيف لا أجيده؟ ماذا تفعلون في رقصكم سوى القفز؟

وتابعت: لماذا تكسرين بخاطر تلك الفتاة المسكينة وتحرجينها؟

نهضت من على الكرسي وقالت غاضبة: أنا فعلت ذلك لئلا يفطن لك أحد، هل نسيت أننا سنذهب غدًا في مهمة سرية؟

وتابعت: إن كنت ترى أن ما فعلته كان خاطئًا فاذهب إليها الآن وقم بالرقص معها.

غادرت نيڤيا وذهبت نحو العربة فقال لي سراج: هل ستبقى هنا؟ هيا اذهب خلفها وأخمِد نار غيرتها.

عقدت حاجبيّ وقلت له بتعجب: غيرتها؟!

ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وقال بسخرية: نعم غيرتها، هيا اذهب إليها قبل أن تحترق وتحرقك وتحرقنا معك.

ذهبت خلفها فوجدتها تقف بجوار العربة فلما رأتني قادمًا نحوها التفتت وأدارت لي ظهرها فقلت لها ممازحًا: هلا تخبرينني ما سبب غضبك هذا أيتها الجميلة؟

التفتت إليّ وقالت بغضب: هل نسيت أننا في مهمة سرية فكيف تريد الرقص مع الفتيات هنا؟

_ هل هذا فقط ما أغضبك؟

_ وما تظن أنت؟

_ لا شيء، والآن هيا لنعود للعرس حتى لا ينتبه إلينا أحد.

أمسكتها من يدها وهممت بدخول العُرس فجاءتني فتاة أخرى فحدثتني بلغتها فوجدت نيڤيا ترد عليها بنبرة حادة فانصرفت الفتاة خائفة مرعوبة.

وجدتها تنظر إليّ بغضب فقاطعت نظراتها قائلًا: لا تنظري إليّ هكذا، ما ذنبي أنا؟

احمّر وجهها من شدة الغضب وقالت بسخرية: أيها الوسيم، هل يمكننا العودة إلى القصر الآن قبل أن أرتكب جريمة في هذا العُرس وأحوله لمأتم.

_ لا عليك أيتها المجنونة، استقلي العربة وأنا سأدخل العرس لأحضر سراجًا وأعود.

_ انتبه لخطواتك جيدًا أيها الوسيم حتى لا تُعرقلك إحدى الجميلات بالداخل.

دخلت العرس فوجدت الطاولة التي كنا نجلس عليها فارغة فقلت محدثًا نفسي: أين ذهب ذلك الأحمق؟

لابد أنه قد تطفل ودخل المطبخ ليأكل.

دخلت المطبخ وصرت أبحث عنه فلم أجده، صرت أقلب النظر عنه بين الحضور، وبعد البحث الكثير وجدته في ساحة الرقص ويرقص مع إحدى الفتيات وهو يضع كفيه أسفل ذقنه ويقفز، فذهبت إليه وجذبته من ذراعه بقوة وقلت له بغضب: أيها الساذج، لقد كنا جالسين منذ وقت كبير هنا وروح الكنغر التي بداخلك لم تستيقظ سوى الآن؟

وتابعت: هيا سنعود إلى القصر الآن.

بعدما عدنا إلى القصر دلف سراج لغرفتنا وبقيت واقفًا مع نيڤيا بالحديقة نتسامر.

_ لا أصدق أن تلك الحورية الجميلة ستستيقظ فجر الغد وتتوشح بالسيف وتمتطي حصانًا وتذهب معنا لمهمة ربما ينشب فيها قتال فتقاتل.

ران عليها صمت خفيف فتهدت وقالت مبتسمة: نحن لا نعيش الحياة كما نريد، سنتعرض في حياتنا لعقبات ربما تسلبنا سعادتنا، فحينها إن وقفنا

مكتوفي الأيدي ولم نواجه تلك العقبات فستكون حياتنا هي الثمن، إن أردت العيش بسلام فعليك أن تذهب لتلك العقبات بنفسك وتباغتها قبل أن تباغتك حتى لا تصبح أسيرًا لها.

شردت نيڤيا ثم تابعت بصوت تشوبه نبرة حزن وقالت: رغم أنني ابنة الملك هنا ولكنني لم أعش طفولتي كما يعيشها أي طفل هنا، كان أبي يوقظني فجرًا لنخرج من المملكة ويحملني على حصانه لنتفقد الأجواء خارج المملكة، كان يقول لي دائمًا انظري للصخب والرعب والظلم القابع خارج مملكتنا يا نيڤيا فعندما تكبرين ستوقفين هذا كله ولهذا أقوم بتدريبك واصطحابك معي خارج أسوار المملكة.

قلت لها متسائلًا: كيف لفتاة صغيرة مثلك تتحدث بلغتنا العربية بكل سلاسة ويسر هكذا رغم أنها ليست لغتك الرسمية؟

أجابت: حين كنت في العاشرة من عمري كان أبي يخبرني مرارًا أن من سيأتي لينقذ كوكبنا ستكون لغته هي اللغة العربية، فتعلمتها في عام واحد فقط وبدأت في التدرب على ركوب الخيل والمبارزة بالسيف لأكون مساعدة له في حربه ضد الظلم هنا، وها هو حلمي قد تحقق، وسأخرج معك غدًا في أول مهمة لك.

قلت متعجبًا: كيف يخبرك الملك محب بأنني سأعود، هو كان يعلم أن أبي سيبعدني عن القرية والجبل والكهف؟

أطلقت نيڤيا تنهيدة كبيرة وقالت بحزن: لقد كان يكذب عليّ يا فارس كما كان يكذب على الجميع هنا، كان يخبرنا دومًا بأن أوناسيو سيعود، وهو يعلم أنك لن تعود، وما فعل هذا إلا ليقوّي عزائم الناس ويشجعهم كي يعملوا ويبنوا مملكتنا تلك بلا أي خوف من أحد.

ودعت نيڤيا ودلفت لغرفتي فوجدت سراج ممددًا على السرير فذهبت وتمددت بجانبه ونحن ناظران لسقف غرفتنا فوجدته ينظر إليّ فقال متسائلًا: عندما قابلتك أول مرة قلت لي أن عينك تلك ستعجب النساء وتُرعب الرجال هنا، كيف عرفت ذلك؟

أجبته مبتسمًا: النساء يا صديقي دائمًا يُعجبن بالأشياء النادرة، الأشياء التي يصعب على الجميع امتلاكها، فهن يعشقن كل شيء نادر وربما لا يقعن في عشق شيء مميز، وما غلا المعدن النفيس إلا لندرته.

وتابعت: كوكبنا مُقسم لقارات، وكل قارة تختلف بيئتها وعاداتها وشعبها عن الأخرى، فمثلًا لو أنك ذهبت أنت بعينيك الخضراوين تلك وشعرك الأشقر الطويل لقارة آسيا أو أفريقيا سيرونك شخصًا ذا ملامح نادرة واستثنائية، ولو ذهبت لقارة أوروبا وأمريكا سيرونك شخصًا عاديًا جدًا.

صمتُ قليلًا ثم أكملت: في دولنا العربية تجد الفتاة ذات ملامح عربية كاملة ولكنها تتمنى رجلًا اوروبيًا بشعر أشقر وعينين خضراوين أو زرقاوين، والرجل العربي كذلك، تجده بشعر مجعد وبتكشيرته المعتادة وبطنه الذي يمتد أمامه قرابة النصف متر فينشر صورة لفتاة أوروبية شقراء فاتنة الملامح ويكتب عليها: هكذا النساء وإلا فلا، ويكتب أيضًا: انتظريني سآتيك مهاجرًا قريبًا، الأحمق يظن أنه لو ذهب إليها ستركع له حُبًا وتعشقه منذ الوهلة الأولى وستطلبه للزواج متلهفة، الرجل العربي يظن أنه النوع المفضل للشقراوات، ولستُ أدري من أقنعه بهذا.

قال سراج متسائلًا: وأنت، من أية قارة؟

_ أنا من قارة أفريقيا.

_ إذن لو ذهبنا معًا لقارتكم سأكون أنا صاحب الإطلالة الأجمل.

ضحكت وقلت: أنت صاحب الإطلالة الأجمل سواء بكوكبكم هنا أو بكوكبنا يا صديقي.

صار سراج يقص عليّ عن حياته في مملكة "موريكا" ومعاناته فيها وعن الظلم الذي يسود المملكة وأثناء حديثه غلبني النعاس فنمت.

استيقظنا مفزوعين على صوت طرقات على باب غرفتنا الخشبي فنظرت للنافذة فوجدت الظلام يخيم على المكان بالخارج، فقام سراج وفتح الباب فإذا بنيقيا تدخل مسرعة وقد تجهزت ولبست زيًا خاصًا وتتوشح بسيفها بجانبها والجانب الآخر تضع خنجرًا وما إن أقبلت إليّ وما زلت مضجعًا على

السرير حتى صاحت: هيا قوما وتجهزا سريعًا، سنخرج من المملكة قبل أن يبزغ الفجر لئلا يرانا أحد.

تجهزت أنا وسراج سريعًا وبعدما خرجنا وجدنا خدم القصر قد جهزوا لنا الأحصنة وعلى ظهرها الزاد والمتاع فركبنا الأحصنة واتجهنا نحو بوابة القصر ففتح لنا الحارس فخرجنا، أخبرتنا نيقيا أننا سنسير ببطء شديد حتى لا يفطن لنا أحد، وكأننا أشخاص عاديون ذاهبون للصيد أو للبحث عن الذهب في الجبال هنا.

بعدما وصلنا لطريق "ديارا" ودخلنا فيه ومشينا بعض الأمتار اتضح لي أنه طريق مليء بالأفاعي والعقارب وبعض الحشرات الأخرى، لا تستطيع أن تحصي عدد الأفاعي والعقارب وباقي الحشرات فيه ولو قارنتهم بالأحجار والصخور الموجودة هنا لما استطعت التفرقة إن كانت الأحجار أكثر أم الحشرات أكثر، طريق يدب فيه الرعب، لو ترجلت من على حصانك فعليك أن تنتبه لخطواتك جيدًا، فكل خطوة تخطوها أنت معرض فيها للموت، فالأفاعي هنا مختلفة الأنواع وكلها سامة وكذلك العقارب، كانت نيقيا تسبقنا بحصانها وبيدها قطعة خشبية طويلة الشكل تقوم بواسطتها بإبعاد الأفاعي والعقارب عن طريقنا لئلا يفقد أحدنا حصانه فنقع في مأزق كبير، كنا نسير ببطء شديد والرعب يسيطر علينا، وكأننا نسبح في بحر مليء بالأفاعي والعقارب، فأنت لا تنظر أمامك فقط؛ أنت تنظر من أمامك وعن يمينك وعن يسارك ومن خلفك وأسفلك، وأيضًا تنظر في الأرجاء كلها من حولك خشية من أن تكون مراقبًا، يبدو أن تلك الرحلة إلى مملكة "موريكا" ستكون شاقة جدًا.

نظرت إلى نيقيا فقلت لها بخيبة أمل: لو استمررنا بالسير هكذا ربما سنصل بعد شهر.

_ ليس كل الأماكن هكذا، بعض الأماكن لن نجد بها ما نجده هنا، أعني الأفاعي والعقارب، أما الشيء الثابت في طريقنا هو نزوح الذئاب من الجبال إلى الطريق هنا ليلًا، فلن نستطيع السير ليلًا على الإطلاق.

_ إذن فلن نجد راحتنا في هذا الطريق إطلاقًا، لا بالليل ولا بالنهار.

نظرت لسراج فوجدته يُخرج من داخل حقيبته الجلدية قطعة من الخبز وبدأ بالأكل.

نظرت إليه متعجبًا فتنهدت وقلت له بحنق: أنت الشخص الوحيد في هذا الكون الذي لا يكترث لشيء سوى للأكل فقط، إن كنت سعيدًا تأكل، وإن كنت حزينًا تأكل أيضًا، حتى ونحن نصارع الموت هنا تأكل، أنا أعتقد أنك بعد موتك ستكون وصيتك هي تزويدك بالطعام داخل قبرك، وقد عرفت الآن لِمَ كان المصريون القدماء يضعون الطعام في قبور أمواتهم.

نظر لي سراج نظرة شرزاء فواصل أكله دون اكتراث لكلامي واكتفى بابتسامه مصطنعة وكفى.

أوشكت الشمس على المغيب، وجدت نيڤيا تنظر للسماء في كل اتجاه، وحين رأت تجمعات لبعض الطيور أوقفتنا وأخبرتنا أننا سنبيت تلك الليلة هنا، فالماء قريب والجبل بعيد عنّا بمسافة آمنة تمنع الذئاب من مهاجمتنا.

كان المكان مكشوفًا من كل اتجاه والطقس بارد جدًا، وصوت الهواء هنا يُشعرك بالرعب الشديد ناهيك عن أصوات الحشرات المزعج، المكان هنا أشبه بالجحيم، يبدو أن تلك الليلة ستكون مرعبة و ثقيلة جدًا، وقد صح ظني منذ البداية؛ لا راحة لنا هنا لا بالليل ولا بالنهار.

أحضرت نيڤيا ثلاثة فؤوس صغيرة وأعطت كل واحد منا فأسًا وأمرتنا بأن يحفر كل شخص حفرة له وتكون مبيتًا له تلك الليلة، وأخبرتنا أيضًا أننا يتوجب علينا أن نُقسّم الليل بيننا، ينام شخصان ويبقى الثالث مستيقظًا للحراسة.

بدأت أنا في الحراسة في الثلث الأول من الليل وبقيت جالسًا في حفرتي أنظر للسماء وأستمتع بالنجوم مختلفة الألوان وقد غرق سراج في النوم وبقيت نيڤيا مستيقظة تقلب ناظريها في السماء فحدثتني نيڤيا متسائلة: ألديكم مثل تلك النجوم في كوكبكم يا فارس؟

_ النجوم بكوكبنا صغيرة الحجم وألوانها متشابهة، أما هنا بكوبكم فالنجوم كبيرة جدًا وألوانها متنوعة وبإمكانك أن تحصي عدد النجوم هنا لقلتها.

اعتدلت نيڤيا وجلست كما أجلس فسألتني بفضول شديد: والقمر؟

عقدت حاجبيّ وقلت: ما به القمر؟

_ لم يسبق لي أن رأيت قمرًا من قبل، ولكن قرأت عن جماله وسحره في الكتب التي أحضرها والدك إلى هنا، فماذا يُشبه؟

صرت أنظر للسماء وللنجوم التي تُزين صفحتها تارة وأعود فأنظر إليها تارة، ران عليّ صمت طويل ولم أنبس ببنت شفة.

قاطعت نيڤيا صمتي الطويل وقالت بشغف: ماذا يشبه القمر يا فارس؟

أطلقت تنهيدة كبيرة ونظرت إليها فقلت: والله لا أجد ما أشبهه به هنا سوى أن أقول لكِ إنه يشبهك يا نيڤيا.

فاتقد وجهها حياءً وخجلًا وصارت تزدرد ريقها بصعوبة بالغة فقاطعت خجلها متسائلًا: هل أحببتِ من قبل؟

_ أنا أحب؟

_ وما الضير إن أحببتِ؟

_ أنا أبتعد عن الحب متعمدة لأحتفظ بسلام قلبي وسكونه.

_ أتخشين الحب؟

_ أنا لا أخشى الحب، أنا أخشى نهايته.

لاحت على شفتيّ ابتسامة خفيفة فقلت لها: نحن نعلم أن ليست كل قصة حب تكون نهايتها سعيدة، ولكن من المؤكد أن لكل قصة حب بداية سعيدة، فالنهايات السعيدة للرجال، النهايات السعيدة لمن يحارب من أجلك كل الدنيا ليحظى بكِ، النهايات السعيدة لمن يقدّر قيمتك ويفديكِ بنفسه في أصعب الظروف، النهايات السعيدة لمن أحبكِ وآثركِ على نفسه وجعلكِ سيدته الأولى وأغلق عليكِ باب قلبه، النهايات السعيدة يفعلها

الرجال وما أقل عددهم، فالبدايات هي للرجال والذكور معًا، أما النهايات فهي للرجال فقط.

ارتسمت على وجهها ابتسامة كبيرة فقالت متسائلة: وأنت؟ هل أحببت من قبل؟

_ نعم، لقد أحببت فتاة من قبل.

_ وماذا حدث؟

_ أحببتها بقلبي وأحبتني هي بعينيها.

_ لا أفهم؟

_ عندما افترقنا تألم قلبي وبشدة.

_ وهي؟

_ نزعت عدسات عينيها الاصطناعية وعاشت بسلام.

_ أنت تمزح يا فارس أليس كذلك؟

ضحكت بهستيرية وقلت: بلى أمزح، فلم يسبق لي أن أحببت من قبل.

كانت نيڤيا تنظر إليّ حينها نظرة المتعجب الذي رأى شيئًا لأول مرة وتفاجأ به، فقاطعت نظراتها تلك متسائلًا: ما الأمر؟

_ ضحكتك تبدو جميلة، كضحكة الأطفال، لِما فيها من الهدوء والبراءة، وما يزيد ضحكتك جمالًا هو أن عينيك تُغلقان تلقائيًا حين تضحك.

لم أتمالك نفسي حينها وأبعدت ناظريّ بعيدًا عنها لئلا يلتقيان بعينيها فيصيباني بالتوتر، تلك أول مرة أجد أحدًا يغازل ضحكتي وعينيّ، لم يسبق لي منذ ولادتي أن قال لي أحد أن ضحكتي تبدو جميلة أو أن عيني تبدوان جميلتين.

هززت لها رأسي مع ابتسامة صغيرة وران عليّ صمت مهيب ولم أنبس ببنت شفة.

شعرت نيفيا بارتباكي المفاجئ فقالت بنبرة متسرعة: هل تشتاق لأمك أكثر أم لأختك أكثر يا فارس؟

صمتُّ هنيهة فقلت: أشتاق لكليهما معًا، أما أمي فإني أشتاق إليها اشتياق المغترب لوطنه الذي ولد فيه فغادره كارهًا غير راغب وها هو اليوم قد عاد إليه كارهًا أيضًا ولكنه اليوم مغتبط لعودته.

عدت لصمتي فوجدت نيفيا تنظر إليّ وكأنها تنتظرني بفضول وشغف أكمل كلامي.

لاحت على شفتيّ ابتسامة كبيرة وقد فهمت تعبيرات وجهها فقلت لها: إيمان؟

فابتسمت وهزت رأسها فأردفت قائلة: منذ أن فقدتها وأنا أشعر أنني فقدت جزءًا كبيرًا من حياتي، بل أشعر أنني فقدت حياتي كلها، إيمان هي الحياة بالنسبة لي، لا يهنأ لي عيش ولا يهدأ لي روع ولا يسكن لي نبض دونها.

لاحت على وجهها ابتسامة كبيرة فقالت: ليتني أمتلك أخًا يحبني كما تحب أختك يا فارس

ران علينا بعدها صمت مطبق فقاطعت نيفيا صمتنا متسائلة: ما أغرب شيء لفت انتباهك بكوكبنا يا فارس؟

_ أغرب شيء بكوكبكم هو أنكم لا تذرفون الدموع وقت الحزن.

_ لا نمتلك غددًا دمعية مثلكم، ولذلك لا تدمع أعيننا.

_ وكيف تستطيعون التعبير عن حزنكم أو ألمكم أو بؤسكم.

أطلقت نيفيا تنهيدة كبيرة وقالت بهدوء: لا تبكي أعيننا يا فارس إنما قلوبنا هي من تبكي، وما أقسى بكاء القلب إن تألم.

صمتت هنيهة ثم تابعت: أتعلم يا فارس أن من يزداد بكاء قلبه يمتلئ وجهه بالتجاعيد وينكمش فجأة ثم يفقد وعيه لساعات طويلة؟ حتى الأطفال في صغرهم كانت أمهاتهم تعرف شدة بكاؤهم من تجاعيد وجوههم وفقدان

وعيهم، ولكن الأطفال كانوا يفقدون الوعي لفترة قصيرة عكس الأشخاص البالغين، قد يمتد فقدان وعيهم ليومين.

صرنا نتسامر كثيرًا وكانت نيڤيا تقص عليّ قصصها وأقص أنا عليها قصصي فغلبني النعاس فنمت.

انقضت الليلة وقبل بزوغ الفجر أيقظنا سراج لنكمل مسيرنا.

استمرت رحلتنا لمدة ستة أيام وقد كان الطريق موحشًا ليلًا ونهارًا، قبل غروب شمس اليوم السادس كانت نيڤيا تتعجلنا لنسرع ونصل بالقرب من سور مملكة "موريكا" قبل مغيب الشمس لأن خطتنا أننا سندخلها فجرًا، ولو تأخرنا سيتوجب علينا أن ننتظر طيلة النهار وطيلة الليل لندخلها في فجر اليوم الثامن.

استطعنا الوصول بعد مغيب الشمس بقليل وظهرت لنا مملكة "موريكا" بسورها الشاهق وأضوائها الكثيفة اللامعة، وأصوات الأهازيج داخلها كانت مرتفعة وصاخبة جدًا، فنحن نسمعها من مكاننا هنا ونحن على بعد مسافة بعيدة نوعًا ما من المملكة.

نظرت لنيڤيا ولسراج فوجدتهما يقلبان النظر في أرجاء المكان وينظران للسور ولأبراج المراقبة أعلى السور فقلت لسراج متسائلًا: ما تلك الأصوات بالداخل؟

فتنهد وقال: ما إن ينتهي العمال بالداخل من عملهم حتى يذهبوا للتسكع مع الفتيات وشرب الخمور وكل هذا يحدث أمام أنظار ناتون وابنيه، فهم يريدون الناس هكذا، مخمورين وفاقدي عقولهم، فقراء، قذرين، لا يقدر أحدهم على استخدام عقله، حتى يتسنى لهم السيطرة عليهم وعلى عقولهم لينفذوا ما يطلبونه منهم.

ذهبنا خلف صخرة كبيرة وجلسنا أسفلها، أخبرتنا نيڤيا أننا لن نحفر مبيتنا تلك الليلة، وسننام جالسين هنا أسفل الصخرة حتى الفجر، لم أستطع النوم تلك الليلة، ما أن أغفو حتى أشعر بشيء وكأنه يخنقني فأستيقظ فزِعًا فتستيقظ نيڤيا على صوت فزعي فأجدها تنظر إليّ مندهشة وكأن لسان

حالها يقول لي ما سبب فزعي هذا، لكنها في كل مرة أستيقظ فيها مفزوعًا كانت تنظر إليّ بتعجب ولا تنبس ببنت شفة.

ظللت طوال الليل هكذا كلما غفوت أشعر بشيء يقترب مني ويريد خنقي، ومع تكرار الأمر بقيت مستيقظًا لئلا أزعج نيڤيا وسراج أو أن يدب الرعب في قلبيهما.

قبل بزوغ الفجر استيقظت نيڤيا فلما وجدتني مستيقظًا أحتضن حقيبة أبي سألتني إن كنت قد أخذت قسطًا كافيًا من النوم فأخبرتها مبتسمًا أنني قد نمت قسطًا مريحًا من الليل.

استيقظ سراج فذهب صوب حصانه فأخرج حقيبة جلدية من أحد جنبات الحصان وبها حبل متين فمد لي الحبل فأخذته دون أن يتحدث.

رغم تعجبي في بداية الأمر عن سبب إعطاء سراج لي الحبل ولكني لم أعترض، ربما سيطلب مني تنفيذ مهمة ما بواسطة الحبل.

نظر إلينا فقال: اصغيا إلي جيدًا واحفظا ما سأقوله لكما لنقوم بتنفيذ المهمة بلا أية أخطاء.

وتابع: بما أننا سندخل المملكة الآن فقد بدأت مهمتي، بصفتي كنت أعيش بها وأنا أعرفها جيدًا، سنذهب صوب البوابة الغربية لأن السور حولها ارتفاعه أعلى من باقي البوابات ونظرًا لارتفاعه فقد قلل ناتون الحراسة على هذه البوابة وهذا ما سيُسهل من مهمتنا ولو قليلًا.

نظر إليّ وإلى الحبل في يدي وأردف: سأذهب أنا صوب برج المراقبة وأراقب الحارس بالداخل، فغالبًا يكون الحارس مخمورًا وينام في بعض الأوقات، ستنتظر إشارتي، وعندما ألوّح لك بيدي ستبدأ في تسلق السور وتقوم بعقد الحبل في أحد الأسياخ الحديدية بالأعلى فتصعد نيڤيا خلفك بواسطة الحبل وتذهبان إلى القبو أسفل القصر وتقومان بتحرير أمك وأختك وأنا سأتبعكما وستكون مهمتي هي الذهاب إلى مخزن الأسلحة وأتحدث مع أبريس المسؤول عن حراسة المخزن وأقنعه بالانضمام إلينا.

قاطعته قائلًا: كل ما ذكرته جيد، ولكن؛ كيف سأتسلق أنا السور؟ ولماذا لا تتسلق نيڤيا السور فهي أمهر مني؟ ولماذا لا تتسلق أنت السور وأنت أعلمنا بالمملكة وسورها؟

أطبق سراج عينيه وهو يضغط أسنانه ببعضها من شدة الغضب فقاطعت نيڤيا نظرات سراج الغاضبة وقالت بهدوء: فارس، أنسيت أنك تملك قوى خارقة؟ لا أحد يستطيع تسلق ذلك السور الآن غيرك، القوى الخارقة التي تمتلكها تجعلك تتفوق علينا في بعض المهمات ومن ضمن تلك المهمات تسلقك للسور.

تنهدت وقلت بحنق: ولماذا لم تعلماني هذا قبل القدوم إلى هنا؟ لا أعلم الآن كيف سأنفذ تلك المهمة، انظرا للسور! إنه عالٍ جدًا وجدرانه متساوية وملساء! فكيف أستطيع تسلقها؟

رد سراج غاضبًا: يبدو أنك تمزح، أنت لا تقدّر قيمة القوى الخارقة التي تمتلكها، بإمكانك القفز إلى أعلى السور بقفزة واحدة، وبإمكانك أيضًا أن تصعد الجدار ويداك ملتصقتان به.

كانت نيڤيا تتابع حديثنا في صمت وهدوء فنظرت لسراج وهزت له رأسها برفق في إشارة منها بأن يهدأ، ثم نظرت إلي وقالت مبتسمة: فارس، نحن أخطأنا بالفعل لأننا لم ندربك على تسلق السور، ولكن لا وقت للندم الآن، لدينا الآن فرصة سانحة لتحرير أمك وأختك، أنا أعلم أن الأمر سيكون صعبًا عليك كونك تفعله لأول مرة، ولكن ثق بي، ستفعلها بسهولة، لا وقت لدينا الآن للنقاش ولا للجدال.

ران عليّ صمت قصير بعدما سمعت كلمات نيڤيا وأخذت شهيقًا كبيرًا ثم أخرجته فوجدتها تبتسم وقالت بصوت هادئ: ستفعلها، ثق بي.

لاحت على شفتيّ ابتسامة لطيفة وهززت لها رأسي وقلت: حسنًا، أنا أثق بكِ.

ابتسمت نيڤيا فقالت: انتبه لنفسك ولأختك جيدًا يا فارس، واحذر من أن يصيب كلاكما أي خدش أو ضربة سيف أو سهم، ولا تنسَ؛ أنتما تستطيعان

العيش والتنفس على كوكبنا هنا بواسطة دمائكم فقط، لو فقدتما بعضًا منها ستموتان.

ذهبنا صوب البوابة الغربية ووقفنا على بعد مسافة قريبة منها، ذهب سراج قرب برج المراقبة واختبأ خلف صخرة صغيرة ليراقب الحارس القابع داخل برج المراقبة أعلى السور وبقيت أنا أراقبه انتظارًا لإشارته.

بعد مدة قصيرة من الوقت وجدت سراجًا يلوّح لي بيده إشارة منه على بدء التسلق.

اقتربت من السور وأنا ممسك بالحبل فوضعته على كتفي وشرعت بالتسلق بواسطة يديّ فوجدت المهمة سهلة جدًا، كنت أتسلق السور وكأنني أزحف على الأرض، شعرت وكأن شيئًا بالجدار يلتصق بكامل جسمي ويمنعني من السقوط، التفتُ خلفي حيث "نيڤيا" فوجدتها تنظر إليّ مبتسمة وتشير إلي بأصبعها الإبهام دليلًا على مهارتي وكفاءتي، نظرت صوب سراج لأبرهن له على قوتي فوجدته ينظر إليّ ممتعضًا ويلوّح لي بيده أن أكمل الصعود، وكأن لسان حاله يقول، هيا أكمل الصعود أيها الأحمق، فليس الآن هو وقت التفاخر والغرور.

بعدما وصلت أعلى السور قمت بربط الحبل بأحد الأسياخ الحديدية وقذفته لنيڤيا وانتظرتها حتى صعدت، أمرتني أن أنزل أنا أولًا، لم يكن النزول صعبًا، فجدران السور من الداخل لم تكن متساوية، كانت بارزة وهذا ما جعلني أنزل أسرع من صعودي رغم أن الصعود لم أجد فيه عناءً ولم أبذل فيه جهدًا.

نزلت نيڤيا بواسطة الحبل وقامت بلف الحبل ببعضه وقذفته خارجًا ليتبعنا سراج.

ذهبت أنا ونيڤيا صوب القصر وقد كان قريبًا من البوابة، فلما دخلناه وجدناه وكأنه لا يسكنه أحد، لم يعترض طريقنا حارس ولا خادم وهذا ما أشعرنا بالدهشة، نزلنا إلى القبو فوجدنا حارسين نائمين على أحد الأبواب

فقمنا بخنقهما بسهولة وأخرجنا من ملابس أحدهما مفتاح القفل ففتحنا الباب ودخلنا.

حين دخلنا وجدنا أمي مقيدة بالسلاسل في يدها وقدميها وتجلس على الأرض، وقفت مكاني لا أتحرك، وكأن الزمن توقف بي في تلك اللحظة، كنت أنظر لأمي وأزدرد ريقي بصعوبة وصار قلبي ينبض بقوة حتى شعرت بأنه سيخرج من بين أضلعي، شعرت حينها برعشة تجتاحني، رعشة ملأت من أعلى رأسي وحتى أخمص قدمي، شعرت بسريان الدم في عروقي وكأنه كان متجمدًا من قبل، تذكرت حينها مقولة "الدم يَحِنّ"

فوالله، لو لم يخبرني أحد أن هذه أمي لعرفت أنها أمي بسبب خفقان قلبي حين رأيتها مقيدة بالسلاسل هكذا.

استطعت التغلب على ذهولي هذا فأسرعت إليها مهرولًا فقمت باحتضانها وهي تقبل كل بقعة في رأسي وشعرت بتسارع ضربات قلبها وهي تحتضنني وأمسكت يدها وقبلتها وقلت لها باكيًا: أنا هنا الآن يا أمي، لقد انتهت سنوات الأسر والحزن.

كان فم أمي يرتجف من شدة الفرح وهي تحاول النطق ببعض الكلمات التي توقفت على طرف لسانها وهي تنتظر توقف رجفة شفتيها لتتحرر، هدأت رجفة شفتيها قليلًا فقالت بصوت متقطع: أين أختك يا فارس؟

لاحت على شفتيّ ابتسامة كبيرة حين سمعت لأول مرة في حياتي صوت أمي فقلت لها مُبتسمًا: وتعرفين اسم فارس يا أمي؟

أجابت مبتسمة: كيف لا أعرفه وأنا من أمرت أباك أن يسميك بهذا الاسم عندما يعود بكما إلى الأرض.

نظرت أمي إلى نيقيا ثم نظرت صوب باب القبو وصارت تُقلب النظر في أرجاء الغرفة فأردفت متسائلة: قلت لك أين أختك يا فارس؟

_ لا تقلقي يا أمي، فربما يحبسونها في غرفة ما هنا، حسبتها أسيرة معك في نفس الغرفة.

ظهر القلق على وجه أمي فقالت بقلق: أخشى أن يكون قد حوّلها ناتون لطائر أبيس يا فارس

_ لن يفعل يا أمي، فهو سيُبقيها هنا لأرضخ لمطالبه، فهو يريدني أنا أو الكتاب.

هدأت أمي قليلًا ثم قالت: كنت أعلم أنك هنا يا فارس شعرت بوجودك داخل القصر.

صمتت أمي هنيهة ثم أضافت قائلة: علمت أنك هنا حين كنت تقذف لي الطعام في الصباح والمساء من تلك الفتحة، وأشارت بيدها لفتحة صغيرة بسقف غرفة القبو.

وتابعت مُبتسمة: ولكني كنت أود إخبارك في كل مرة تقذف لي فيها الطعام بأنني لا أحب البيض، ولكنك كنت تقذفه وتغادر سريعًا وكنت مصممًا أن تحضر لي البيض في كل وجبة.

نظرت إلى الفتحة أعلى سقف الغرفة فقلت لها متعجبًا: أنا لم أدخل المملكة سوى الآن!

قالت بذهول شديد: كيف هذا؟

وتابعت متسائلة: فمن كان يفعل ذلك إذًا؟ هل إيمان مُحررة داخل القصر وهي من كانت تفعل ذلك؟

زممت شفتيّ ورفعت حاجبيّ متعجبًا ولم أنبس ببنت شفة.

نظرت لنيقيا فوجدت علامات الدهشة تملأ وجهها، فعدت ونظرت للفتحة القابعة بسقف غرفة القبو وأنا أفكر في الأمر، فجأة تناهى إلى مسامعنا صوت خطوات قادمة إلينا بدت وكأنها خطوات لجيش يوشك أن ينقض على عدوه، لقد كان صوت الخطوات عاليًا جدًا وهو يقترب إلينا.

أسرعت أنا ونيقيا وقمنا بتحرير أمي من تلك السلاسل التي كانت مقيدة بها سريعًا، لقد أيقنّا أننا نوشك على الوقوع في مأزق كبير الآن.

فُتح الباب وكان أول من دخل هو سراج وكان حارسان يمسكان به فقاما بقذفه نحونا فوقع على الأرض فقمت بمساعدته على النهوض فهززت له رأسي مُستفسرًا فقال بصوت متحشرج: لقد كانوا في انتظارنا، لقد أوقعونا في فخ.

وهمس لي قائلًا: ولكنني استطعت مقابلة أبريس، سيجهز عربتين حربيتين قُرب بوابة القصر ومهمتنا الآن هي الخروج من تلك الغرفة.

لاحت على شفتيّ ابتسامة كبيرة فنظرت لنيڤيا فوجدتها تهز رأسها مبتسمة فقلت لسراج مبتسمًا: وأختي؟

أجاب: ربما سنجدها في غرفة ما هنا بالقصر.

فجأة دخل مجموعة من الحراس واصطفوا حولنا، دخل ثلاثة أشخاص بعد ذلك تدل هيئتهم وملابسهم على علو شأنهم فعرفت أنهم ناتون وابنيه رِع وموراس

كانت ملابسهم بالكامل من فراء الخِراف، ويلبسون الأساور الذهبية في أيديهم، والسلاسل الذهبية تملأ أعناقهم وصدورهم، لقد أرادوا الظهور في هيئة ملوك ولكنهم لا يعلمون أنهم بالذهب الذي يغطيهم هذا كله ظهروا في هيئة ثلاثة نساء.

وقفوا على بُعد مسافة قريبة منا فتقدم ناتون خطوة للأمام ونظر إليّ مبتسمًا وقال بحماس شديد: أوناسيو، لقد تأخرت كثيرًا، وانتظرناك طويلًا.

كان ناتون طويل القامة ونحيف الجسم ووجهه نحيفًا تبرز منه عظام خديه من شدة نحافته، وأسنانه متهالكة غير متساوية، فعرفت أن تلك المومياوات التي نراها بالمتاحف كانت صورة طبق الأصل لناتون هذا وأشباهه.

نظرت إليه بتعجب ثم قلت: ولِمَ تتعجل قدومي هكذا؟

أم أنك تتعجل موتك؟

نظر إلى ابنيه من خلفه فتمتم لهما ببعض الكلمات بلغتهم فضحكا بهستيرية وضحك هو بضحكهم فعرفت أنه قد ترجم لهما ما قلته، وعرفت أيضًا أن ابنيه لا يجيدان التحدث باللغة العربية.

أشار لابنيه بيده بأن يتوقفا عن الضحك فتوقفا عن الضحك وقال بجِدة: اسمع يا أوناسيو، أنا لم أفعل كل هذا لأقتلك أو لتقتلني، لا مجال لدينا لتصفية الحسابات القديمة، نحن نريد منك تحريك كوكبنا هذا صوب الأرض واحتلاله، فأنا أشفق عليك إن رفضت، لا أحتمل رؤيتك تعاني إن فقدت أمك أو أختك، كما عانت أمك من قبل بفقدان أبيك.

زفرت وقلت بنبرة غاضبة: لقد أقسمت منذ عرفت قصة أبي بأن أقطع عنقك انتقامًا لأبي، وأشرت بيدي لابنيه من خلفه ثم أردفت قائلًا بنفس النبرة: وإذا اعترضا هذان طريقي سألحقهما بك.

ظهر الغضب على وجهه وقال بحنق: لم أفعل كل هذا لأقطع عنقك أو تقطع عنقي، لقد فعلت كل هذا لأحتل الأرض ولننتقم لجدنا الأكبر الملك أوناس وقد اخترناك لتحمل اسمه وآماله وتنفذ وصيته.

اقترب بضع خطوات إليّ ثم أردف: ولكن يبدو أنك تمانع الأمر وارتبطت بكوكبك الذي ترعرعت فيه أكثر من ارتباطك بالكوكب الذي ولدت فيه وتحمل اسمه، ولذلك فأنا سأعقد معك صفقة أراها ستناسبك ولو وافقت سأترككم ترحلون الآن بسلام.

عقدت حاجبيّ وهززت رأسي مستفسرًا فأضاف: ستسلمني كتاب "سينيت" الذي تركه لك والدك.

غضنت حاجبيّ وقلت له متسائلًا: أليس الكتاب بحوزتك؟

_ الكتاب الذي بحوزتي هو الجزء الأول منه، ولا يفعل شيئًا الآن سوى فتح كهف "نجوسو" وإغلاقه وبعض التعاويذ الأخرى الصغيرة، لقد فقد قوته كثيرًا، وآخر شيء قمت بفعله بواسطته هو تحويل أختك لطائر أبيس وإرسالها لتشارك في لعبة عيد الاستقلال الخاص بمملكة "الغوائل" ثم أحرقته.

صاحت أمي قائلة وهي تخاطب ناتون: أنت رجل لعين، لو حدث لابنتي أي مكروه سأحرق الكوكب كله فوق رأسك.

استمرت أمي بالصياح وتهديد ناتون فتجعد وجهها وانكمش فجأة وفقدت وعيها وسقطت على الأرض مغشيًا عليها.

أسرعت إليها وحملت رأسها ووضعتها على كفي وقد انفطر قلبي واغرورقتا عينيّ بالدموع فقامت نيقيا بتهدئتي قائلة: لقد بكى قلبها حزنًا على إيمان ستكون بخير لا تقلق.

التفتُ نحو ناتون واشتطت غضبًا وصحت فيه قائلًا: أيها اللعين، كيف تفعل هذا بأختي، ترسلها إلى الموت من أجل كتاب لعين؟

لاحت على شفتيه ابتسامة ساخرة ظهرت على إثرها أسنانه المتهالكة فقال: أنا أعلم أنك لم تكن تعتقد بأني سأحولها لطائر، ولكني خالفت التوقعات واستخدمت ذكائي وأحرقت الكتاب، وأنا تعمدت فعل هذا، فإن أردت أختك فعليك بتسليمي الكتاب قبل بدء اللعبة وموتها.

_ أبي لم يترك لي أية كتب، ولم أعثر عليه أيضًا وسط أغراضه.

اشتاط ناتون غضبًا وأخرج خنجره من جنبه، ذُهلت حين رأيت الخنجر الذي يحمله، هو يشبه خنجر توت عنخ آمون، وهو نفس الخنجر الذي كان بحوزة الرجل الفرعوني الذي كنت أراه في حلمي، زفر ناتون وقال بغضب: لقد بدأت الآن في الكذب، وستضطرني لفعل أشياء لم أكن أنوي فعلها.

اقترب إليّ فوضع يده النحيفة التي تبرز منها العروق على رأسي وصار يداعب بها شعري فتابع قائلًا: لو لم تعلم أين الكتاب يا أوناسيو فربما ترك لك والدك أدلة لتدلك عليه، سأدعك تأخذ أمك ورفاقك وتعود لمملكة "الجواسيس" لتبحث عن الكتاب إن كان مفقودًا أو تحضره إليّ إن كان بحوزتك أو أن تكون قد تركته وديعة مع الملك محب، وأعدك بأن أول شيء سأفعله هو إرجاع أختك كما كانت.

اقترب سراج إليّ ووقف أمامي وهو ينظر إلى "ناتون" بغضب فقاطع ناتون نظراته الغاضبة تلك وقال بسخرية: المبارز البارز سراج!

أدخلناك قصرنا وأمناك على أطفالنا فخنت أمانتنا.

رد عليه سراج قائلًا: لا أمانة للخونة والقتلة.

وتابع سراج غاضبًا: اعلم؛ إن لم يقتلك فارس اليوم، فسأقتلك أنا يومًا ما.

نظرت لسراج فهمست إليه قائلًا: هل تصدق كلامه بأنه أحرق الكتاب؟

نظر إلى ناتون وابنيه من خلفه ثم عاد ونظر إليّ فأجاب هامسًا: لا أصدقه ولا أثق به، فكيف لكلب مثله أن يصدقنا القول؟

_ وماذا سنفعل الآن؟

_ أنا أنتظر إشارة أبريس لنبدأ الاشتباك ونتخلص منهم وتحضر أنت الكتاب من غرفة ناتون ثم تعود.

_ وما تلك الإشارة؟

_ ستعرف بعد قليل.

قاطع ناتون حديثنا قائلًا: هل انتهيتما من حديثكما السري؟

لاحت على وجهه ابتسامة خفيفة فأردف: والآن يا أوناسيو؟ هل رضيت باقتراحي؟

ران عليّ صمت طويل ولم أنبس ببنت شفة، فجأة اخترقت حربة باب القبو الخشبي لتقطع صمتنا، فتسلطت كل الأنظار إلى باب القبو فنظرت لسراج متعجبًا فوجدته ينظر إليّ مُبتسمًا فقال: احمِ أنت الملكة أسمايا وقم بحملها والذهاب بها نحو البوابة، ستجد عربة هناك قام أبريس بتجهيزها.

اقترب ثلاثة حراس نحو باب القبو بأمر من ناتون وفجأة خُلع الباب فظهر من خلفه رجل كان طويل القامة قوي البنيان ذا شعر أشقر وأملس وطويل يمتد إلى كتفيه وبلحية شقراء طويلة وكثيفة تكاد تُغطي كامل وجهه،

اتسعت حدقتا عينيّ ذهولًا فنظرت لسراج وأنا أعقد حاجبيّ متعجبًا فلاحت على شفتيه ابتسامة كبيرة فقال: إنه أبريس

اشتبك أبريس مع حراس ناتون وجنوده وانضم إليه سراج ونيفيا وحمي الوطيس واحتدم القتال فحملت أمي على كتفي الأيسر وصرت أدافع عن نفسي وعنها بالسيف بواسطة يدي اليمنى، كنت أسير بخطوات بطيئة جدًا في محاولة مني للخروج من القبو والذهاب صوب بوابة المملكة حيث العربة التي جهزها أبريس، رغم قوتي ورغم شجاعتي التي اكتشفتها في نفسي للتو إلا أنني وجدت صعوبة في اختراقهم، وكما يُقال " الكثرة تغلب الشجاعة" أحمل أمي على كتفي وأقاتل دفاعًا عنها فكيف لا أملك الشجاعة الآن؟

كان حراس ناتون كثيرين جدًا، رغم ضعف مهارتهم في القتال إلا أنهم كانوا عائقًا كبيرًا في طريق خروجي من غرفة القبو، توقفنا جميعًا عن القتال واصطففنا بجانب بعضنا وصرنا نلتقط أنفاسنا بصعوبة بالغة، لاحت على وجه ناتون وابنيه ابتسامة كبيرة بعدما توقفنا عن القتال والتف حولنا حراسه وجنوده وقال بسخرية: يبدو أنك لم تُحسن استخدام قواك الخارقة يا أوناسيو لماذا توقفت؟ هل فقدت الأمل بتلك السرعة، أم أن قواك لم تنفعك وخار عزمك؟

ران علينا صمت طويل وصرنا نزدرد ريقنا بصعوبة ويسيل مِنّا العرق على هيئة قطرات تسقط من جبيننا وتصل لأعيننا وتستمر بالسقوط فتصل لأذقاننا فتودع وجوهنا المنهكة وتسقط على الأرض، كنت أراقب قطرات العرق تلك وهي تسقط من سراج ونيفيا وقد بدا عليهما التعب الشديد إلا أبريس!

كان أبريس يقف بكل شجاعة وبسالة وهو مبتسم، كان ينظر إليّ فيبتسم ثم يعود فينظر إلى ناتون وما زال يبتسم.

لفتت انتباهي ابتساماته تلك فسألت سراج قائلًا: أهو هكذا دائمًا؟

نظر إليه سراج فوجده مبتسمًا فزّم شفتيه ورفع حاجبيه فأجاب قائلًا: لم أعهده هكذا، ربما تغيّر في تلك الأيام التي تركته فيها.

لاحظت التعب أصابنا جميعًا فاقتربت إلى نيڤيا فهمست إليها قائلًا: تسلّمي مني أمي وقومي بحمايتها، سأباشر أنا القتال منفردًا.

كانت نيڤيا تلتقط أنفاسها بصعوبة فازدردت ريقها وقالت برجاء: لا تفعل يا فارس لو أُصبت وفقدت بعض دمائك ستموت.

أجبتها مبتسمًا: ليس الموت ما أخشاه يا نيڤيا، إنما أخشى رضوخي لظالم، فحينها أكون قد أعنته وساعدته على مواصلة ظلمه، فما طيب العيش بعدها؟.

ظهرت ملامح الحزن على وجه نيڤيا فهزّت رأسها بهدوء وهممت أن أسلمها أمي فتفاجأنا بالسهام تمطر على ناتون وجنوده وتُسقط جنوده من حوله واحدًا تلو الآخر، فسقط منهم مَن سقط وانسحب منهم مَن انسحب، وبقيت قلة قليلة حول "ناتون" وابنيه يحتاطون بهم لحمايتهم.

ران صمت مهيب على الجميع ووقف الجميع مندهشين ومتسائلين عن مصدر تلك السهام وصاحبها!

فجأة مرّ أمام أعيننا فتىً أشقر الشعر ويلبس قناعًا أسود يُغطي به وجهه وتلمع عينيه الخضراوين من خلف قناعه ويتسلق حبلًا كان مربوطًا بسقف غرفة القبو ويضع في نهايته لوحًا خشبيًا يجلس عليه بمقعدته، صار يمر أمام أنظارنا جيئة وذهابًا متأرجحًا بالحبل وهو يواصل تصويب سهامه نحو "ناتون" وحراسه بكل ثبات ودقة وسط دهشة الجميع وتساؤلهم عن حقيقة هذا الفتى وما يقبع خلف قناعه.

في تلك اللحظة هرب ناتون ومن معه فارين، ربما ظن بأن جيشًا جاء لمساعدتنا.

أثناء تأرجحه بالحبل هبط أمامنا فاقترب إلي ووقف أمام وجهي وقال بنبرة متسرعة: فارس كيف حالك يا فارس؟

غضنت حاجبيّ ووقفت مذهولًا حائرًا ولم أنبس ببنت شفة.

قاطع صمتي المهيب وذهولي الشديد وقال بنفس نبرته المتسرعة: ألم تعرفني يا فارس؟

صرت أفكر في صوته وعينيه! ذلك الصوت سمعته من قبل! وتلك العينان رأيتهما من قبل!

ولكن صوته! صوته يتردد صداه في أذني بقوة، أنا أعرف أنني سمعت ذلك الصوت من قبل! ولكن أين ومتى؟.

قاطع صمتي وتفكيري الطويل وقام بنزع قناعه الذي يغطي به وجهه فذُهلت حين وجدته مراد ابن السيدة إبتسام جارتنا.

لاحت على وجهي ابتسامة كبيرة وقلت له بسعادة: مراد أنت من كنت تقذف الطعام لأمي؟

فأجابني بهز رأسه وهو يبتسم.

مراد هو ابن السيدة إبتسام جارتنا، كان في صغره طفلًا ثقيل الدم يكرهني وأختي وكان يضايقنا كثيرًا ويُعيّرنا دائمًا بمنزلنا الصغير المتواضع، وكان دائمًا يصعد أعلى سطح منزلهم ويقوم بإلقاء حبات الطماطم الفاسدة عليّ وعلى إيمان عبر نافذة غرفتنا، ولكنه حين التحق بالجامعة تغيّر طباعه كثيرًا فصار هادئًا رزينًا وتوقف عن مضايقتنا، لم يكن يُحدثنا، ولا يُلقي حتى السلام علينا، لكنه لم يعد يضايقنا وتوقف عن نعتي وأختي بالمنبوذين.

سألته بفضول: كيف تعلمت تلك المهارة يا مراد

نظر مراد إلى أبريس فأجاب مبتسمًا: وثبة الأسد هو من علمني هذا كله.

نظرت إلى أبريس فوجدته يبتسم ويهز رأسه فقلت له مبتسمًا: لقد عرفت الآن لماذا كنت تبتسم طوال الوقت.

عدت فنظرت لمراد وسألته بفضول شديد: كيف استطعت الهرب منهم عندما دخلت الكوكب، هل استطعت تحرير نفسك من الخيوط البيضاء التي كانت تلتف حولك مثلما فعلت أنا؟

أجاب: تلك الخيوط لا تلتف إلا حول من يمتلك الدم النبيل فقط، سأخبرك عندما نخرج من هنا كيف استطعت الهرب منهم، علينا بالخروج الآن قبل أن يعود ناتون ومعه الدعم.

خاطبت الجميع قائلًا: اخرجوا أنتم الآن من القصر ورافقوا أمي وانتظروني عند البوابة حتى أعود، سأذهب لأبحث عن إيمان والكتاب ثم ألتحق بكم.

تنهد مراد وقال بحزن شديد: لن تجد في القصر هنا لا أختك ولا الكتاب يا فارس

عقدت حاجبي متعجبًا فتابع قائلًا: عندما دخلت أختك هنا ارتج القصر وعلت أصوات الحراس بهجة وسرورًا وجاءوا مسرعين ليخبروا ناتون بأن أحد البشريين دلف الكوكب وهو مُغطى بخيوط الكتان، فقد أخبرهم ناتون طوال السنوات الماضية بأن من سيأتيه بتلك البشارة فله جائزة عظيمة.

كان الجميع هنا يظن أن من دلف لغرفة الاستقبال هو أنت، تجمّع الكثيرون حول أختك وكانوا يخشون حتى لمسها خوفًا من أن تصاب بأي أذى، كانوا ينتظرون قدوم ناتون"

ليقوم هو بنفسه بإزالة الخيوط البيضاء عن أختك.

دلف ناتون لغرفة الاستقبال ودُهش الجميع حين رأوه يسير بخطىً بطيئة غير مُكترث بما يحدث فأمر الحراس بحمل أختك وإدخالها للقصر، كان يعرف أن أختك هي من تقبع خلف تلك الخيوط ولست أنت.

قاطعت مراد متسائلًا: كيف عرف أنها أختي؟

صمت مراد هنيهة ثم أجاب قائلًا: عندما تعالت أصوات الحراس بأن أوناسيو دلف لغرفة الاستقبال وهو مُغطى بالخيوط ذهب ناتون ليطمئن

على الكتاب فوجده كما هو لم يتغير فيه شيء، فعرف أن من دخل للتو هي أختك ولست أنت.

نظرت إلى مراد بتعجب شديد ثم أردف: عندما دخلت أنت الكوكب قام الكتاب بإحراق نفسه، فالكتاب الذي بحوزة ناتون ينتهي بقدومك، وكان ناتون يعلم هذا، عندما دخلت الكوكب قام الكتاب بإحراق نفسه تلقائيًا، وكأنه يخشاك، وكأنه أيقن أن ثمة قوى أعظم منه على الكوكب فاحترق من تلقاء نفسه.

حملت أمي وخرجنا من غرفة القبو وذهبنا صوب البوابة، كان ناتون واقفًا على بُعد مسافة قريبة منّا وهو يحث الحراس على مهاجمتنا ولكن الحراس لا يأبهون لكلامه وأوامره، كان بعض الحراس يرتجفون خوفًا من أن يعاقبهم ناتون بقتلهم بعد مغادرتنا فتقدمت قلة قليلة من الحراس قاصدين مهاجمتنا ولكن سراج ونيقيا وأبريس تولوا أمرهم وقاموا بردعهم، فقتلوا منهم من قُتل وفر البقية هاربين.

كانت عربتان واقفتان بجوار البوابة قام أبريس بتجهيزهما بحصانين ضخمين فوضعت أمي في إحداهما واقتربت من ناتون وأنا أمسك بسيفي ونظرت إليه بغضب وأشرت إليه بسيفي قائلًا: أنت رأس الفساد على هذا الكوكب، سأقطع رأسك اللعين هذا وأقدمه طعامًا للطيور.

حاول سراج إيقافي خوفًا منه على حياتي، فهو يعرف أن كل نقطة دماء أفقدها سيصعب تعويضها هنا على كوكبهم، لم أكترث لحديث سراج معي وانطلقت كالسهم صوب ناتون ففرّ الحراس الذين كانوا يحمونه ولم يتبقَ بجانبه سوى ابنيه "رع" و "موراس"، اعترضني ابنه رع فضربت ساقه ضربة قوية بسيفي أسقطته أرضًا فصار يئن من شدة الألم، فرَ موراس تاركًا أباه يواجه خطر الموت الوشيك وحيدًا، ضربت عنق ناتون ضربة واحدة قوية تطاير على إثرها رأسه بعيدًا فسقط أسفل قدميّ ابنه "موراس" الذي فغر فاه واتسعت حدقتا عينيه ذهولًا وكأنه لا يصدق ما يحدث أمامه وقد التصقت الدماء التي سالت من رأس أبيه بأديم قدميه.

وقفت أصيح مُحدثًا شعب "موريكا" قائلًا: لقد أصبحتم أحرارًا منذ الآن، فمن أراد منكم الانضمام إلينا قبلناه، ومن أراد الخروج باحثًا عن رزقه في أي بقعة على الكوكب تركناه، لا سلطان عليكم لأحد بعد اليوم.

ران على الجميع صمت مهيب، كان الجميع يحدقون إليّ غير مكترثين، لم يقترب إليّ أحد، ولم ينطق أحد بكلمة، توقعت أن يهرول الجميع نحو البوابة ليخرجوا، ولكن ما رأيته خالف توقعاتي، أصبت حينها بخيبة أمل كبيرة، لقد سلب ناتون عقولهم، أشبعهم من لحوم الحمير حتى اعتادوا العبودية.

وقفت مذهولًا أضرب كفًا بكف وقد اغرورقتا عينيّ بالدموع على حالهم وما آلَ إليه مصيرهم.

اقتربت إليّ نيڤيا وقالت بحزن شديد: علينا العودة لمملكة "الجواسيس" الآن يا فارس تحتاج أمك لرعاية طبية عاجلة، والوقت يداهمنا، ونريد إنقاذ إيمان قبل فوات الأوان وبدء اللعبة.

انطلقنا بالعربتين نحو مملكة "الجواسيس"، كنت أجلس بجوار أمي في العربة وأضع رأسها على رُكبتيّ ويجلس بجواري مراد، كنت أمعن النظر في وجه أمي وأقوم بمسح وجهها المجعد من تأثير الحزن بيدي، أخبرتني نيڤيا من قبل أن طبيعة أجساد الناس هنا مختلفة عنّا في الأرض، فنحن البشريين إن أحزننا أمر وآلمنا بشدة نذرف الدموع وكأن ما يحزننا ويؤلمنا يخرج على هيئة قطرات من أعيننا لتخفف عنّا، وكأن الحزن يتحرر من أعيننا، أما هنا فإنهم ليسوا لديهم غدد دمعية مثلنا، فتجدهم يحزنون ويتألمون وتبكي قلوبهم بشدة، فلا تشعر بهم ولا بضجيج قلوبهم إلا حين تتجعد وجوههم وتنكمش ويفقدون وعيهم لساعات طويلة، حينها يكون الجُرح في قلوبهم كبير جدًا، فلا يستطيعون كتمان جُرحهم هذا فيفقدون الوعي.

كان سراج يقود العربة الخاصة بنا، والعربة الأخرى يقودها أبريس وتجلس نيڤيا في المقعد الخلفي بالعربة التي يقودها أبريس.

يقود سراج العربة بسرعة جنونية وهو يقلب النظر في الأرجاء هنا خوفًا من أن يكون ناتون قبل مقتله قد أمر حكام بعض القلاع القريبة من الطريق الرئيسي بمهاجمتنا إن استطعنا الهرب منه.

نظر إليّ سراج وهو يمسك بلجام الحصان الذي يجري بالعربة وصاح قائلًا: سنواصل السير ما تبقى من يومنا هذا ولن نتوقف بالليل كعادتنا، تحتاج الملكة "أسمايا" للرعاية الطبية العاجلة، وأيضًا علينا الذهاب إلى مملكة "الغوائل" لننقذ أختك.

صحت محدثًا سراجًا وقلت بصوتٍ عالٍ: متى ستستيقظ أمي يا سراج

أجاب صائحًا: ربما بعد مغيب الشمس، وربما في منتصف الليل، وربما غدًا.

وتابع صائحًا: كلما كان الجُرح كبيرًا يا صديقي كلما طال السُبات.

نظرت إلى مراد نظرات ثاقبة فسألته: كيف استطعت الهرب منهم يا مراد

تنهد فأجاب قائلًا: في اليوم الذي لم تذهب فيه أنت إلى عملك بالجبل كنت عائدًا من الجامعة فقابلني أصدقائي وأخبروني أنهم ذاهبون لكهف نجوسو وطلبوا مني الذهاب معهم، قالوا لي أن المسؤول عن أفراد الأمن بالجبل تغيّب عن عمله اليوم فهم يعلمون أنك تسكن في البيت المقابل لبيتنا ودائمًا كنت أتحجج بك عندما يطلبون مني الذهاب معهم، فوافقت على الذهاب معهم مطمئنًا لأنك لن تراني بجانب الكهف ولن تخبر السيد سليمان بما فعلت فيخبر هو والدي لو رآه بالمسجد، وقفنا أمام باب الكهف نراقب غياهبه ووحشته وصرنا نلتقط الصور بجواره، قبل مغادرتنا احتاط بي أصدقائي وسط دهشتي الشديدة فقاموا بخلع حذائي رغمًا عني وألقوه داخل الكهف وسط ضحكاتهم الساخرة والمستفزة، لا أعلم لِمَ فعلوا ذلك، ولكنني عرفت أنهم كانوا قد خططوا لهذا الأمر قبل لقائهم بي، تعالت ضحكاتهم وقال لي أحدهم: هل ستعود للبيت دون حذائك يا مراد؟ وتابع بسخرية: نحن نعلم أنك ستعود دونه، فنحن نعلم أنك جبان ولن تستطيع الدخول لتحضر حذائك.

استفزتني ضحكاتهم فأردت أن أبرهن لهم أنني لا أخشى "نجوسو" فاقتربت للكهف بتردد وخوف شديدين وأغلقت عينيّ قبل دخوله حتى لا أرى شيئًا يخيفني بالداخل، فلما دخلت وجدت نفسي أسقط لأسفل بسرعة شديدة وكأنني سقطت في بئر شديد الظلام، كانت تلتف حولي دوامة ضبابية وقد كانت تمنع عني شدة الهواء الذي شعرت به يلامس أطرافي، وبعدما دلفت هنا كنت أطير في الهواء كطائرة يقودها شخص ما وسط دهشتي الشديدة وتساؤلاتي الكثيرة، وصرت أردد في نفسي قائلًا كيف تحوّل النهار حين دخلت الكهف وصار هنا ليلًا؟ ما تلك الصحراء وتلك الأرض التي بدت لي وكأنها أرض عفراء؟، هبطت داخل غرفة مظلمة لا يضيئها سوى بعض النجوم، كان يجلس على باب الغرفة حارسان وكانا غارقين في النوم، فهما اعتادا دومًا بأن من يدخل غرفة الاستقبال القادمة من كوكبنا يدخلها نهارًا، لم يتوقع الحارسان قدومي في ذلك الوقت ولذلك غرقا في النوم باطمئنان.

استطعت الهرب بسهولة من الحارسين اللذين كانا غارقين في النوم واختبأت داخل القصر حتى الصباح بعدما قمت بتغيير ملابسي ولبست ملابس تُشبه ملابسهم لئلا يفطن لي أحد، في الصباح خرجت من القصر دون أن يراني أحد وصرت أتجول في الأرجاء حول القصر بحثًا عن شيء آكله، فقد كنت جائعًا جدًا، لكن المال وقف لي بالمرصاد، فكيف سأشتري الطعام ولا أملك أموالًا هنا؟ كان الجميع هنا يتحدثون بلغة غريبة لم أفهم كنهها، فخشيت الذهاب إلى البائع لأحدثه فينكشف أمري، وقفت أمام بائع الخبز ويسيل لُعابي لا أقدر على الصمود من شدة الجوع، فجأة وجدت يدًا تربت على كتفي فلما استدرت وجدته أبريس فحدثني بلغته فلم أفهم كلامه ولم أستطع الرد عليه حتى لا يفطن لي ويعرف أنني غريب عنهم، اتسعت حدقتا عيني أبريس ذهولًا حين رأى الساعة الرقمية التي كنت أرتديها في معصم يدي فاصطحبني إلى داخل مخزن الأسلحة وأخبرته بحقيقتي وكيف دخلت الكوكب هنا، فطلب مني إخفاء حقيقتي ودخول القصر للتجسس على "ناتون" وما يفعله، وطلب مني تزويد الملكة أسمايا بالطعام صباحًا ومساءً دون علمها.

لاحت على وجهي ابتسامة خفيفة فقلت لمراد متسائلًا: هل عرفت لماذا لم ينتبه لك أحد عند دخولك هنا؟

هز رأسه وأجاب مبتسمًا: لأنني أمتلك عينين خضراوين وشعرًا أشقر مثل الجميع هنا.

بادلته الابتسامات فعدت لأنظر في وجه أمي، ما زالت التجاعيد تملأ وجهها ولا تحرك ساكنًا، حدثتها بصوت واهن حزين: ليس قلبك وحده من يبكي يا أمي، قلبي أيضًا يبكي على إيمان وعلى حالها، فلا أعلم كيف هي الآن، هل تأكل؟ هل تشرب؟ هل تستطيع النوم مثلنا أم تنام واقفة على غصن شجرة أو داخل كهف مظلم.

واصلتا العربتان السير بأقصى سرعتهما وقد جنّ الليل وغطى الظلام الأرجاء كلها ولم يتبقَّ لنا إلا ضوء النجوم ليساعدنا في مواصلة السير.

وصلنا في الصباح إلى مملكة "الجواسيس" وكان في استقبالنا حشود غفيرة من الناس فلما دلفنا بالعربتين للداخل تعالت أصوات الناس مُهللين ومُرحبين بعودتنا، عندما رأى الملك محب حالة أمي وهي فاقدة الوعي ورأسها مُلقى على ركبتيّ أشار بيده بأن يتوقف الناس عن التهليل والهتاف فتوقفوا.

توقفت العربة، أمام قصر الملك محب، أسرعت نيڤيا إلى أبيها وقالت بصوت متسرع: أبتِ، لقد تجعد وجه الملكة أسمايا وفقدت وعيها حُزنًا على إيمان

غضن الملك محب حاجبيه فتابعت نيڤيا قائلة: لقد حوّلوا إيمان لطائر أبيس وأرسلوها لمملكة "الغوائل" لتشارك في "لعبة البقاء".

أمر الملك محب حراسه استدعاء كل أطباء المملكة للقصر، حملت أمي ودلفت بها داخل القصر وقلبي يختلج حزنًا على حالها وحال إيمان ومصيرها المجهول.

مكث الأطباء عند أمي مدة طويلة محاولين إيقاظها وصاروا يضعون داخل فمها بعض الأعشاب والأدوية لتستيقظ من سباتها وبقيت معهم أراقبهم وأراقب حالة أمي.

كانت أمي تحرك شفتيها وتهذي بكلام غير مفهوم فطلب منّا الأطباء الخروج من الغرفة وأخبرونا بأنها ستستيقظ بعد قليل، هدأ قلقي وسكن قلبي قليلًا فخرجت من الغرفة فوجدت الملك محب وسراج وأبريس ومراد واقفون بالخارج في حزن وقلق، وتقف نيڤيا على مقربة منهم.

وقفت أمام الملك محب فقلت له: وماذا سنفعل الآن؟

زمّ شفتيه فأجاب: بعدما أخبرتني نيڤيا بما حدث لا أجد لك حلًا سوى أن تبحث عن الكتاب الذي أخفاه والدك هنا على الكوكب وتذهب به إلى أختك في مملكة "الغوائل" لتعيدها وتحررها.

قلت له بحنق: أين أبحث؟ هذا أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قَش، هل من السهل البحث عن كتاب في كوكب كامل؟

رفع الملك محب حاجبيه وزمّ شفتيه فهز كتفه فقال: هذا هو الحل الأمثل، إن أردت أختك فعليك أن تجد الكتاب أولًا، لم يتبقَ على موعد اللعبة سوى عشرة أيام، الوقت ليس في صالحنا.

جلست على مصطبة حجرية كانت بجوار الغرفة التي تقبع أمي داخلها فوضعت رأسي بين كفيّ يائسًا، تعالت الأصوات بداخل الغرفة بأن أمي قد استيقظت، دلفت لداخل الغرفة مسرعًا فلما رأيتها أمسكت يدها وقد زال عن وجهها تجاعيده وكأن الحياة قد عادت إليه فسقطت من محجر عينيّ قطرات الدمع فقالت بصوت خافت: لقد ضحى والدك بنفسه حتى تعيش أنت وأختك بعيدًا عن هنا يا فارس لقد ذهب بنفسه إلى "ناتون" وكان يعلم أنه سيقتله إن لم يسلمه الكتاب أو يسلمك أنت له، لكن؛ ربما حدثت أمور بالأرض كانت عكس توقعه، لقد أخبرني قبل خروجه من هنا أنه سيطلب من السيد سليمان تهريبكما بعيدًا عن الجبل والكهف لتعيشا في سلام بعيدًا عن أنظار السيد ناصر فقد كان والدك يعلم أنه سيفعل أي شيء وسيعرض

حياتكما للخطر في سبيل شهرة وكاله الفضاء الخاصة به، أخبرني والدك أيضًا أنه لن يخبر أحدًا أيًا كان بمكان الكتاب، ولكنه أخبرني بأنه سيترك لك دليلًا مع السيد سليمان سيساعدك، كان يعلم أن القلوب ربما تتغير يومًا، كان ينظر باستمرار في عين السيد سليمان ويردد في نفسه قائلًا: لو احتاج فارس إلى دليلي الذي تركته لك، فحينها ستكون أنت الخائن.

صمتت أمي هنيهة ثم تابعت قائلة: كان قلبي يتقطع عند فراقكما وعودتكما إلى الأرض، ولكني ضحيت بنفسي وحرمت نفسي من الأمومة لتعيشا في سلام بعيدًا عن "ناتون" وكذلك فعل والدك يا فارس فاحذُ حذوه ولا ترضخ لظالم ولو كلفك ذلك حياتك، فلا قيمة لحياتك إن أعنت ظالمًا، إن أعنت ظالمًا فأنت شريكه في ظلمه.

ران على أمي صمت خفيف فأردفت قائلة: اذهب إلى جبال "الأخاضر" القريبة من هنا، ستجد بأحد جبالها الحكيم أتوم سيساعدك في البحث عن الكتاب وفك رموزه وتعاويذه لتستعيد أختك.

غضنت حاجبي وقلت متسائلًا: وكيف سأعرف الحكيم أتوم هذا؟

_ ستجده يضع خارج الكهف الذي يقطن فيه نبات "الشيح" بكثرة ليبعد الثعابين من الدخول إليه، كذلك كنّا نفعل عندما كنت أعيش معهم في جبال "الأخاضر"

نظرت أمي إليّ نظرة ثاقبة وقالت بحزم: لا تتهاون يا فارس إن وجدت الكتاب فاذهب به إلى الحكيم "أتوم" ليساعدك في فك التعويذة الخاصة بأختك، واخرجوا من المملكة خِفية، بعيدًا عن أنظار جواسيس "موريكا" وإن وجدت الكتاب وقام الحكيم أتوم بفك التعويذة التي ستعيد أختك لسابقها اذهب بعدها صوب مملكة "الغوائل" وكن حذرًا أثناء عبورك لجبال "المنيف" فإن بها وحوشًا قاتلة، وهي أيضًا تطمع في الكتاب لتتحرر من أسرها كما يطمع فيه ناتون وابناه.

خرجت من غرفة أمي وأخبرت الجميع بأننا سنخرج من المملكة في منتصف الليل صوب جبال "الأخاضر" بحثًا عن الحكيم أتوم وأخبرتهم بأن من سيرافقونني هم سراج وأبريس ومراد

كانت نيڤيا واقفة تنظر إليّ بشغف، وتنتظرني لأنطق اسمها ضمن المرافقين، نظرت إليها فابتسمت وقلت: ستبقين أنتِ هنا يا نيڤيا، مهمتنا تلك المرة ستكون شاقة وصعبة.

اقتربت إليّ وعلامات الحزن تملأ وجهها فقالت بحزن شديد: أبعد كل ما فعلته يا فارس تمنعني من الخروج معك؟

وتابعت بنبرة حزينة: لقد تعلمت لغتكم، وتخليت عن طفولتي البريئة وكنت مختلفة عن كل الأطفال هنا وكنت ألعب بالسيوف والسهام والدروع أنتظر قدومك، هل كل ما تعلمته هذا يا فارس سيذهب هباءً؟

أطلقت تنهيدة كبيرة فقلت لها: أنا لا أمنعك من مرافقتنا يا نيڤيا إلا خوفًا عليكِ ورأفة بك.

قالت بصوت واهن: إن كنت تخشى عليّ حقًا فدعني أرافقكم في مهمتكم تلك، لو بقيت هنا سأموت حزنًا.

نظرت إلى الملك محب فوجدته يهز لي رأسه مبتسمًا فقلت لها: تجهزي إذًا، سنغادر في منتصف الليل.

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه نيڤيا فقالت بسعادة: سنجد الكتاب وسنعيد أختك كما كانت يا فارس أنا أثق بهذا.

تجمعنا في منتصف الليل وقد تجهز كل شخص للخروج وحملت الحقيبة التي ورثتها من أبي خلف ظهري، يمكنني حملها الآن بعدما عرف حقيقتي الجميع.

امتطى كل شخص حصانه وخرجنا من المملكة مسرعين نحو جبال "الأخاضر".

على ضوء النجوم الكبيرة اللامعة، كانت نيڤيا تسرع بحصانها بجانبي ويتطاير شعرها الأشقر وتلمع عيناها الخضراوان كنجمتين تنيران لنا دربنا والسعادة تملأ وجهها فنظرت إليها فقلت محدثًا نفسي بتعجب: يا لتلك الفتاة غريبة الأطوار، تطير فرحًا لأنها ستذهب لمهمة شاقة وصعبة معنا، إنها ليست ككل الفتيات في عمرها، هي مختلفة عنهن، تجد سعادتها في دفاعها عن الحق ومحاربة الظلم وتضحي بنفسها وبأنوثتها من أجل ذلك.

تنهدت وتابعت محدثًا نفسي: كم وددت أن ألتقيك في ظروف غير تلك الظروف يا نيڤيا أعلم أني أحبك، وربما أنتِ تحبينني أيضًا، ولكن الظروف التي أعيشها هنا تمنعني من الاعتراف لك بذلك.

****

ألقت الشمس أشعتها الفاتنة والدافئة على أجسادنا التي أنهكها صقيع الليل فأعادت لأجسادنا الحياة والحيوية والنشاط، ما زلنا نسرع بالأحصنة بلا توقف، وصلنا إلى جبال "الأخاضر" قبل الظهيرة، كانت جبال "الأخاضر" عبارة عن مجموعة جبال ما بين صغيرة ومتوسطة الارتفاع وكبيرة، وكانت مليئة بمئات الكهوف، كنا نتفقد الكهوف كهفًا تلو الكهف بحثًا عن نبات "الشيح" خارجها، وصلنا بالأخير إلى كهف وقد امتلأ مدخله بنبات "الشيح" فوقفنا أمامه وأمرت نيڤيا بالبقاء خارجًا مع أبريس ومراد لمراقبة المكان من الخارج ودلفت أنا وسراج داخل الكهف.

كنا نسير داخل الكهف بخطوات بطيئة وهادئة، سرق نظرنا شُعلة نار كانت مضيئة في إحدى الغرف الصغيرة فاقتربنا إليها فأخرج سراج سيفه من غمده متأهبًا للقتال، أمرني بأن أخرج سيفي أيضًا ولكنني أخبرته أنني سأخرجه إن لزم الأمر، دخلنا للغرفة الصغيرة التي تُنيرها شعلة النار فوجدنا فراشًا على الأرض وبعض الطعام والماء وبعض الملابس كانت معلقة في أحد جدران الغرفة، ما لفت انتباهي وأثار دهشتي هو أن جلبابًا صعيديًا كان معلقًا على الجدار وسط الملابس الجلدية، رفع سراج سيفه لأعلى وصاح بنبرة حادة قائلًا: هل من أحد هنا؟

فلم يرد علينا أحد.

تابع بنفس نبرته الحادة: إن لم تخرج سنسرق ملابسك الغريبة تلك ونرحل.

فجأة وجدنا قطعة خشبية كبيرة ارتطمت في صدر سراج فجثا على ركبتيه وهو يضع كلتا يديه على صدره وصار يئن من شدة الألم.

أسرعت إليه فسألته بصوت متسرع: هل أنت بخير يا سراج؟

أجاب متألمًا: إنها ضربة قوية جدًا، لقد آلمتني بشدة.

وقف سراج وأخذ ينظر في كل بقعة بالغرفة، اتسعت حدقتا عينيه ذهولًا وقال بصوت هامس: أيها اللعين، لقد ملأ الغرفة بالفخوخ.

فجاءته ضربة أخرى من حيث لا ندري ولكن تلك المرة ارتطمت ببطنه.

جثا مرة أخرى على ركبتيه وهو يمسك بطنه ويئن من شدة الألم فنظر إليّ وصاح بصوت متألم وتساءل: لماذا لم تصاب أنت بأية ضربة مثلي؟

فسمعنا فجأة صوت بداخل الغرفة يرد عليه قائلًا: لأنك أخطأت مرتين، الأولى عندما دخلت متوشحًا بسيفك وهددتني بسرقة ملابسي، والثانية وصفتني باللعين، وإن قمت بسرقة ملابسي كما قلت فسينطلق نحوك ثالث ولكنه سيقتلك تلك المرة.

وقفنا مندهشين وتتجول أعيننا في كل ركن بالغرفة بحثًا عن صاحب الصوت وعن مكانه، خرج رجل عجوز من مخبأ سري تُغطيه قطعة جلد كبيرة كانت معلقة عليه ولم ننتبه لها لأنها كانت بنفس لون الجدار.

كان الرجل يلبس جلبابًا صعيديًا ويضع على رأسه عِمة بيضاء كالتي يلبسها أهل الصعيد بمصر، كانت لحيته طويلة وبيضاء كلون الحليب، كان وجهه يغلب عليه الهدوء والسكينة والحكمة.

اقترب إلينا فقال بصوت هادئ موجهًا كلامه إلى سراج: لا تظن أن القوة تكمن في أسلحتك الحديدية وقوة جسدك، القوة تكمن هنا وأشار بأصبعه نحو رأسه، وهنا أيضًا، وأشار هذه المرة نحو قلبه.

وتابع قائلًا: إن استخدمت قوة عقلك وقوة قلبك فقد امتلكت أعظم الأسلحة، أما قوة الجسد فالبهائم تمتلكها.

قاطعت حديثه متسائلًا: هل أنت الحكيم أتوم؟

كان ينظر للحقيبة خلف ظهري بتعجب شديد، ران عليه صمت خفيف فأجاب: سأخبرك عندما تخبرني من أين حصلت على تلك الحقيبة؟.

أجبته قائلًا: هي ملكي، لقد ورثتها من أبي.

اقترب إليّ وأمعن النظر في عينيّ بواسطة عينيه الخضراوين الرائقتين وإلى شعري الأسود فاتسعت حدقتا عينيه ذهولًا فقال بصوت فَرِح: نعم، أنت تُشبهه كثيرًا، وكأن والدك هو من يقف أمامي الآن.

وتابع بصوت هادئ: نعم يا بني، أنا الحكيم أتوم ولكن؛ ما الذي أدخلك الكوكب هنا؟ لقد أخبرني والدك قبل أن يسلّم نفسه لناتون بأنه أمر صديقه السيد سليمان بإبعادك عن القرية والجبل والكهف.

_ وهل التقيت بأبي قبل أن يُسلّم نفسه؟

_ لقد التقيت به عندما دلف الكوكب هنا بعدما قام بتهريبك أنت وأختك، فأشار إلى الجلباب الذي يلبسه فتابع قائلًا: أهداني حينها هذا الجلباب فعاد وأشار إلى الجلباب المعلق على جدار الكهف وأكمل: وهذا أيضًا.

دخلت نيڤيا في تلك اللحظة ويتبعها أبريس ومراد فأوجس منهم الحكيم أتوم خيفة حين رآهم فطمأنته قائلًا: لا تقلق، إنهم رفقائي.

لاحت على شفتيه ابتسامة هادئة وسألني بفضول: لم تخبرني بعد، هل خان السيد سليمان صداقته بوالدك؟

_ وكيف عرفت بخيانته؟

_ لقد أخبرني والدك أنك لو دلفت للكوكب هنا فسيكون ذلك بسبب خيانة من قِبَل السيد سليمان فلقد كان مستودع أسراره، أخبرني والدك أنك لن تستطيع الدخول هنا إلا بواسطته.

طأطأت رأسي وقلت بصوت حزين: لقد حدث ما توقعه أبي، لم يبعدنا السيد سليمان عن القرية، أخبرنا أن وصية أبي له بأن لا نغادر قريتنا، كان يتظاهر بخوفه علينا وقام بمنع إيمان من زيارة الجبل طوال عمرها، أما أنا فساعدني لأعمل في تأمين الجبل والكهف وتعمد أن يجعلني قريبًا منه.

التفت الحكيم أتوم إلى نيڤيا وأبريس ومراد فقال معاتبًا نفسه: أعتذر على عدم ترحيبي بكم، لقد شغلني الحديث مع أوناسيو فعاد والتفت إليّ وهو يعقد حاجبيه وتابع: أم أنك تحب مناداتك بفارس

ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة وقلت: كما تحب، لقد أحببت الاسمين أوناسيو تحبه أمي وفارس يحبه أبي، لا ضير إن قلت هذا أو ذاك.

قام الحكيم أتوم بالترحيب بنا وأجلسنا وأعد لنا مشروب الزعفران وقد كانت تملأ رائحته العطرة والجميلة كل أرجاء الغرفة.

كان سراج يجلس وحيدًا في إحدى زوايا الغرفة ولا يزال يمسك ببطنه وهو يراقب الحكيم بنظرات خوف، كنت أنظر إليه وأكتم الضحك داخلي، أهذا هو سراج الذي أعرفه؟ لقد بدا لي اليوم ضعيفًا عكس ما أعرفه عن سراج القوي المشاكس الذي لا يخشى أحدًا.

نظر إليه الحكيم أتوم نظرة شفقة فقال له متسائلًا: هل ما زالت بطنك تؤلمك؟

هز سراج رأسه فذهب الحكيم أتوم ودخل إلى المخبأ السري الخاص به داخل الغرفة وعاد بعد لحظات حاملًا قارورة صغيرة وبها سائل لزج فقذفها إليه وقال بنبرة حازمة: استخدم هذا، سيخفف عنك الألم قليلًا، وبعد ذلك لا تظن أن استخدامك لأسلوب الصرامة والتهديد سيفي بالغرض مع كل الناس، بعض الناس قد تبلغ مبتغاك منهم بالرفق واللين والحكمة ولن تبلغه بالحزم والشِدة.

صمت الحكيم أتوم هنيهة ثم أردف: وفي كلتا الحالتين عليك بدراسة خَصمك أولًا لتعرف أي الناس أمامك وأية معاملة ستعامله.

اكتفى سراج بهزّ رأسه ولم ينبس ببنت شفة، أعجبني رد الحكيم عليه، وفي الوقت نفسه أدهشني هدوء سراج غير المعهود.

نظر إليّ الحكيم أتوم وسألني بحماس: هل حصلت على العلامة يا أوناسيو؟

هززت له رأسي فلاحت على وجهه ابتسامة عابرة وقال بشغف: أرني كيف هي.

رفعت ثوبي فأخذ ينظر للشامة البيضاء أعلى سُرتي ويمعن النظر فيها فشهق الحكيم أتوم وقال بسعادة: لقد صرت قويًا الآن، كل الناس هنا كانت تنتظرك بشغف.

طأطأت رأسي وقلت بصوت حزين: ولكنني أرى أنني لم أُحسن استخدام قواي تلك، منذ أن دلفت إلى هنا وأشعر أنني لم أفعل شيئًا مميزًا، أرى نفسي مثل الجميع هنا، لا شيء يميزني عنهم.

كان الحكيم أتوم يستمع إليّ بإنصات وهو يُقلب ناظريه إلى عينيّ تارة وإلى شعري تارة أخرى وهو مبتسم، أطبق عينيه هنيهة ثم أطلق تنهيدة خفيفة وقال بصوت هادئ: لأنك تسير بقلبك يا بني، ومن سار بقلبه ملك قلوب الناس، من سار بقلبه كان والناس من حوله سواء، لا يفرقهم دم ولا عرق ولا لغة ولا عالم.

ران عليه صمت خيف ثم تساءل: من أرسلك إليّ؟ وكيف عرفت أنني أقطن هذا الكهف بالتحديد؟

أجبته قائلًا: أمي هي من أرسلتني إليك.

اتسعت حدقتا عينيه دهشة وذهولًا وقال بسعادة: الملكة أسمايا، هل حررتها من حبسها؟

هززت له رأسي وأجبته مبتسمًا: نعم حررتها، وقتلت ناتون أيضًا وأصبت ابنه الأكبر "رع".

امتلأ وجه الحكيم أتوم بالسعادة وقال بسعادة عارمة: وتقول أنك لم تفعل شيئًا يا بنى بعد كل ما ذكرته لي هذا؟

أطلقت تنهيدة كبيرة وقلت بصوت حزين: لقد قام ناتون بتحويل أختي لطائر أبيس وأرسلها إلى مملكة "الغوائل" لتشارك في لعبتهم القذرة التي يلعبونها في عيد استقلالهم.

عقد الحكيم أتوم حاجبيه وقال بصوت يشوبه الحزن: قص لي ما حدث معك بالتفصيل منذ دخلت هنا.

أخذت أقص عليه ما حدث لأختي وكيف دخلت الكوكب ودخولي بعدها لأنقذها ومقابلتي للملك محب وذهابي لمملكة "موريكا" وما لاقيته بها، كان الحكيم أتوم يستمع إلي بإنصات شديد وقد بدا عليه التأثر أثناء سردي ما

حدث لي منذ دلفت إلى الكوكب هنا، طلب مني أن يرى تلك الرسالة التي كتبها السيد سليمان ويدّعي أن والدي هو من كتبها بخط يده، أخذ الرسالة وأكبّ عليها يقرؤها مرة تلو المرة وأصبح يداعب لحيته البيضاء الطويلة والكثيفة بأصابعه وهو يقلب مقلتيه في كل اتجاه ويفكر، عاد بناظريه صوب الرسالة فشهق وقال بصوت هامس: تلك الجملة هنا، وأشار بأصبعه إلى الجملة التي تقول "ولن يتمكن من رؤيتها إلا القوي" والدك يقصدك أنت هنا في تلك الجملة.

غضنت حاجبيّ وقلت متسائلًا: هل يقصد أبي قواي الخارقة التي سأمتلكها هنا؟

هز رأسه فأجاب قائلًا: نعم، أظن أن هذا ما يقصده.

عدت فسألته مجددًا: وما تلك الأشياء التي لن يستطيع أحد رؤيتها سواي؟

أطرق الحكيم أتوم رأسه وعاد لتفكيره وهو ينظر داخل الرسالة، ران عليه صمت مهيب، فجأة اتسعت حدقتا عينيه فنظر إلى نيڤيا وأبريس فقال بحماس: هل يعرف أحدكما وادي "الرَّذاذ"؟

ردت نيڤيا قائلة: أنا أعرفه، لقد مررنا عليه أثناء قدومنا إليك.

لاحت على وجهه ابتسامة كبيرة فنظر إليّ وقال بسعادة: ربما ستجد الكتاب في هذا الوادي يا بني.

عقدت حاجبيّ متعجبًا فأردف قائلًا: عندما جاءني والدك والتقى بي هنا في جبال "الأخاضر" أخبرني أنه مرّ على وادي تعيش فيه قبيلة من الأقزام، كانوا مضطهدين من قِبل الناس هنا وتعرضوا للسخرية في كل المواطن بسبب قصر قامتهم فتجمعوا واختاروا لأنفسهم وطنًا خاصًا بهم وهو وادي "الرَّذاذ" فهو تحتاط به الجبال من كل الاتجاهات وغير مكشوف وأرضه خصبة تصلح للزراعة ولن يحتاجوا لحفر الآبار لتساعدهم في الزراعة فقد كانت الأمطار تفي بالغرض، فعادةً كانت الأمطار تهطل على هذا الوادي على هيئة رذاذ فقط، ولذلك تمت تسميته بهذا الاسم.

صمت الحكيم أتوم هنيهة وأضاف قائلًا: رغم انعزالهم التام عن الناس إلا أنهم لم يسلموا من مضايقة بعض اللصوص، فكانوا يسلبون محاصيلهم ويقومون بضربهم وأحيانًا يصل الأمر إلى القتل، وأثناء قدوم والدك إليّ أطبق الظلام عليه فأراد أن يقضي الليل داخل وادي "الرَّذاذ" ليستريح، فتجمّع الناس حوله وهو غارق في النوم وقاموا بتكبيله بالحبال وأخذوه إلى الحاكم "كردوم" وعندما سأله عن سبب دخوله قص عليه ما حدث معه بالتفصيل فأمر بفك قيوده وأجلسه بجواره وأمر بإحضار الطعام والشراب له، قص له الحاكم عن معاناتهم واضطهادهم من قبل الناس هنا على الكوكب فأخبره والدك بأنه سيساعدهم بواسطة الكتاب ويقوم بإطلاق تعويذة خاصة بهم ويُخفي وادي "الرَّذاذ" عن أعين كل الناس، تمر عليه وتراه، لكنك ترى أرضًا عفراء، وإن حاولت دخول الوادي ستجد قوة تمنعك من الدخول.

ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة فقلت بسعادة: تعني أن والدي أخفى الكتاب داخل هذا الوادي؟

أجاب: لا أعلم، والدك لم يخبرني أنه أخفاه داخل الوادي، ولم أسأله أيضًا حتى لا يظن أنني أسعى للبحث عن الكتاب، ولكني أتوقع أن الكتاب داخل هذا الوادي.

ران عليّ صمت خفيف فسألته مجددًا: وماذا لو لم أستطع رؤية هذا الوادي كالجميع هنا؟

نظر الحكيم أتوم إليّ نظرة ثاقبة وقال بحزم: أنت قوي، ثق بنفسك ولا تدع اليأس يتملكك ويسيطر عليك.

نهض الحكيم أتوم من مكانه فجأة وقال: والآن اذهب سريعًا إلى وادي "الزَّذاذ" إن صح ظني واستطعت رؤية الوادي فادخل والتقِ بحاكمهم واطلب مساعدته في البحث عن الكتاب وإن وجدته فكن قويًا وحافظ عليه، سيكون الكتاب ثقيلًا عليك، ستحدث لك أشياء لم تعهدها من قبل.

نظر الحكيم أتوم إلى الجميع فخاطبهم قائلًا: لو عثر أوناسيو على الكتاب فمهمتكم ستصعب، ستكونون مطالبين بحمايته أكثر من ذي قبل.

****

خرجنا من عند الحكيم أتوم مسرعين إلى وادي "الرَّذاذ" كانت الشمس توشك على المغيب، أخبرتنا نيقيا أن الوادي يقع تقريبًا في نصف المسافة الواقعة بين مملكة "الجواسيس" وجبال "الأخاضر"، مضى وقت قصير منذ أن غادرنا من عند الحكيم أتوم صاح سراج فجأة متسائلًا: ألا نتوقف الآن لنأخذ قسطًا من الراحة؟

نظرت إليه بتعجب وأجبته قائلًا: لم يمضِ وقت كبير منذ خروجنا، نريد الوصول لوادي "الرَّذاذ" قبل انتصاف الليل.

أوقف سراج حصانه فجأة فتوقفت أنا أيضًا لأعرف سبب توقفه المفاجئ هذا، نظرت إليه نظرات تساؤل، شهق سراج وقال بصوت واهن: أنا جائع جدًا يا صديقي.

اقتربت إلينا نيقيا ويتبعها أبريس ومراد متسائلين عن سبب توقفنا المفاجئ هذا.

أطبقت عينيّ لوهلة ثم فتحتهما وأخذت شهيقًا كبيرًا ثم أخرجته وقلت بصوت غاضب: سراج هل تمزح؟ هل يُعقل ما تفعله الآن؟

وتابعت قائلًا: نريد الإسراع يا صديقي لنعثر على الكتاب ونعود به إلى الحكيم أتوم ليفك لنا التعويذة وأنقذ أختي، الوقت يداهمنا يا صديقي فلا تتصرف كالأطفال.

طأطأ سراج رأسه وقال بصوت حزين: أعلم كل هذا يا فارس ولكنني حقًا أشعر بالجوع الشديد، لا أقدر على الصمود فوق ظهر حصاني بسببه.

نظرت إليه بغضب شديد وقلت: كان عليّ أن أصطحب الحكيم أتوم معي في رحلتي تلك، لم تنبس ببنت شفة في وجوده، وكأنك صرت أصم فجأة.

غضن سراج حاجبيه وقال: ألأني احترمته واحترمت مكانته تلومني؟

لاحت على وجهي ابتسامة ساخرة وقلت بصوت ساخر: احترمت مكانته فقط؟ أم احترمت أيضًا فخوخه؟

زفر سراج وآثر الصمت وعدم الرد، كانت نيڤيا تراقب حديثنا وتكتم الضحك بداخلها فقالت بصوت ضاحك: فارس لقد أضعتما وقتًا في الحديث والجدال ما كنتما ستضيعانه إن أكل سراج وسدّ جوعه.

مدّت نيڤيا يدها داخل حقيبة جلدية تضعها في أحد جانبيّ حصانها وأخرجت قطعة كبيرة من الخبز وقطعة من الجبن وأعطتهم لسراج وقالت مبتسمة وهي تحدث سراج: سنسير ببطء حتى تنتهي من طعامك وبعدها نكمل السير مسرعين.

هزّ سراج رأسه وبدأ بالأكل، كنت أراقب نظراته المعاتبة لي وهو يأكل، بدا لي وكأنه طفل صغير بكى كثيرًا ثم هدأ وتوقف عن البكاء وبدأ يأكل بطريقة حزينة وباكية.

بعدما انتهى سراج من طعامه أسرعنا بالأحصنة طامعين في الوصول إلى وادي "الرَّذاذ" قبل انتصاف الليل.

قبل أن ينتصف الليل أخبرتنا نيڤيا أننا وصلنا أخيرًا إلى وادي "الرذاذ"، كنا نقف أمام جبل دائري الشكل ويمتد لمساحة شاسعة وكان الجبل متوسط الارتفاع، دبّ الرعب في نفسي عندما قلبت طرفيّ في المكان ولم أجد شيئًا ولا أرَ شيئًا من حولي، تسارعت ضربات قلبي حتى شعرت وكأن قلبي سيخرج من بين أضلعي من شدة القلق، أنقذتني نيڤيا عندما نطقت قائلة: يقع وادي "الرذاذ" داخل هذا الجبل، علينا الصعود لقمته الآن.

هدأ قلقي وسكن قلبي فتابعت نيڤيا قائلة: آمل أن تراه يا فارس.

ربطنا الأحصنة في جذوع بعض الأشجار القريبة من الجبل وبدأنا في صعود الجبل، كان قلبي ينبض بقوة كلما اقتربنا للقمة، أخشى المفاجأة والخيبة، أخشي حدوث ما لم أتوقعه، أشعر وكأن حياة أختي مرتبطة بهذا الوادي إن وجدته واستطعت رؤيته، وصل للقمة أولًا مراد فهو اعتاد الذهاب لجبل بني حميل الموجود بقريتنا وكان دائم التردد على الجبل والصعود لقمته والتسابق مع أصدقائه في سرعة الصعود لقمته، راقبت تعابير وجه مراد وهو يجوب بعينيه في كل مكان بالأسفل، لم أجد منه ردة فعل تبشر بالخير،

كان يقلب طرفيه في كل مكان ولم ينبس ببنت شفة، شعرت ببطء خطوات نيقيا وسراج وأبريس من خلفي أعلم يقينًا أنهم تعمدوا التأخر في الوصول لقمة الجبل حتى لا يدّب في نفسي القلق لو رأيت انطباع وجوههم لو لم يروا شيئًا فيؤثر ذلك بالسلب عليّ، كان ظلام الليل يُخيّم على الجبل، هدأ قلبي قليلًا حين رأيت قمة الجبل مضيئة نوعًا ما عن كل بقعة بالجبل، شعرت بالارتياح ولو قليلًا حينها، قلت في نفسي ربما هي أضواء وادي "الرذاذ" أسفل الجبل، يتبقى لي بضع خطوات قليلة على الوصول لقمته، عادت ضربات قلبي لتتسارع مرة أخرى، شعرت بجفاف حلقي وأنا أزدرد ريقي بصعوبة، وصلت أخيرًا لقمته، توقّف الجميع عن الصعود خلفي منتظرين ردة فعلي وهم يراقبون انطباعات وجهي، نظرت للأسفل فلاحت على وجهي سعادة كبيرة وأنا أنظر للجميع وأردد بسعادة: أنا أراه، أرى وادي "الرذاذ" جيدًا، امتلأت وجوه الجميع بالسعادة وبدا عليهم الارتياح الشديد.

كان منظر وادي "الرذاذ" من أعلى الجبل منظرًا بديعًا أخَّاذًا يسر الناظر ويكاد يُفقده عقله من شدة جماله، كان الوادي منيرًا بأكمله بواسطة القناديل الزيتية والتي كانت كثيرة جدًا وتكاد تضيء كل بقعة فيه، كانت مساحته شاسعة، وممتلئ بأشجار السنط والجميز وأشجار نخيل الدوم وأشجار الرمان، كان الوادي يعبق برائحة الزعفران الأخَّاذة والساحرة، وزهور اللوتس بألوانها الزرقاء والحمراء والبيضاء وقد بدأت تتفتح للتو أمام ناظريّ وكأنها ترحب بي وبقدومي، لقد كان منظرًا جميلًا يأسر القلب ويريح النفس، كأنه جنة قام والدي بإخفائها.

قاطعت نيقيا صمتي المهيب هذا وقالت: فارس، هناك بعض السلالم التي تم نحتها داخل الجبل، اسلكها لتهبط للوادي، سننتظرك هنا ولا تتأخر.

هززت لها رأسي مبتسمًا وودعت الجميع وهممت بالمغادرة فأوقفني سراج وقال بصوت يشوبه القلق: فارس.

التفتّ إليه فقال مبتسمًا: انتبه لنفسه جيدًا.

ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة فهززت له رأسي مبتسمًا ورحلت.

بدأت في النزول عبر السلالم الصخرية بحذر شديد وأنا أراقب خطواتي جيدًا لئلا أنزلق، عندما وصلت للأسفل كان الوادي هادئًا جدًا، لا أستمع فيه إلا لصوت صرصور الحقول المرعب الذي أفسد الهدوء الذي يسيطر على كل ركن بالوادي في هذا الوقت من الليل، سرت نحو المنطقة السكنية بالوادي وأصبحت أتجول في شوارعها الهادئة والخالية من الناس، كانت البيوت صغيرة جدًا ومربعة الشكل بألوان متنوعة وخلابة، وقفت أمام أحد البيوت حائرًا لا أدري ماذا أفعل، يبدو أن الناس هنا ينامون مبكرًا ويستيقظون في الصباح الباكر أيضًا، فهم أهل زراعة وتلك عادات أهل الزراعة، ولكني أخشى المكوث هنا حتى الصباح فيزداد قلق نيڤيا والرفاق عليّ، عدت للسير في شوارع المنطقة السكنية، سرق نظري أحد البيوت وقد كان مختلفًا عن كل البيوت هنا، كان مربع الشكل ويتكون من طابقين عكس بقية البيوت التي كانت تتكون من طابق واحد فقط، وتوجد أمام البيت مصطبة صخرية صغيرة، ذهبت إلى المصطبة وجلست عليها وبمجرد جلوسي شعرت بألم شديد أصاب الشامة البيضاء الموجودة أعلى سُرتي، نهضت من على المصطبة سريعًا فسكن الألم، اتسعت حدقتا عينيّ دهشة وتساءلت مُحدثًا نفسي: هل ما حدث للتو هو من باب الصدفة أم أن هناك أمرًا ما؟

جلست مرة أخرى على المصطبة لأتأكد من الأمر فعاد الألم للشامة مرة أخرى ولكن تلك المرة كان أشد ألمًا من المرة السابقة، نهضت من على المصطبة مرة أخرى بسرعة ليسكن الألم فسكن، وقفت مندهشًا مما حدث، عدت وحدثت نفسي قائلًا: تلك ليست صدفة، ربما تكون إشارة لي بأن هذا البيت بداخله سر ما، وأيضًا اختلافه عن بقية البيوت هنا يثير حوله الكثير من التساؤلات، فربما أخفى أبي الكتاب بداخله، بعد تفكير طويل وتردد كبير أخذت قرارًا بأن أطرق باب البيت، طرقت الباب الخشبي الصغير فسمعت صوت همهمة بالداخل لم أفهم منها شيئًا، عدت وطرقت الباب مرة أخرى فسمعت نفس الصوت غير الواضح وغير المفهوم، سمعت صوت خشخشة بالباب فازدردت ريقي وأصبحت مستعدًا لمواجهة الشخص الذي سيفتح لي الباب، فُتح الباب وفوجئت بأن لا أحد خلفه، تساءلت في نفسي كيف فُتح الباب لوحده؟ أخذت أقلب النظر

داخل البيت بحثًا عن أحد ولكنني لا أرى أحدًا داخله، فجأة تناهى إلى مسامعي صوت هادئ كصوت الأطفال، نظرت إلى أسفل بين ساقيّ فوجدت فتاة قصيرة القامة تحدّق في عينيّ، أمعنت الفتاة النظر في عينيّ فوجدتها تفغر فاها من فرط الذهول وصاحت بصوت صارخ قائلة: "بوبو" "بوبو"، فهربت مبتعدًا عن البيت، فجأة وجدت مجموعة من الأقزام يحتاطون بي من كل جانب وهم متوشحين بسيوفهم ويوشكون على مهاجمتي، قبل أن يصلوا إليّ صاح أحد الأقزام وقد كان يطل من نافذة البيت الذي فتحت لي الفتاة بابه وقال بصوت حازم: اتركوه، إنه ضيفنا.

خرج الرجل من بيته وقد كان قصير القامة وضخم الجسم بعينين خضراوين ضيقتين وشعرٍ أشقر، عرفت من احترام الناس له وتنفيذ أوامره وترديد اسمه بين الحضور أنه الحاكم "كردوم" وهو حاكم الوادي، اقترب إليّ وأمعن النظر في عينيّ وشعري فلاحت على وجهه ابتسامة عابرة فهز لي رأسه وقال بصوت فرِح: "مر إك".

غضنت حاجبيّ متعجبًا عند سماعي للكلمة التي قالها فقلت في نفسي ربما هي كلمة ترحيب قد قالها لي بلغتهم.

هززت له رأسي وقلت له مبتسمًا: شكرًا لك.

سار معي نحو بيته وقد تسلطت أنظار الجميع إليّ وباتت جميع الأعين تراقبني في تعجب وذهول شديدين، توقفت أمام باب بيته فجأة ووضعت يدي على الشامة ببطني فابتسم وقال بصوت ضاحك: لا تخف، ستؤلمك إن لامست جدران البيت فقط.

شعرت بالارتياح نوعًا ما، أيقنت أن هذا الحاكم لديه علم بالكتاب وبالشامة البيضاء، وبتألمي أيضًا عندما جلست على المصطبة خارج البيت، أدخلني بيته الصغير الهادئ وكانت القناديل الزيتية المضيئة تزين جدرانه بالداخل، كان البيت يعبق برائحة العطور والنباتات العطرة الجميلة والجذابة، طلب مني الحاكم "كردوم" الجلوس على كرسيه الخاص فرفضت رغم إصراره وضغوطه.

دخل أحد الخدم يحمل شرابًا فقدمه لي وابتسم وقال بسعادة: "مر إك"

بادلته الابتسامة رغم عدم معرفتي بمعنى تلك الكلمة، فأنا لم أسمعها على الإطلاق منذ دلفت الكوكب إلا في هذا الوادي.

كان الحاكم "كردوم" يستمع إلي بإنصات شديد وبدت على وجهه علامات التأثر والحزن عندما بدأت أقص له عن خيانة السيد سليمان وما حدث لي منذ أن دلفت الكوكب وما حدث لي بمملكة "موريكا" وعن تحويل أختي لطائر أبيس وأنني أبحث عن الكتاب لأعيدها.

شهق الحاكم " كردوم" بعدما أنهيت حديثي وقال بصوت مليء بالحزن: رغم أن والدك أخبرني أنه قام بتهريبك أنت وأختك خارج الكوكب وسيبعدكما عن الجبل والكهف إلا أنني كنت أعلم أنك ستعود يومًا ما، ذاك الظلم الذي يسيطر على كل بقعة خارج هذا الوادي كان لا بدّ له أن يتوقف يومًا ما، ولعل خيانة السيد سليمان لوالدك كانت سببًا في عودتك لتوقف هذا الظلم.

صمتَ الحاكم "كردوم" هنيهة ثم أردف بحزن: لم نتردد لحظة عندما أخبرنا والدك بأن باستطاعته إخفاء وادينا هذا وجعله غير مرئي بواسطة كتابه، ولم نتردد أيضًا عندما أخبرنا أننا ليس باستطاعتنا الخروج من هذا الوادي طوال عمرنا، لقد وافقنا على الفور بلا تردد، إن لم نوافق حينها بسبب نبذنا وتنمر الناس علينا فإننا كنا سنوافق هربًا من ظلمهم وقسوة قلوبهم وأطماعهم.

ران عليه صمت خفيف فنظر إليّ ثم أضاف مبتسمًا: أنت تشبه والدك كثيرًا، العينان نفسهما والشعر نفسه حتى ابتسامتك الهادئة تشبه ابتسامة والدك.

لاحت على شفتيّ ابتسامة هادئة فقلت له متسائلًا: هل عرفتني وأوقفت الرجال من مهاجمتي بسبب ذلك؟

أجاب مبتسمًا: حتى لو لم تكن تُشبهه، فقد عرفت عندما رأيتك أنك أوناسيو، أخبرني والدك عندما قام بإخفاء الوادي بأن لا أحد يمكنه الدخول

إلينا إلا أنت أو أختك لأنكما تمتلكان الدم النبيل وهذا ما يجعلكما قويين على الكوكب هنا.

صمت الحاكم "كردوم" قليلًا ثم أطلق تنهيدة كبيرة وتابع قائلًا: كنت أود قدومك إلينا في ظروف أفضل من تلك التي تعيشها، كنت أود مكوثك معنا أيامًا طوالا لنرد لك ولو شيئًا قليلًا مما فعله والدك معنا، ولكن؛ عندما أرد إليك أمانة والدك وأسلمك الكتاب سأشعر بأنني ساعدتك ولو قليلًا وهذا جزاء خدمة والدك لنا.

ازدردت ريقي وسألته بفضول: هل الكتاب بحوزتك؟

هز رأسه مبتسمًا فعدت وسألته بحماس شديد: وأين هو؟

نهض من على كرسيه وقال: اتبعني، فباب الغرفة الموجودة بالسرداب الذي خبأ والدك بداخلها الكتاب أسفل البيت لا يُفتح إلا بواسطتك.

أمسك الحاكم "كردوم" قنديلًا زيتيًا كان مُعلقًا على أحد جدران البيت فدخل غرفة صغيرة حالكة الظلام فجثا على ركبتيه وقام بفتح باب السرداب الخشبي الصغير فنزل هو أولًا للأسفل بواسطة سلم خشبي صغير كان بداخله وقام بتمهيد طريق نزولي وإضاءة الطريق أمامي باستخدام القنديل الزيتي الذي يحمله، سرنا داخل السرداب وقد كان ضيقًا جدًا وحالك الظلام، كنا نمر على مجموعة كبيرة من الغرف داخل السرداب، شعرت بالضيق قليلًا فقلت له متسائلًا: لماذا لم يُخبئ أبي الكتاب داخل أية غرفة من تلك الغرف القريبة من مدخل السرداب؟

أجاب مبتسمًا: كل تلك الغرف التي تراها هي غُرف وهمية تم صُنعها لتمويه اللصوص وتشتيتهم إن حاول أحدهم الدخول.

عقدت حاجبيّ وقلت له: لا أحد يستطيع الدخول إليكم من الخارج، فمن سيفكر في سرقة الكتاب؟ أم أنك لا تثق بالناس في الوادي هنا؟

لاحت على وجهه ابتسامة خفيفة فأجاب قائلًا: أنا أثق في الجميع هنا، لكن القلوب ربما تتغير يومًا ما يا بني.

عدنا لمواصلة السير داخل السرداب فوقف الحاكم "كردوم" فجأة أمام غرفة لها باب تم صنعه من الخشب المتين وفي منتصف الباب توجد قطعة معدنية دائرية الشكل وهي تلمع كلما انعكس عليها ضوء القنديل الذي يحمله الحاكم "كردوم".

تنهد الحاكم "كردوم" وقال: انزع ثوبك واكشف عن شامتك البيضاء وضع كف يدك اليُمنى على تلك القطعة المعدنية.

نزعت ثوبي ووضعت كف يدي على القطعة المعدنية فشعرت بألم خفيف أصاب شامتي، لم يمضِ وقت طويل حتى فُتح الباب وظهر داخل الغرفة صندوق معدنيّ بلونه الذهبي وهو يبرق كلما انعكس عليه ضوء القنديل، دخلت الغرفة وحملت الصندوق وقمنا بالخروج من السرداب وقد اجتاحتني حينها فرحة عارمة.

فتحت الصندوق أمام أنظار الحاكم "كردوم" فظهر الكتاب بداخله، كان غلاف الكتاب مصنوعًا من ورق البردي المتين، أما داخله فكانت مجموعة أوراق متراصة أسفل بعضها وهي أقل متانة من ورق غلافه، كانت صفحات الكتاب مكتوبة بواسطة الحبر الأحمر المُثبت بالرصاص.

أخبرت الحاكم "كردوم" أن عليّ الخروج من الوادي سريعًا حاملًا الكتاب معي والذهاب إلى الحكيم أتوم ليخبرني عن طريقة فك التعويذة الخاصة بأختي ثم الذهاب إلى مملكة "الغوائل" لإنقاذها.

خرجت من بيت الحاكم "كردوم" ففوجئت بتجمع الناس خارج البيت وهم يهللون ويهتفون باسمي والسعادة تملأ وجوههم، كنت أسير نحو الجبل لأصعد السلم وكان الحاكم "كردوم" يتبعني، كنت كلما مررت بأحدهم أجده يبتسم لي ويردد: "مر إك"

كان الجميع يرددون تلك الكلمة أثناء طريقي المؤدي إلى الجبل ما أثار تساؤلي عن تلك الكلمة ومعناها، كان الجميع هنا يرددونها وهم مبتسمون! لماذا ترتبط تلك الكلمة بالابتسامة؟

توقفت فجأة والتفتّ إلى الحاكم "كردوم" وسألته بفضول شديد: ماذا تعني تلك الكلمة التي يرددها الجميع هنا؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة فأجاب: "مر إك" تعني أحبك باللغة الهيروغليفية.

ابتسمت وقلت له: وأنا أيضًا "مر إك"

ضحك الحاكم "كردوم" عندما قلتها بطريقتي فقاطعت ضحكه متسائلًا: لماذا قمت بتسليمي الكتاب بتلك السهولة؟ ألم تشك للحظة أنني ربما انضممت لناتون؟

تنهد وأجاب بصوت هادئ: عندما جلست مع والدك لأول مرة ورأيت نقاء قلبه وصفاء روحه أيقنت أن هذا الرجل الجالس أمامي لن يخرج من صُلبه ظالم أو خائن.

اجتاحتني سعادة عارمة بعدما سمعت كلامه، اقتربت إليه وانحنيت فعانقته طويلًا وشكرته على حفظ الكتاب، بدأت في صعود السلم المؤدي لقمة الجبل وسط هتافهم الكبير وعبارات التوديع الحارة، وصلت لقمة الجبل ونظرت إليهم وأنا ألوّح لهم بيدي وأهتف إليهم: "مر إك" "مر إك" جميعًا.

التفتُ خلفي فوجدت نيڤيا وسراج وأبريس ومراد في انتظاري أسفل الجبل، ملأت السعادة وجوههم حين رأوني أحمل الكتاب في يدي أثناء هبوطي من على الجبل، كانت نيڤيا تطالعني بنظرات شفقة، لاحظت احمرار عيني الشديد الذي سبّبه لي قلة النوم، مر يومان لم أذق فيهما طعم النوم، أشعر بالأرق والتعب الشديدين والحاجة إلى النوم لكنني أتحمل كل ذلك وأحافظ على صلابتي وصمودي، يتبقى على موعد اللعبة ثمانية أيام، لا أريد إضاعة الوقت، أخبرتني نيڤيا أنهم حصلوا على قسط كافٍ من النوم أثناء تواجدي بوادي "الرذاذ" ، اقترحت عليّ أن أنام ولو قليلًا ليزول احمرار عينيّ ثم نعود لجبال "الأخاضر" ولكني رفضت وأخبرتها أن علينا العودة سريعًا إلى الحكيم "أتوم" قبل أن يحل الليل ويقف الظلام عائقًا لنا في طريق عودتنا.

سرنا نحو جبال "الأخاضر" وكنا نضغط بقوة على بطون الأحصنة بواسطة عضلات سيقاننا فكانت تجري بسرعة مهيبة وجنونية.

وصلنا للحكيم أتوم قبل مغيب الشمس، دخلنا الكهف فوجدناه يجلس مع رجل يُدعى أبيدوس أخبرنا الحكيم أتوم أن أبيدوس سيرافقنا في رحلتنا نحو مملكة "الغوائل" وسيكون هو دليلنا، فهو اجتاز جبال "المنيف" مرات عديدة من قبل ويعرف أسرار تلك الجبال وتربطه علاقة وطيدة مع أحد حراس بوابة المملكة وسيساعدنا أيضًا في دخول المملكة بطريقته الخاصة، عقدت حاجبيّ متعجبًا وسألته بفضول شديد: وكيف استطعت إحضاره بتلك السرعة؟ وكيف عرفت أننا وجدنا الكتاب أيضًا؟ هل خرجت بنفسك لتحضر أبيدوس إلى هنا؟

تنهد الحكيم أتوم" فأجاب قائلًا: الجبال بالنسبة لي يا بني كالبحر بالنسبة للسمك، إن غادرت الجبال والكهوف أختنق حتى الموت، أتنقل من جبل لآخر ومن كهف لآخر لكنني لا أغادر الجبال على الإطلاق، لقد وجدت فيها راحتي بعيدًا عن الظلم المزدحم خارجه، أنا أتعرض هنا للهجوم يوميًا من قبل الذئاب والثعابين، لكن ذلك أهوَن عندي من الذئاب والثعابين المتربصة لنا خارجها.

هززت كتفي وسألته بفضول: فكيف أحضرته إذًا؟

ابتسم الحكيم أتوم ابتسامة كبيرة ثم نظر إلى أبيدوس بجانبه فابتسم له هو الآخر، أصدر الحكيم أتوم صوتًا غريبًا بنبرة صارخة ففوجئنا بصقر يدخل الكهف بسرعة كبيرة أصابتنا بالفزع، استقر الصقر على كتف الحكيم أتوم وقال بابتسامة كبيرة: أعرفكم بصديقي شاهين هو عيني خارج الجبال وروحي التي أتواصل بها مع أصدقائي القُدامى ، أسرع الطيور على الكوكب، هو من أرسلته في طلب أبيدوس.

كان سراج ينظر بذهول كبير للصقر المستقر على كتف الحكيم أتوم فسأله بشغف: وهل ذلك الصقر هو من أخبرك أيضًا أن فارسًا وجد الكتاب بوادي "الرذاذ"؟

رد عليه أبيدوس بتلقائية: لقد أخبرني الحكيم أتوم في الرسالة أن أذهب إليكم في وادي "الرذاذ" وأمرني؛ إن وجدتم الكتاب أسبقكم إلى هنا، وإن لم تجدوه كنت سأساعدكم في البحث عنه.

ازداد ذهول سراج وقال له بتعجب: تقصد أنك كنت تراقبنا؟ وإن كان كذلك؛ كيف استطعت الوصول هنا قبل وصولنا وقد كنا نسير بسرعة جنونية؟

ارتسمت على وجه أبيدوس ابتسامة كبيرة فرد الحكيم أتوم قائلًا : يمتلك أبيدوس حصانًا قويًا يمتاز عن غيره من حيث القوة والمهارة والسرعة، فلا ينافسه في القوة حصان آخر ولا يسبقه في سباق حصان غيره.

أطلق الحكيم أتوم تنهيدة كبيرة ونظر للكتاب الذي أحمله وأنا أقبض عليه بيدي فأردف: تعال يا فارس اجلس هنا بجواري لنرى كيف سنفك التعويذة الخاصة بأختك.

جلست بجواره فأخذ الكتاب وقام بفتحه فأصدر شهيقًا كبيرًا حين رأى التعاويذ بداخله، أخذ يقلب صفحاته الصفحة تلو الأخرى وعلامات الذهول تسيطر على ملامحه، وصل لصفحة أطال النظر فيها كثيرًا والتمعن في رموزها فرفع رأسه مبتسمًا وقال: تلك هي التعويذة التي ستعيد أختك كما كانت.

نظرت متلهفًا إلى حيث يشير بسبابته فوجدت التعويذة عبارة عن ثلاثة رموز تتكون من صولجان وميزان وطائر أبيس وقد كانوا مرسومين بالحبر الأحمر وبأسفلهم ثلاث كلمات قد كُتبوا باللغة الهيروغليفية، أخبرني الحكيم أتوم أن فك التعويذة يكمن في ترديدي للكلمات الثلاث المكتوبين أسفل الرموز مع وضع أصبعي على الرمز الذي تعنيه كل كلمة أسفله، أخبرني أن أبدأ بالصولجان أولًا وأضع إصبعي عليه وأقوم بترديد الكلمة المكتوبة أسفله وهو يرمز للهيمنة والسيطرة والثبات، ثم أرفع إصبعي وأضعه على الميزان وأقوم بترديد الكلمة أسفله وهو يرمز للقوة والصمود، ثم أخيرًا أضع إصبعي على طائر الأبيس وأردد الكلمة أسفله.

قام الحكيم أتوم بترديد الكلمات الثلاث عدة مرات وأمرني بترديدهم خلفه، كانت طريقة نطق الكلمات صعبة جدًا عليّ، استطعت حفظ طريقة نطقهم بصعوبة كبيرة بعد عدة محاولات منها الصحيح ومنها الخاطئ.

سألت الحكيم أتوم قائلًا: هل لو قرأت التعويذة الآن ستعود أختي كما كانت؟

أجاب: التعويذة لا تعمل إلا لو كانت أختك أمامك وتستخدم كلتا يديك لفك التعويذة، يدًا تضعها على الرموز وتضع يدك الأخرى على رأس أختك.

غضنت حاجبيّ وسألته متعجبًا: وكيف سأعرف أختي؟ هناك تسعة طيور أبيس بيضاء غيرها سيشاركون في اللعبة؟

لاحت على وجه الحكيم أتوم ابتسامة كبيرة فقال: ستعرفها بقلبك يا بني، وستعرفك هي أيضًا بقلبها، أنتما تمتلكان نفس الدم، ستجد قلبك يتألم لألمها، وقلبها سيتألم لألمك، أنتما شخصان في روح واحدة، وجسدان بقلب واحد، وعقلان في رأس واحد.

ران على الحكيم أتوم صمت خفيف وأضاف قائلًا: إن وضعت الكتاب على صدرك وأنت نائم وفكرت في أختك ستبصرها بقلبك، ستبصرها كأنك معها، ولكنك لن تُبصرها إلا وهي حرة.

لاحظ الحكيم أتوم احمرار عينيّ وأرقي الشديد، طالبني بأن آخذ قسطًا كافيًا من النوم لنخرج في صباح الغد متجهين نحو مملكة "الغوائل".

أخذت الكتاب منه وذهبت فاستلقيت بجسدي المنهك بجانب سراج الغارق في النوم، احتضنت الكتاب وحوطته بذراعيّ وصرت أفكر في إيمان كما قال لي الحكيم أتوم، لم أستطع الصمود والبقاء مستيقظًا من شدة التعب، غلبتني أول سِنة من النوم فنمت، كنت أهذي طوال الليل من شدة التعب، راودتني كوابيس مخيفة، ثمة وحوش كانت تطاردني لتسرق مني الكتاب، رأس ناتون المقطوع يطاردني وأنا أجري بسرعة جنونية ويجري هو خلفي ويضحك ضحكات ساخرة ومخيفة ويردد ضاحكًا: سيتم قتلها قبل أن تصل إليها، أخذ يردد كلماته تلك مرارًا وتكرارًا، استيقظت من نومي فَزِعًا

وقلبي يخفق بقوة وأنا ألتقط أنفاسي بصعوبة، شعرت بجفاف حلقي وأنا أحاول أن أزدرد ريقي، وجدت يدًا تمتد نحوي وهي تُمسِك بإناء صغير به ماء، نظرت نظرة خاطفة لصاحب اليد فوجدتها نيڤيا، أخذت منها إناء الماء فشربت منه قليلًا فربتت على كتفي وقالت بصوت هادئ: تحمّل يا فارس حتى تنقذ أختك وتعيدها، لقد أخبرني الحكيم "أتوم" منذ قليل أن الكتاب سيكون ثقيلًا عليك وستعاني من حمله.

وضعت يدي على صدري لأتحسس الكتاب ففزعت عندما لم أجده، صرت أصرخ داخل غرفة الكهف بصوت عالٍ وأردد: الكتاب، أين الكتاب؟، استيقظ الجميع مفزوعين من شدة صراخي، كانت نيڤيا تقوم بتهدئتي وهي تردد: فارس اهدأ يا فارس.

نظرت إليها وقلت بغضب: كيف أهدأ يا نيڤيا الكتاب قد سُرق، ستموت أختي يا نيڤيا.

صاحت نيڤيا قائلة: أنا أقول لك أن الكتاب مع الحكيم أتوم في مخبئه السري وأنت تقول أن الكتاب قد سُرق؟

سمعت كلماتها فهدأت قليلًا وعقدت حاجبيّ وقلت لها بتعجب: هل قلتِ لي أن الكتاب مع الحكيم أتوم؟

زفرت نيڤيا وأجابت: نعم، لقد أخبرتك بذلك أثناء صراخك.

جلستُ على الأرض ووضعت رأسي بين كفيّ فقلت: لم أنتبه لقولك هذا، لم أسمعك تقولين لي هذا الكلام أثناء صراخي.

أطلقتُ تنهيدة كبيرة وأنا أنظر إلى نيڤيا فقلت بصوت واهن: أنا متأسف عما بدر مني يا نيڤيا

جلست نيڤيا بجواري وقالت بصوت خافت: حافظ على قوتك يا فارس قال لي الحكيم أتوم بأن الكتاب له قوتان، قوة تجذبك لطريق الخير، وقوة تجذبك لطريق الشر، صمودك واتزانك هو من سيحدد أي طريق ستسلكه.

صمتت نيڤيا هنيهة ثم أردفت: وفي كلا الطريقين ستجدنا بجوارك، أما طريق الخير فستجدنا معك لنعينك وننصرك، وأما طريق الشر فستجدنا معك لننتشلك منه ونعيدك لطريق الصواب والخير.

دلف إلينا الحكيم أتوم من مخبئه السري وهو يحمل الكتاب، اقترب إليّ فوضع يده على كتفي وقال: ليس عيبًا أن يُخطئ المرء، فكلنا نُخطئ، ولكن العيب أن لا يعترف المرء بخطئه ويواصل الأخطاء ظنًا منه أنه على صواب.

التفت الحكيم أتوم إلى الجميع وتابع قائلًا: منذ اليوم ستكون مهمتكم أكبر من ذي قبل، لا تدعوه ينام بمفرده، ولا تدَعوه يذهب لمكان بمفرده وهو يحمل الكتاب، فعاد والتفت إليّ فقال مبتسمًا: أنت أقوى من الكتاب يا بني، الكتاب مجرد أداة في يدك فقط، رغم قوته لكنك أقوى منه، احفظ كلامي هذا جيًدا ولا تنساه.

****

أرسلت الشمس أشعتها الدافئة على الجبل فنسخت غياهب مدخل الكهف وملأته نورًا ودفئًا، كان أبيدوس هو أول من استيقظ وخرج من الكهف ليتجهز، أبيدوس هو كهل في منتصف الأربعين من عمره، طويل القامة ونحيف الجسد، رأسه صغير جدًا وشعره أشقر خفيف، لكنه يمتلك عينين خضراوين واسعتين وثاقبتين تنمان عن الدهاء والفِطنة، يقول الحكيم أتوم أن أبيدوس يعرف كل بقعة بالكوكب، كان يعمل في السابق في نقل الذهب الذي كان يتم استخراجه من جبال "الأخاضر" بواسطة التجار ويقوم هو بتوزيعه على كل التجار بالكوكب ومن ضمنهم تجار مملكة "الغوائل" التي يعتبر الوصول إليها إنجاز كبير والتي كان لها النصيب الأكبر في ذكر اسم أبيدوس عند كل رحلة ذاهبة إليها، اشتهر أبيدوس بلقب وحش الجبال وذلك لأن الناس هنا يظنون أن من يعبر جبال "المنيف" مرات عديدة لن يكون شخصًا عاديًا، بل ربما يكون وحشًا من وحوشها، وهذا ما شهره على الكوكب وجعل الجميع يطلبون منه مرافقتهم والعمل معهم كدليل لهم في رحلات التجارة الخاصة بهم صوب إحدى الممالك وأصبح يتقاضى ضعف ما كان يحصل عليه في السابق، وأصبح عمله كدليل ومرافق هو عمله الجديد.

خرجت من الكهف حاملًا الكتاب وكان أبيدوس يمتطي حصانه الأسود الضخم ويتبختر به بشكل مُلفت وانسيابي أمام أنظار الجميع، ودعنا الحكيم أتوم وبدأنا في السير غربًا حيث جبال "المنيف" ومملكة "الغوائل"، كانت الأحصنة تجري بنا مسرعة والسماء تمتلئ بقطع السُحب التي نشعر وكأنها تجري معنا وتتوارى الشمس خلفها للحظات فتختنق صفحة السماء فيُخيل إلينا لوهلة أن الليل قد أسدل عباءته السوداء على كل بقعة بالكوكب وما هي إلا لحظات حتى تخرج لنا الشمس وكأنها تقوم باللعب معنا وخداعنا من خلف السُحب، كان أبيدوس يسبقنا بأمتار كبيرة في المقدمة، حصانه الأسود الضخم كان سريعًا كالبرق، حاولت أنا وسراج منافسته واللحاق به لكننا لم نستطع، توقف أبيدوس فجأة والتف بحصانه نحونا وهو يلوّح لنا بيده مشيرًا إلى جبل صغير لنتبعه ونذهب إليه أسفله، ذهبنا إليه وعلامات التساؤل تسيطر علينا، كان أبيدوس يطبق عينيه وكأنه

يمارس طقوسًا سحرية خاصة به، كنّا نطالعه بنظرات تعجب وذهول، فتح عينيه فجأة ونظر للكتاب بيدي فقال هامسًا: اخفِه.

عقدت حاجبيّ وقلت بتعجب: لمَ أُخفيه؟

أجاب: لقد امتلأت السماء بالجواسيس من أجله، إنهم يشمون رائحته فاخفِهِ حتى لا تفقده.

قاطعته نيڤيا متسائلة: أي جواسيس تقصد؟

ران عليه صمت خفيف فأجاب: طيور الأبيس السوداء التي أرسلها إيتسن لقد رأيت ثلاثة منهم، ربما أرسل المزيد منهم، يبدو أن رع وموراس" ابنيّ ناتون قد أخبراه بما فعل فارس في مملكة "موريكا"

سأله "مراد" بفضول شديد: من هو إيتسن؟

_ هو حاكم مملكة "الغوائل"، ويبدو أيضًا أنه عرف أن إيمان من ضمن العشرة طيور الذين سيشاركون في لعبة عيد استقلال مملكتهم، تلك اللعبة هي عُرف قديم بمملكتهم منذ استقلالهم عن مملكة "موريكا"، سيحاول إيتسن إنجاحها بشتى الطرق، لو فشلت اللعبة سيكون هذا وصمة عار على مملكتهم.

أطلقت تنهيدة كبيرة وقلت بخيبة أمل: منذ أن دلفت إلى الكوكب هنا ولم أهنأ بشيء، أجوب الكوكب من شماله لجنوبه ومن شرقه لغربه، ألا يوجد منتصف هانئ أهنأ فيه وأنام نومة هانئة؟

نطق أبريس فقال: حُقَّ لك أن تسعد بهذا، فأنت حر وقوي وتجد من يساندك ويساعدك، غيرك محبوس داخل أربعة أسوار لعينة لم يذق الحرية يومًا، فحُقّ لك أن تسعد بتلك الحرية التي يحلم بها كل شخص على الكوكب هنا.

نزلت كلمات أبريس عليّ كالصاعقة، ذلك الفتى الذي لم أسمع نبرة صوته العالية تلك من قبل، لقد كان قليل الكلام كثير الصمت ويرد دائمًا بابتسامه.

تابع أبريس قائلًا: كيف تبحث عن الهناء؛ والشقاء نفسه يتحكم بالكوكب ويخنقه ويعتصره؟ اقطع رأس الشقاء أولًا وستجد الهناء في قلوب الناس من حولك، ستجده في نظراتهم إليك إن حررتهم، ستجده في ابتساماتهم، في التفافهم حولك، نحن انتظرناك سنوات وسنوات لتحررنا وأنت تبحث عن نومة هانئة؟

قال أبريس كلماته تلك فران على الجميع صمت مهيب، أطبق الصمت عليّ وطأطأت رأسي ثم رفعتها بخجل نحو أبريس وقلت بنبرة يشوبها الحزن: ولكنني يا صاح منذ أن دلفت إلى هنا ولم أساعد أحدًا، أنا أتنقل في الكوكب وأرهقكم معي لأساعد نفسي وأنقذ أختي فحسب.

رد أبريس قائلًا: كيف لم تساعد أحدًا؟ فمن كان يجرؤ على الاقتراب من ناتون وقتله؟ ومن كان يجرؤ على التسلل لسور مملكة "موريكا" ويقتحم القصر؟ ومن كان يجرؤ أيضًا أن يذهب لمملكة "الغوائل" ويتخطى جبال "المنيف" ليدخلها وينقذ أحدًا بداخلها؟

صمت أبريس هنيهة ثم تابع قائلًا: عندما أرسلت مرادًا ليتجسس على القصر وأخبرني بأن ثمة فتاة دخلت لغرفة الاستقبال القادمة من الأرض وتلتف حولها خيوط بيضاء وقال لي أن تلك الفتاة يعرفها جيدًا وهي جارته واسمها إيمان كنت أستطير فرحًا حينها رغم حزني على تحويلها لطائر أبيس ولكنني فرحت لأنني أيقنت أنك ستدخل الكوكب لتنقذها، قمت بتدريب مراد بطريقة سريعة ومبهرة، كنا مستعدين لتلك اللحظة التي ستحررنا فيها.

صمت "أبريس" هنيهة ثم أطلق تنهيدة كبيرة فقال: لقد كنّا أمواتٍ يا أوناسيو، وحين جئتنا أعدت لنا الحياة.

أطرقت رأسي للحظات ثم رفعتها ناظرًا نحو أبيدوس وسألته: وكيف سأخفيه؟

أجاب: سلمه لأحدنا، لو بقي الكتاب بحوزتك سينكشف أمرنا، طيور الأبيس ووحوش الجبل ستتعرف عليك إن كان الكتاب بحوزتك.

أطبق الصمت عليّ وصرت أقلب النظر في وجوه الجميع، مراد! رغم أنه كان ينبذني في السابق إلا أنه صار معي الآن وأنا أثق به، سراج! عندما قابلني أول مرة وعرف أنني بشري ساعدني ووقف معي رغم أنه لم يكن يعرف حقيقتي حينها وأنا أيضًا أثق به، أبريس! الرجل الصامت الذي انطلق لسانه للتو فنطق بالحق والحكمة وأنا أيضًا أثق به، نظرت إلى نيڤيا فهزت لي رأسها بأنها لا تريد حمل الكتاب، فمددت لها يدي وبها الكتاب وقلت لها: أنا أثق بالجميع يا نيڤيا ولكنك الوحيدة التي يثق بها قلبي قبل أن يثق بها عقلي.

حملت نيڤيا الكتاب وواصلنا السير نحو مملكة "الغوائل" يتبقى على موعد اللعبة سبعة أيام، يقول أبيدوس بأننا سنصل لمملكة "الغوائل" في خمسة أيام إن لم نتعرض للمضايقة في طريقنا، كانت الأرض التي نمر عليها أرضًا عفراء، غطت السحب صفحة السماء وبدأ المطر يهطل بغزارة ويدق الأرض دقًا، كنت أنظر للسماء بسعادة وأفتح فمي لألتقط بعض القطرات الساقطة من السماء، كانت نيڤيا تنظر إليّ بتعجب شديد وهي تعقد حاجبيها الرفيعين وقالت متسائلة: ماذا تفعل يا فارس؟

أجبتها صائحًا: ألتقط بعض القطرات الساقطة من السماء، هكذا كنت أفعل أنا وأختي إيمان عندما كانت السماء تمطر بكوكبنا.

كان سراج يطالعني بنظرات ساخرة وهو يغضن حاجبيه في تعجب ويبتسم ابتسامته الساخرة المعهودة، نظرت لسراج وقلت بسخرية: أعلم ما تفكر به، أنا أتصرف كالأطفال أليس كذلك؟

أطلق أبريس ضحكة كبيرة صاخبة فقلت متعجبًا: أنت تعرف كيف تضحك يا صاح! ظننتك تبتسم فقط.

ازدادت ضحكاته علوًا وهو يمسح بيده قطرات المياه التي ملأت لحيته، كان مراد يُغطي رأسه بقطعة من الجلد وهو يعقد ذراعيه حول صدره ويرتعد من شدة البرد، نظر إليه أبيدوس فأشفق عليه فأخبرنا أنه يمكننا التوقف الآن حتى يتوقف المطر.

توقفنا ودلفنا لإحدى المغارات بجبل صغير كان في طريقنا، أشعل أبيدوس النار بينما قام أبريس ومراد بجمع الأخشاب اليابسة من حول الجبل لتساعد في إشعال النار وتوهجها، تولى سراج جمع بعض الحشائش للأحصنة، أخبرني أبيدوس بأن ثمة جَمًّا تتجمع فيه مياه الأمطار خلف الجبل لأذهب وأجلب المياه للأحصنة، أمسكت دلوًا وهممت بالمغادرة فلحقت بي نيڤيا وطلبت مرافقتي، ذهبنا خلف الجبل فوجدنا الجمّ بمكان منحدر، كانت السُحُب تنعكس في الجمّ وكأنه مرآة، بدأنا في النزول إليه وقد كانت الرمال أسفلنا غير متماسكة، انزلقت قدم نيڤيا وكادت تسقط لولا أن أمسكت بيدها ولحقت بها، نظرت نيڤيا لأصابعي وهي متشابكة بأصابعها فازدردت ريقها وقالت بتوتر: شكرًا لك.

لاحت على شفتي ابتسامة مهيبة فقلت لها: "مر إك".

اتسعت حدقتا عينيها وقالت بتعجب: ماذا قلت؟

أجبتها مبتسمًا: قلت لكِ " مر إك"

شهقت نيڤيا وقالت متسائلة: كيف عرفتها؟ ومن قالها لك؟

غضنت حاجبيها وقالت بسخرية: هل قالتها لك إحداهن عندما كنا بالعُرس؟

_ لا، لم تقلها لي إحداهن، تلك الكلمة يستخدمها سكان وادي "الرذاذ" للترحيب والود بينهم.

_ تعني أنك قلتها لي ترحيبًا وودًا؟

_ وما كنتِ تظنين أنتِ؟

_ لا شيء، على كلّ شكرًا لك على مساعدتي.

لا عليكِ، انتبهي لخطواتك جيدًا في المرات القادمة و "مر إك"

اشتاطت نيڤيا غضبًا فتنهدت وقالت بعصبية: لا تقل لي تلك الكلمة مرة أخرى إن كنت تقولها لي ترحيبًا أو ودًا، فنحن لسنا في وادي "الرذاذ" هنا، تلك الكلمة بعيدًا عن وادي "الرذاذ" لها معنى واحد فقط.

ملأت نيڤيا دلو الماء وصعدت من الجمّ فقلت لها ساخرًا: انتظريني أصعد معكِ حتى لا تنزلق قدمك الأخرى فتسقطين.

رفعت حاجبيها وقالت بسخرية: لأنزلق وأسقط خير لي من أن أسمع منك كلمة الود الساذجة تلك.

صرت أضحك بهستيرية شديدة ، كان سراج قريبًا مني وهو يجمع الحشائش للأحصنة ويضع بعضها داخل فمه فصحت فيه قائلًا: لقد قال لك أبيدوس بأن تلك الحشائش التي ستجمعها هي للأحصنة وليست لك أيها الساذج.

نظر إليّ سراج نظرة ازدراء وابتسم لي ابتسامة مصطنعة ورحل، عدت للضحك الهستيري، توقفت ضحكاتي فجأة عندما وجدت بعضًا من طيور الأبيس السوداء تحلق حول الجبل، عدت سريعًا إلى المغارة بالجبل وأخبرت أبيدوس بما رأيت، طمأنني وقال: لطالما لا تحمل الكتاب فلن يستطيعوا التعرف عليك، ولكن؛ لا تجعل الشامة البيضاء مكشوفة لهم، سيعرفونك بواسطتها إن رأوها.

توقف المطر وانجلت السُحُب من السماء فألقت الشمس أشعتها الساطعة على الرمال فأصابتها بالصلابة، واصلنا السير مسرعين بالأحصنة وقد اشتد صوت حوافرها بعدما صارت الرمال أسفلها صلبة جراء هطول المطر عليها، وصلنا لأول جبل من جبال "المنيف" الأربعة، توارت الشمس بأشعتها الذهبية خلفه معلنة الرحيل، أخبرنا أبيدوس بأننا علينا عبور هذا الجبل أولًا قبل أن يشتد الظلام ويستيقظ الوحش بداخل الممر الخاص به، سنبيت تلك الليلة في غابة "الناطس" خلف الجبل، سرنا نحو الجبل وتوقفنا أمام المغارة الموجودة به وهي الممر الذي ينقلنا منه للغابة، وقف أبيدوس ونظر إلينا وقال بصوت حازم: لا يتحرك أحد إلا بأمر مني، إن رأيتموني توقفت فجأة عن السير فتوقفوا، وإن رأيتموني أُسرع بالحصان فأسرعوا، لا يخالفني أحد إلا لو رأيتموني أُهاجَم من قِبل وحش الجبل فحينها ابتعدوا عني ولا تحاولوا مساعدتي حتى، قال أبيدوس كلماته تلك فدب الرعب في نفوسنا، لا أعلم ما هو شكل وحوش جبال "المنيف" تلك، حذرتني أمي منها، وحذرني منها الملك محب وحذرني أيضًا منها الحكيم

أتوم، والآن يحذرنا منها أبيدوس وهو أعلم الناس بتلك الجبال، يبدو أن تلك الوحوش ستصعب مهمتنا تلك، دخل أبيدوس المغارة وتبعناه، كانت المغارة عبارة عن ممر ضيق جدًا حالك الظلام، كنا نسير ببطء شديد، سمعنا حسيسًا فتوقف أبيدوس وأشار لنا بيده أن نتوقف فتوقفنا، وبعد مدة قصيرة توقف الصوت فتابع أبيدوس السير ونحن خلفه، كانت قلوبنا تخفق بشدة، لقد كان الظلام يخيّم على الممر وصوت صرصور الليل المرعب يكاد يقتلع قلوبنا من صدورنا، هدأ روعنا وسكنت قلوبنا عندما وصلنا لنهاية الممر وظهرت لنا غابة "الناطس" بأشجارها العالية وأزهارها الساحرة، أطلق "مراد" تنهيدة طويلة فقال بنبرة ساخرة: الجميع يحذرنا من تلك الجبال الأربع، وها نحن قد عبرنا أحدهم في دقيقة واحدة دون معاناة.

نظر إليه أبيدوس نظرة ثاقبة وأشار له بيده أن يتوقف عن الكلام.

قاطع مراد نظراته وقال ضاحكًا: ماذا، هل الوحش قادم من خلفي؟

أطلق مراد مجموعة ضحكات ساخرة وهو ينظر لأبيدوس، فجأة سمعنا صوتًا يصدر من الممر أصابنا بالهلع، صاح على إثره أبيدوس وقال صارخًا: ابتعدوا الآن، أسرعنا نجري بالأحصنة مبتعدين عن الجبل، كان الوحش يلاحقنا وهو يزوم ويزأر ويفتح فكيه بقوة ويسيل من لسانه لعاب كريه الرائحة، كان "مراد" متأخرًا عنا ببضعة خطوات، وثب الوحش على ظهره بكلتا قدميه فمزق ثوبه الجلدي، توقف الوحش ورأينا السلاسل الحديدية المتينة وهي تكبل قدميه الخلفيتين، كان الوحش يُشبه الديناصور وله عينان بارزتان، كانت قلوبنا ترتجف وتخفق بقوة، بدأ الوحش بالزئير وهو ينظر إلينا ويحاول أن يقتلع السلاسل المقيد بها، شعرنا بأن الجبل سينهار من قوته، كان الوحش ينظر لنيقيا وهو يزوم ويزأر ويسيل لعابه من بين فكيه ويرفع قدماه الأماميتان نحوها محاولًا مهاجمتها، شعرت نيقيا بالرعب الشديد فابتعدت بعيدًا عنا، دوى صوت صفير صدر من الغابة فانطلق أبيدوس بحصانه وقال متعجلًا: اتبعوني الآن.

أسرعنا خلفه في رعب وهلع، توقف أبيدوس عند صخرة كبيرة فنزل من على حصانه متأهبًا وصولنا، وصلنا عنده فاقترب إلى مراد فظننا أنه سيوبخه على فعلته تلك، كان مراد ينظر لأبيدوس نظرة متأسفة، ابتسم أبيدوس وقال له مبتسمًا: لا عليك، أنا أيضًا حدث معي الأمر نفسه في أول مرة عبرت فيها جبال "المنيف" لم أكن أصدق بحقيقة تلك الوحوش وكنت دائمًا أهزأ بها.

قام أبريس بحمل مراد وإنزاله من على ظهر حصانه، كان ظهره شديد الاحمرار، لم تخرج منه الدماء ولكن ذلك الوحش قد طبع على ظهره علامات وكأنها عقاب له على سخريته، صار أبيدوس يمسحها بالماء بواسطة قطعة من الكتان، سأله أبيدوس: هل تؤلمك؟

أجاب مراد بصوت واهن: تؤلمني قليلًا ولكنها تحرقني بشدة وأشعر بصعوبة في التنفس قليلًا.

أطلق أبيدوس تنهيدة كبيرة فقال: لو تمكن ذلك الوحش منك لقتلك في الحال.

اتسعت حدقتا عينيّ مراد ذهولًا فسأله متعجبًا: ما أصل تلك الوحوش، وما تلك السلاسل التي تُقيدها؟

ران على "أبيدوس صمت خفيف فأجاب: بعدما تزوجت الملكة أسمايا بوالد فارس ثار إيتسن على ناتون وعنفه بقوة، فقد كان أكبر الداعمين له، كان إيتسن يخشى إنجابهما مولودًا يمتلك الدم النبيل فينقلب حينها الأمر عليهم، غادر إيتسن ومن معه مملكة "موريكا" مبتعدين إلى أقصى الغرب هنا حيث جبال" المنيف" المرتفعة والشاهقة وصعوبة الوصول إليهم، أعلنوا الاستقلال عن "موريكا" وأقاموا مملكة "الغوائل" كان يفد إلى تلك المملكة لصوص الكوكب والمطرودون والهاربون من الأحكام والهاربون من السجون وقلة من الشرفاء الذين ضاق بهم الكوكب ولم يجدوا غير الانضمام إليها ليضمنوا البقاء على قيد الحياة، توسعت مملكة "الغوائل" حتى صارت مثالًا للقوة والنفوذ رغم الظلم والفساد القابع داخلها، كان ناتون يخشى قوتهم ونفوذهم فاتفق مع إيتسن بأن يطلق له تعويذة خاصة

بواسطة كتاب "سينيت" يجعل له على كل جبل من جبال "المنيف" وحشًا قاتلًا يصعب من مهمة عبور الناس لتلك الجبال، ويكون ذلك بمثابة اتفاق بينهما على ألا يهاجم أحدهما الآخر، كان إيتسن سعيدًا جدًا بتلك الحيلة، فهي ستجعل الوصول إلى مملكته صعبًا على من يحاول مهاجمته وأيضًا ستكون بمثابة اختبار لمن يفد إليه ليصير فردًا من شعبه، فهو يريد أن ينضم إليه الأقوياء فقط.

سألته نيڤيا بفضول شديد: ولماذا كان ينظر إليّ بعدوانية هكذا ويحاول مهاجمتي؟

_ لأنكِ تحملين الكتاب، فتلك الوحوش يطمعون في الكتاب أكثر من أي شخص هنا، لأنهم سيتحررون من قيودهم تلك بواسطته، إنهم يشمون رائحته، وذلك الحسيس الذي سمعناه داخل الممر كان صوت شهيقه وزفيره، تلك الوحوش تدخل الجبل في النهار لأن ضوء الشمس يخيفها، فهي تنام بالنهار وتظل مستيقظة طوال الليل، عبورنا الممر بالليل بمثابة انتحار، وعبورنا الممر بالنهار انتحار أيضًا.

عقدت حاجبيّ وسألته بتعجب: بالليل انتحار، وبالنهار انتحار، فمتى نعبرها إذًا؟

لاحت على شفتيه ابتسامة هادئة فأجاب: تلك الوحوش ذكية جدًا، لا تخرج من الجبل بالنهار ولكنها تكون أشد انتباهًا وتركيزًا رغم أنها تكون في هذا الوقت نائمة، أما بالليل فهي متيقظة داخل الجبل وخارجه.

صمت أبيدوس هنيهة ثم أردف قائلًا: أفضل وقت لتعبر فيه الجبل هو وقت مغيب الشمس، ذلك الوقت تكون الوحوش فيه في حالة خمول وهي مستيقظة للتو من نومها ويقل فيه تركيزها.

_ وذلك الصفير الذي سمعناه؟

_ تلك الصافرات يطلقها جواسيس غابة "الناطس" الذين قام إيتسن بتعيينهم لمراقبة الجبال، مثلما ينشر ناتون جواسيسه أيضًا، لا أحد منهما يثق بالآخر.

نظر أبيدوس إليّ وإلى مراد فقال برجاء: خذا حذركما جيدًا، أنتما تختلفان عنّا، أنتما بشريان، لو فقدَ أحدكما القليل من دمائه لن يستطيع التنفس وسيختنق حتى الموت.

طأطأ مراد رأسه بخجل وكأنه يتأسف على ما فعله للتو، صرنا نجمع الأعشاب لنفرشها أسفلنا لتلطيف التربة الصخرية التي تغلب على أرضية المكان هنا أسفل الصخرة الكبيرة، كنا نتناوب على الحراسة ليلًا، ينام ثلاثة أشخاص ويبقى شخصان مستيقظين للحراسة.

استيقظنا في الصباح على صوت زقزقة العصافير وهي تطير فوق رؤوسنا غادية ورائحة وتطارد بعضها البعض في مرح، كنّا في حالة كبيرة من السعادة والانتشاء ونحن ننظر العصافير ونراقب طيرانها فوق رؤوسنا، هينمة الهواء على الزهور يجعلها تتراقص في مشهد ساحر وبديع، طلعت الشمس من فوق الجبل بأشعتها الحمراء الساحرة معلنة بدء يوم جديد في رحلتنا نحو مملكة "الغوائل"، جبال "المنيف" هي سلسلة من أربعة جبال، يفصل كل جبل عن الآخر غابة كبيرة كنا نقطعها في يوم كامل حتى نصل للجبل الذي يليه، كانت الغابات مليئة بالجماجم والهياكل العظمية، يقول أبيدوس بأن تلك الجماجم والهياكل العظمية هي لأناس قرروا عبور الجبال ليلتحقوا بمملكة "الغوائل" فمنهم من مات عطشًا ومنهم مَن مات جوعًا ومنهم من قتلتهم وحوش الجبال ومنهم من أمر إيتسن بقتلهم، فهو يختار من يدخل مملكته، لا يريد الضعفاء والمرضى، إن لم تكن قويًا فلا مكان لك بمملكة "الغوائل".

****

في اليوم الرابع نجحنا في عبور الجبل الرابع وهو آخر جبل من جبال " المنيف" لم تظهر لنا الوحوش في الجبال الثلاثة المتبقية، كنا نسمع شهيقها وزفيرها أثناء عبورنا الممر، كنا ننفذ تعليمات أبيدوس كما يأمرنا، يتبقى لنا عبور الغابة لنصل لمملكة "الغوائل" وسنصلها في اليوم الخامس ويتبقى يومان على عيد استقلال المملكة وبدء اللعبة، يومان فقط يفصلاني عن الوصول لأختي، كان قلبي يخفق بشدة وشعرت أنه سيخرج من بين أضلعي، كنت أسير في الغابة شارد الذهن طوال اليوم، لم ينتبه لشرودي وقلقي أحد سوى نيڤيا كانت تراقب حركاتي وانطباعات وجهي طوال اليوم، كنت أطالعها كل فينة والأخرى بنظرات خاطفة لأطمئن عليها، أعلم أن الكتاب ثقيل عليها، ولكنها تتحمل ثقله ولا تشتكي، بينما كانت تراقبني هي بعين التساؤل عن سبب شرودي طوال اليوم.

استطعنا تخطي الغابة قبل مغيب الشمس بقليل، تراءى لنا بحر "الغياهب" بأمواجه المرتفعة والصاخبة، وظهرت لنا مملكة "الغوائل" بأسوارها الشاهقة ويحتاط بها البحر من جوانبها الثلاثة وكأن البحر يحتضنها، لم نكن الوحيدين الذين استطعنا عبور جبال "المنيف" بوحوشها وغاباتها، كان ينتظر خارج البوابة بعض التجار والعمال الذين يستخدمهم "إيتسن" للتجسس خارج أسوار المملكة وهم ينتظرون يوم عيد الاستقلال لتُفتح البوابة ويدخلوا ليخرج غيرهم ليتسلموا عملهم طوال السنة القادمة، كانت طيور الأبيس السوداء كثيرة جدًا وهي تحلق فوق المملكة في شكل دائري صاخب، رمقت أبيدوس بنظرات تعجب وقلت له متسائلًا: ألا توجد لديك خطة لندخل المملكة قبل عيد الاستقلال؟

ران عليه صمت خفيف وهو ينظر صوب المملكة فقال: لديّ خطة، ولكن أخشى لو فشلت لن نتمكن من الدخول على الإطلاق.

صمت أبيدوس هنيهة ثم أردف قائلًا: لنضمن الدخول يا صاح، أنا ضمين لك أننا سندخلها فجر عيد الاستقلال وقبل موعد اللعبة بوقت كبير.

نظرت لنيڤيا فوجدتها تهز رأسها وقالت هامسة: لنضمن الدخول يا فارس، لا نريد المجازفة، الوضع هنا يختلف عمَّا لقيناه في مملكة "موريكا".

أطلقت تنهيدة كبيرة وأنا أنظر صوب المملكة وقلت: لا بأس، لننتظر يومين آخرين.

أعددنا المكان الذي سنبيت فيه ليلتنا تلك، أخبرنا أبيدوس بأننا لن نظل تلك الليلة واليوم التالي في نفس المكان لئلا يلاحظ وجودنا أحد، وأخبرنا أيضًا بأننا لن نتمكن من إشعال النار لتضيء لنا، سنكتفى بضوء النجوم وبعض الكواكب العملاقة هنا.

كنت مستلقيًا على الأرض أنظر للسماء وأتأمل النجوم والكواكب وهي تضيء وتنطفئ في مشهد بديع، كانت الكواكب كبيرة الحجم جدًا وكانت مصطفة بجانب بعضها في مشهد جميل وبديع، كان يستلقي بجواري سراج وينظر للسماء مثلما أفعل، أطلق سراج تنهيدة كبيرة وقال متسائلًا: فارس، لنفترض أنك كنت تسير بكوكبكم فسقطت، لو سألتك ماذا حدث لك للتو ستقول لي لقد سقطت على الأرض أليس كذلك؟

عقدت حاجبيّ ونظرت إليه نظرة تعجب فأجبته قائلًا: _ بلى.

تنهد سراج وقال:

_ دعنا نقلب الآية، لو كنت تسير على كوكبنا هنا وسقطت، لو سألتك ماذا حدث لك للتو هل ستقول لي لقد سقطت على أوناسيو؟

أصبنا جميعًا بنوبة ضحك هستيرية ودمعت عيناي من كثرة الضحك فنظر إليّ سراج في ذهول وتساءل قائلًا:

_ أعينكم تفرز الدموع حتى وقت الضحك؟

_ نحن كذلك يا صديقي، إن فرِحنا نبكي، وإن تألمنا نبكي، وإن غادرنا أوطاننا نبكي، وإن عدنا لأوطاننا نبكي، وإن فارقنا أحد نبكي، وإن التقينا به مجددًا أيضًا نبكي، ولكن شتان الفارق بين هذا وذاك، فدموع الحزن تؤلم قلوبنا ودموع السعادة ترفرف بها فرحًا أرواحنا.

صمتُّ هنيهة ثم تابعت قائلًا: يقال أن دموع السعادة تُطهر العين ودموع الحزن تحرقها.

ران على الجميع صمت مهيب، كان أبيدوس يجلس بعيدًا عنّا وهو منعزل وشارد، نهضت وسرت نحوه فجلست بجواره فسألته عن سبب شروده فتنهد وأجاب بنبرة حزينة:

_ في صباح الغد سيتوافد المئات من المتسابقين لساحة الانتقام، سيشاركون في اختبار ليتم اختيار أفضل عشرة متسابقين ليشاركوا في لعبة "البقاء".

_ وما قوانين تلك اللعبة؟

_ يحصل كل متسابق على طائر ويكون مطالبًا بحمايته، ويقف كل متسابق وهو يمتطي حصانه في ساحة الانتقام ويكون طائره الخاص متأهبًا على كتفه، يبدأ كل متسابق في توجيه السهام نحو الطيور الأخرى ليقتلها وفي نفس الوقت يقوم بحماية طائره الخاص من السهام الموجهة إليه بواسطة درعه، ومن ينجح في إبقاء طائره على قيد الحياة في النهاية هو الرابح، في النهاية يبقى طائر واحد فقط على قيد الحياة، والرابح سيحظى بأمنية يقوم الحاكم إيتسن بتحقيقها له أيًا كانت بالإضافة للطائر الذي قام بحمايته يحصل عليه ويصير ملكه.

_ والرابحون في كل السنوات الماضية هل ما زالوا يحتفظون بطيورهم؟

_ لقد قُتلوا في ظروف غامضة.

شهق أبيدوس وتابع قائلًا: الجميع يعلم أن إيتسن أمر بقتلهم، فهو لا يريد أن يبقى أي بشري على قيد الحياة هنا، وتلك اللعبة التي ابتكرها تعمد فيها أن يقتلهم بطريقة مهينة ومؤلمة، فهو يعلم أن البشريين يتنفسون هنا بواسطة دمائهم وأن أي طائر سيصاب بسهم أو سهمين سيموت، يريد الانتقام من البشريين بطريقة مؤلمة ومهينة.

_ والطيور التي سيحظى المتسابقون بها، أين هي الآن؟

_ يحبسونهم في غرفة مظلمة لا نوافذ لها ولا يبصرون منها شيئًا، سيتم إخراجهم في فجر الغد، وهو فجر عيد الاستقلال، وسيذهبون بهم لساحة الانتقام ليختار كل متسابق طائره.

_ تعني أن أختي منذ دخولها مملكة "الغوائل" هي محبوسة في غرفة مظلمة؟

_ نعم.

_ ألهذا السبب لم أستطع أن أبصرها!

عقد أبيدوس حاجبيه مستفسرًا فنهضت من مكاني وقلت بصوت جهوري: لقد أخبرني الحكيم أتوم أن باستطاعتي رؤية إيمان إن وضعت الكتاب على صدري وحوطته بذراعيّ وأغمضت عينيّ، ولكنه أخبرني أنني لن أتمكن من رؤيتها إلا وهي حرة، وقد كنت أحاول رؤيتها مرارًا وتكرارًا ولكني لم أستطع، الآن قد عرفت السبب.

اقتربت إليّ نيڤيا فقلت لها بسعادة: سأتمكن من رؤية إيمان صباح الغد، غدًا إيمان ستكون حرة يا نيڤيا.

****

مرت تلك الليلة وكأنها عام، لم أستطع النوم طوال الليل، كنت أنتظر بشغف أن تنقضي تلك الليلة ويحل الصباح لأستطيع رؤية إيمان، كانت نيڤيا تستيقظ كل فينة وأخرى فتطالعني بنظرات باسمة ثم تعود للنوم، في الصباح أخذت الكتاب من نيڤيا ووضعته على صدري وحوطته بذراعيّ وأغمضت عينيّ في سعادة وشغف، فجأة شعرت كأنني طائر أحلق في السماء وأطير نحو مملكة "الغوائل" فدخلتها ورأيت الحشود الغفيرة من سكان المملكة متجمعين في ساحة الانتقام، كان كل حارس يمسك بطائر من طيور الأبيس البيضاء، صرت أقلب النظر في كل طائر وأتساءل، أيهم هو أختي؟، كانت كل الطيور تشبه بعضها، جميعها كانت باللون الأبيض ويصعب التفرقة بينهم، كنت أنظر في عيون الطيور غير مُبال بهتاف الحشود وتهليلهم للمتسابقين وقد بدأوا في تصويب سهامهم نحو الأطباق الطائرة لاختيار أبرز المصوبين ليتم تصفيتهم في نهاية الأمر لعشرة متسابقين فقط ويحصل كل متسابق على طائر من الطيور العشرة ويشارك به في لعبة الغد بحضور الحاكم إيتسن، لم آبه للمنافسة المشتعلة بين المتسابقين، كان تركيزي كله ينصّب نحو الطيور وأنا ما زلت أقلب النظر فيهم وأمعن النظر لأستطيع تمييز أختي إيمان من بينهم، كان من بينهم طائر أبيض اللون وجناحاه محفوفان باللون الأسود، كان الطائر الوحيد الذي شعرت وكأنه ينظر إليّ وكأنه يراني، كانت كل الطيور في حالة كبيرة من الهيجان وهي ترفرف بجناحيها في محاولة منها للهرب من قبضة الحراس، إلا ذلك الطائر الهادئ الذي غلب عليه الهدوء والحزن الشديدان، سلطت ناظريّ صوب ذلك الطائر الهادئ الحزين فخفق قلبي وتسارعت نبضاته عندما وجدته ينظر نحوي وكأنه يراني، كانت عينا الطائر تلتقي بعينيّ وكأنه يعرفني ويراني دون الجميع، علت أصوات الحشود المتواجدين بالساحة وهم يهللون ويهتفون باسم شخص يُدعى بهي، اصطف المتسابقون بجانب بعضهم وصاروا يمعنون النظر إلى الطيور فيختار كل منهم طائرًا يرى فيه خفة الحركة والفطنة والدهاء ليساعدهم في الفوز باللعبة، اختار كل متسابق طائره وبقي الطائر الهادئ لم يختره أحد، اقترب إليه بهي

وطالعه بنظرات باسمة وقال له وكأنه يُحدثه: لم يتبقَ سواك الآن، لم يخترك أحد بسبب هدوئك الشديد، سأحررك من هدوئك هذا اليوم.

أخذ كل متسابق طائره الخاص وعاد كل شخص لبيته وهو يحمل طائره، سيحظى كل متسابق بطائره الخاص طوال اليوم ليعتاد عليه ويقوم بتدريبه ومعرفة نقاط قوته ونقاط ضعفه، لا أعلم السبب الذي دفعني للذهاب خلف بهي هذا وطائره دون باقي الطيور، ولكنني شعرت أن هذا الطائر هو أختي، تميزه عن غيره باللون الأسود المحفوف على جناحيه، هدوءه، نظراته إليّ وكأنه يراني مثلما أراه، خفقان قلبي وأنا أنظر إليه، قد أخبرني الحكيم أتوم بأنني سأستطيع معرفة إيمان بقلبي ، وها هو قلبي يخبرني بذلك.

كان بهي فتىً قويًا وطويل القامة أزهر الوجه عيناه خضراوان وواسعتان وحاجباه متصلان ببعضهما اتصالًا خفيفًا وشعره أشقر طويل وأملس، دخل بهي بيته وهو يحمل طائره في يده وهو في حالة كبيرة من السعادة والانتشاء، أجفلت أمه حين رأته يحمل الطائر في يده، شهقت وقالت بفزع: ما هذا الذي بيدك يا بهي؟

أجابها مبتسمًا: إنه بشري تم تحويله لطائر، سأشارك به في لعبة الغد؟

امتلأ وجه أمه بالغضب وقالت له بحنق: لماذا لم تخبرني بأنك ستشارك في تلك اللعبة؟

زفر بهي وأجاب: لو أخبرتكِ يا أمي كنتِ ستمنعينني من المشاركة؟

ردت عليه أمه بغضب وقالت: نعم أمنعك، ما لنا والبشريين يا بهي لماذا تشارك في تلك اللعبة القذرة لتقتل نفسًا بريئة كان كل جُرمها أنها من البشر، لم نرَ من البشريين إلا كل خير، هل هربت من ظلم "موريكا" وجلبتك إلى هنا لتقوم بقتل نفس بريئة؟

ران على بهي صمت مهيب فتابعت أمه قائلة: يا بني؛ عندما اشتد الظلم في "موريكا" بعد إعدام ذلك البشري الذي دلف الكوكب قادمًا من الأرض هربت بك من ظلمهم وفسادهم وجئت بك إلى هنا وقمت بتعليمك

الفروسية والقتال بالسيف وجعلت منك محاربًا عظيمًا وفارسًا شجاعًا يتحاكى به الناس هنا بقوته وفطنته ودهاءه، وصارت كل النساء يتمنين الزواج بك، أبعد كل ما فعلته يا بني تخذلني؟

أطلق بهي تنهيدة كبيرة وقال بغضب: هربتِ بي من مملكة الظلم "موريكا" إلى مملكة الفساد "الغوائل"؟ ماذا فعلتِ يا أمي سوى أنك حررتينا من مملكة ظالمة لنلتحق بأخرى أشد ظلمًا وفسادًا؟

جلس بهي على كرسي خشبي ووضع يده أسفل ذقنه وهو يحمل طائره باليد الأخرى وقال معاتبًا أمه بنبرة حزينة: خرج الملك محب وبعض الشرفاء حينها من "موريكا" وذهبوا أقصى الجنوب وأسسوا مملكتهم الخاصة، لا أعلم لماذا لم تخرجي معهم، وأيضًا بعد سنة هربتِ من مملكة "موريكا" كان بوسعك الانضمام لمملكة "الجواسيس" لنعيش مع الملك محب في سلام ولكنكِ أيضًا رفضت الانضمام إليهم وقدمتِ بي إلى هنا ولا أعلم السبب حتى يومنا هذا؟

جلست أمه بجواره وصارت تداعب بيدها شعره الأشقر الأملس فقالت بنبرة حزينة: عندما خرج الملك محب ومن معه يا بني ظننت أن ناتون سيلاحقهم بجيوشه ويقتلهم، فآثرت البقاء حفاظًا على حياتك، وعندما هربت بك من "موريكا" كانت الشائعات بالداخل تقول أن الهجوم على مملكة "الجواسيس" مسألة وقت وهو قريب ووشيك، فخشيت إن التحقت بهم أخسر حياتك، فجئت بك إلى هنا وعبرت جبال "المنيف" وأنا أصارع الموت وكدت أفقد حياتي لولا مساعدة بعض التجار الذين كانوا في طريقهم نحو مملكة "الغوائل".

نهض بهي من على الكرسي ومشي بضع خطوات ناحية غرفته وهو يدير ظهره لأمه فقال: لقد أخطأتِ التقدير يا أمي، وأنا سأشارك في لعبة الغد لأربح وستكون أمنيتي أن أخرج من هنا وألتحق بمملكة "الجواسيس".

_ وما ذنب هذا الطائر المسكين؟

_ ذنبه أنه السبيل الوحيد نحو حريتي.

صمت بهي هنيهة وتابع بصوت هادئ: اطمئني يا أمي، سأحافظ على حياة هذا الطائر أكثر من الحفاظ على حياتي، لقد صار جزءًا مني الآن، وحريتي متوقفة على إبقائه على قيد الحياة.

ردت أمه بغضب شديد وقالت: ستحافظ على حياته ولكنك ستقتل الطيور الأخرى لتفوز باللعبة!

صمت بهي ولم ينبس ببنت شفة.

طأطأت أمه رأسها وقال بنبرة حزينة: لقد فعلت معك كل هذا لتساعد أوناسيو في محاربة الظلم وقتما يعود، ولكن يبدو أن كل محاولاتي قد باءت بالفشل، ويبدو أن مكوثك هنا في المملكة قد أغلظ قلبك، لم تعد بهي الذي أعرفه.

التف بهي نحوها ورمقها بنظرات غاضبة وقال بحنق: لن يعود أوناسيو يا أمي، لا تتعلقوا بحلم واهم لم ولن يحدث أبد الدهر، الجميع هنا يقول أن والده قام بتهريبه هو وأخته من الكوكب بأمر من والدته الملكة أسمايا وأمرته بإبعادهما عن الجبل وعن الكهف، أنتم تنتظرون وهمًا اسمه أوناسيو يا أمي.

ردت أمه بغضب وقالت: أوناسيو ليس وهمًا، سيعود يا بني يومًا ما، وسيحارب الظلم وسينتقم من الظالمين.

تنهدت أمه وتابعت بنبرة حزينة: نحن منعزلون هنا ولا نسمع بالأخبار خارج المملكة، ننتظر عيد الاستقلال كل عام لتفتح البوابة للتجار والجواسيس والوافدين الجُدد فنسمع منهم الأخبار بالخارج، كل طائر أبيس أبيض يرسله ناتون تتردد الشائعات بأنه هو أوناسيو وسيتم قتله.

زفر بهي ولوّح بيده وتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة ودلف لغرفته.

دخل بهي غرفته وقام بوضع طائره على السرير الخشبي الصغير وأغلق الباب والنافذة جيدًا لئلا يهرب طائره، وقام بنزع ثوبه الجلدي وصار عاري الصدر، نظر للطائر فوجده يدير رأسه بعيدًا عنه، ارتسمت على وجه بهي ابتسامة عابرة وقال مبتسمًا: ما هذا؟ هل أنتِ فتاة؟

أعاد لبس ثوبه الجلدي فحمل طائره وخرج من الغرفة متجهًا نحو أمه التي ما زالت تجلس على الكرسي فسألها بفضول شديد: هل باستطاعتك معرفة نوع الطائر يا أمي إن كان ذكرًا أم أنثى؟

_ ولمَ السؤال؟

_ عندما خلعت ثوبي وصرت عاري الصدر أدار وجهه بعيدًا عني.

_ لا يظهر نوع الطائر، ولكنه ربما هو فتاة كما قلت.

زم بهي شفتيه وهز رأسه فعاد بالطائر إلى غرفته، وضعه على سريره وقال مبتسمًا: لا بأس يا عزيزتي، متأسف على ما فعلته للتو، لم أكن أعرف أنك فتاة.

كان الطائر ينظر في عين بهي بتمعن فسقطت من عيني الطائر قطرات من الدموع كانت عالقة في محجر عينيه، فأجفل بهي حين رأى دموع طائره فحمله مسرعًا إلى أمه وقلبه يخفق من هول ما رأى، اقترب من أمه وسألها عن سبب تلك المياه التي تخرج من عينيّ الطائر فأجابته أمه قائلة: إنها الدموع يا بني.

غضن حاجبيه وقال متسائلًا: وما هي الدموع؟

تنهدت أمه وأجابت بحزن شديد: نحن إن بكينا تتجعد وجوهنا وتنكمش ثم نفقد الوعي، أما البشريون عندما يبكون تدمع أعينهم من فرط الحزن والألم.

امتلأ وجه بهي بالحزن وران عليه صمت مطبق فقال بنبرة مليئة بالحزن: يا لهذا الطائر المسكين، ماذا فعلت يا بهي؟.

أطلق بهي تنهيدة كبيرة ثم نظر إلى أمه فقال: لن أشارك في قتل الطيور الأخرى يا أمي، لقد رق قلبي مرثاة لحال هذا الطائر المسكين.

أجفلت أمه وقالت بحنق: ماذا قلت؟ أنسيت أن من ينسحب من اللعبة يتم إلقاؤه في بحر "الغياهب" عقابًا له؟

_ لن أنسحب من اللعبة يا أمي، أنا سأستخدم اسلوب المراوغة بحصاني ولن أحمل معي جعبة السهام، سأحافظ على حياة طائري الخاص ولن أقتل الطيور الأخرى.

رمقته أمه بنظرات عتاب وقالت: ولماذا شاركت يا بني في المسابقة؟ لقد أوقعتني وأوقعت نفسك في مأزق كبير الآن.

تنهد بهي وقال: لقد أخطأت يا أمي، وسأتحمل خطئي.

دخل بهي غرفته وهو ينظر لطائره مبتسمًا فقال وهو يحدثه: أنا أتحدث اللغة العربية وأعلم أنك تجيدها، سأعلمك بعض الحركات لتقوم بتنفيذها في الغد لتساعدني على بقائك على قيد الحياة، لن أسمح بسقوط نقطة دم واحدة منك، هل تسمعني؟

هز الطائر رأسه فتعجب بهي مما رآه فحمله وقذفه لأعلى ثم التقطه وقال بسعادة: سأختار لك اسمًا مميزًا ليسهل عليك تلقي الأوامر مني، وضع بهي إصبعه داخل فمه وهو يعضه بأسنانه برفق وهو شارد يفكر، نظر لجناحيّ الطائر فقال مبتسمًا: ذلك اللون الأسود المحفوف على جناحيك هو ما يميزك عن الطيور الأخرى، ولذلك سأطلق عليك اسم "أبلق".

كنت أراقب بهيًا وأمه والطائر من النافذة وأنا في قمة السعادة، لقد وقعت أختي في يد متسابق طيب القلب ذي مروءة ويمتلك أمًا طيبة وحنون.

ارتسمت على وجهي سعادة كبيرة عندما رأيت الطائر الذي كان هادئًا وحزينًا من قبل صار الآن مشاغبًا ويطير من حول بهي في سهولة ويسر وينفذ تعليماته جيدًا.

فتحت عينيّ وحررت الكتاب من بين ذراعيّ فوجدتني مستلقيًا على الأرض ويحتاط الجميع بي من كل جانب، كان الجميع ينظر إليّ بشغف وفضول وينتظرون مني التحدث إن كنت رأيت أختي أم لم أرَها، إلا نيڤيا وجدتها تنظر إليّ والسعادة تملأ وجهها فقالت مبتسمة: لقد رآها.

اعتدلت من نومتي والسعادة تجتاحني فقلت مخاطبًا نيفيا: لقد صح ظنك، لقد رأيتها وكأنني معها.

سألتني نيڤيا بفضول شديد: كيف هي؟ هل هي بخير؟

_ هي بخير حال، لقد أوقعها القدر مع متسابق قوي رقيق الحاشية ودمث الخلق يُدعى "بهي".

أجفل أبيدوس حين سمع اسمه وقال بتعجب شديد: بهي! أنا أعرفه جيدًا، لقد عمل معي من قبل في توزيع الذهب للتجار هنا.

صمت أبيدوس هنيهة ثم تابع: هو كما قلت، هو فارس وقوي وذو مروءة، ولكن ما سبب دخوله تلك المسابقة؟

_ هو يريد الفوز باللعبة ليخرج من المملكة ويلتحق بمملكة "الجواسيس" وهو يعرف الملك محب جيدًا، وقد أخبر أمه بأنه لن يستخدم السهام ليقتل بها الطيور الأخرى، سيقوم بالدفاع عن طائره فقط.

نظرت لأبيدوس وقلت له: هل لديك خطة لأنقذ التسعة طيور الأخرى مع إيمان وننقذ أيضًا بهيًا وأمه؟

شرد أبيدوس قليلًا فقال: دعني أفكر في خطة، ما زال الوقت طويلًا لدينا، سأخبرك بخطتي بالليل.

مرّ النهار واختفت الشمس خلف الجبل معلنة الرحيل وجنّ الليل، اتخذنا مضجعنا تلك الليلة في مكان قريب نوعًا ما من بوابة المملكة، كنت أجلس على صخرة صغيرة أتأمل النجوم وهدوء الليل من حولي، جاءت نيڤيا وجلست بجواري فقالت متسائلة: هل تخشى الغد؟

أطلقت تنهيدة كبيرة وأجبتها قائلًا: أنا أخشى خسارة إيمان يا نيڤيا، لن أسامح نفسي طوال عمري إن أصابها أي مكروه، أخشى أن يكون قرار عدم دخولنا المملكة وإنقاذها قبل موعد اللعبة قرارًا خاطئًا، وأخشى أن يكون قرارًا صحيحًا ولن أستطيع إنقاذها.

ارتسمت على وجه نيڤيا ابتسامة كبيرة وقالت: أنا أثق بك يا فارس وأثق بأنك ستنقذها ونعود لمملكتنا لتفرح أمك وتقر عينها.

لاحت على وجهي ابتسامة لطيفة فقلت لها متسائلًا: الفتيات بكوكبكم يتزوجن في عمر مبكر، لماذا تبقين أنتِ كل هذا العمر بلا زواج؟

_ لديّ مواصفات خاصة لزوجي المستقبلي لم أجدها في كل من تقدموا للزواج مني.

_ وما تلك المواصفات؟

تنهدت نيفيا وأجابت بنبرة هادئة: لا أريده أن يقول لي أحبك في كل لحظة، ولا أريده أن يكتبها لي على النجوم والكواكب، ولا أريده أن يقولها لي بكل اللغات، ولا أن يرسمها على المحيطات، ولا أن ينحتها على الجبال، أريده أن يحارب من أجلي الصعاب ليجعلني أتشبث به، أريده أن يظل بجانبي حين يغادرني الجميع، أريد رؤية الحب في عينيه وسأعرف أنه يحبني، فمن لا يرى الحب في عين مُحِبه فلن يبادله ذلك الشعور أبد الدهر ولو اجتمع عليه الكون كله .

صمتت نيفيا هنيهة ثم تابعت قائلة: أريد رؤية الحب في عينيه مثلما أراه في عينيك يا فارس

عقدت حاجبيّ متعجبًا وتسارعت ضربات قلبي فقلت لها متسائلًا وأنا أزدرد ريقي بصعوبة: في عيني أنا؟

لاحت على شفتيها ابتسامة لطيفة وأجابت: نعم في عينيك أنت، أنا أرى حبك لأختك إيمان في عينيك.

سكن قلبي فتنهدت قائلًا: هيا نذهب للنوم أيتها الفيلسوفة، لدينا مهمة صعبة في الغد.

****

أيقظنا أبيدوس قبل بزوغ الفجر وجمعنا حوله ليخبرنا عن خطته، قال مخاطبًا الجميع: سأذهب أنا للحارس الموجود على البوابة وبحكم صداقتي به سأطلب منه الدخول وكأننا تجار عاديون، في الأغلب أي شخص يدخل المملكة يتم عرضه على الحاكم إيتسن ليقرر إن كان يستحق الدخول والمكوث داخل المملكة أم يأمر الحراس بطرده ويعود من حيث جاء، ولكني سأخبر صديقي بأننا سنمكث بالداخل لبعض الوقت ثم سنخرج سريعًا قبل غلق البوابة ودون معرفة باقي الحراس ودون معرفة الحاكم إيتسن، وعندما ندخل سيتسلل سراج ومراد ويصعدان فوق أحد الأسطح القريبة من ساحة الانتقام التي ستلعب بها اللعبة، عندما تبدأ اللعبة سيصوبان سهامهما نحو المتسابقين الآخرين ويقومان بإصابتهم لتتحرر الطيور الخاصة بهم، سيتولى أبريس جمع الطيور الأخرى والخروج بهم من المملكة، وسأذهب أنا إلى بيت بهي وأخبر أمه بخطتنا وأقوم بتهريبها أولًا ثم أقوم بتجهيز الخيول بالخارج وأنتظركم.

صمت أبيدوس هنيهة فنظر لنيڤيا ثم أردف قائلًا: سترافقين فارس أنتِ يا نيڤيا لا يتحرك خطوة إلا وأنتِ معه كظله، سيقتحم فارس الساحة ويقوم بأخذ أخته وستقومين بحمايته حتى يخرج.

نظرت لأبيدوس وسألته بفضول شديد: وبهي؟ ألا نخبره بخطتنا؟

_ بهي ذكي جدًا، سيفطن لخطتنا عند أول سهم يصيب المشتركين الآخرين.

_ وماذا لو دخلنا فوجدنا أنفسنا وقعنا في فخ مثلما حدث معنا في مملكة "موريكا"؟

_ إيتسن يعلم أنك ستدخل لتنقذ أختك، عندما أرسلها ناتون إليه من المؤكد أنه قد أخبره أنها أختك وأنها تمتلك الدم النبيل، وأيضًا عندما قتلت أنت ناتون من المؤكد أيضًا أن ابنيه رع وموراس قد أخبراه بما فعلت وحذراه من قدومك، نعلم كل هذا يا فارس ولكن ليس أمامنا خيار آخر لننقذ أختك، سنأخذ حذرنا ونجتهد والباقي في أيديكم.

ران على الجميع صمت مهيب، فرمقني أبيدوس بنظرات ثاقبة وقال برجاء: لا تفعل شيئًا بالداخل يجذب الأنظار إليك يا فارس لا مجال للأخطاء اليوم.

هززت له رأسي فأضاف: هيا لندخل الآن، ستُفتح البوابة في وقت قريب.

سرت نحو حصاني فأوقفني "أبيدوس" قائلًا: سأقوم بتبديل حصاني معك حتى تنقذ أختك وتعود بها لمملكة الجواسيس هو حصان سريع وذكي، سيساعدك في العودة سريعًا إن حدث أي تغيّر مفاجئ في الخطة.

قام أبيدوس بتسليمي أنا ومراد زيًا خاصًا مصنوعًا من عدة طبقات من الجلد المتين يحمينا من السهام وضربات السيوف، وقام بإعطائي قناعًا جلديًا لأغطي به رأسي حتى لا ينتبه أحد لشعري الأسود، امتطيت حصان أبيدوس الضخم وسرنا نحو البوابة، كان التجار المنتظرون بالخارج يسجلون أسماءهم على البوابة قبل الدخول، ذهب أبيدوس نحو البوابة وقام بالتحدث مع أحد الحراس وهو يعانقه ويتبادلان الابتسامات، أشار أبيدوس للحارس إلينا فهز رأسه مبتسمًا فأشار لنا أبيدوس بأن نذهب إليه، دخلنا دون تسجيل أسمائنا، قمت بلبس القناع الجلدي الذي صنعه لي أبيدوس كان الصخب والهرج يخيّم على المملكة بالداخل، إنه عيد الاستقلال اليوم، لا عمل اليوم في كل أرجاء المملكة، الجميع بدأ يتوافد لساحة "الانتقام" لمشاهدة اللعبة والاستمتاع بقتل الطيور البشرية، كنت أخشي اختلافي عن الناس بالداخل بسبب قناعي المختلف والمُلفت، لكني تفاجأت بعدد كبير من الناس يلبسون الأقنعة بالداخل وكأنها حفلة تنكرية، كانت الخمور تباع بكثرة ويقوم بشربها حتى الأطفال، صوت ضحكات النساء المتسكعات، قتال ينشب بسبب كأس من الخمر، سرقة علنية في وضح النهار، كانت الحياة أشبه بالجحيم هنا، لقد عرفت الآن لماذا تم تسميتها بمملكة "الغوائل"!

قمنا بترك الأحصنة وربطها في مكان مخصص لها، تفرّق الجميع وذهب كل منا لمهمته، حجز أبريس مكانًا قريبًا من حافة الساحة منتظرًا بدء اللعبة، كنت أجول بناظريّ في كل ركن بالمملكة، لقد كان الوضع بالداخل مأساويًا جدًا، كان بعض الحراس يمسكون برجل عجوز ويصعدون به أعلى السور،

كان الجميع بالأسفل يهتفون ويرفعون كؤوس الخمر ويعلو هتافهم، وقف أحد الحراس وهو ممسك بالعجوز أعلى السور وتمتم ببعض الكلمات بلغتهم فصاح الجميع وهم يهللون في سخرية وسُكْر، نظرت لنيڤيا وسألتها بفضول شديد: ماذا قال الحارس؟

أجابت نيڤيا بنبرة مليئة بالحزن وقالت: لقد قال إن هذا العجوز كان جائعًا فسرق الخبز وسيتم معاقبته برميه في بحر "الغياهب" ليكون عبرة لغيره.

هممت بالذهاب والصعود أعلى السور لأنقذ العجوز فأمسكت نيڤيا بذراعي وقالت هامسة: لا تُلفت الأنظار إليك يا فارس سينكشف أمرنا.

زممت شفتيّ وأطلقت تنهيدة كبيرة وقد اغرورقتا عيناي بالدموع وقلت بصوت حزين متقطع: سأوقف هذا كله عما قريب، سأوقفه يا نيڤيا.

قام الحارس برفع العجوز عاليًا بكلتا يديه وهو يصرخ مستنجدًا وسط ضحكات الجميع الساخرة بالأسفل فقام بقذفه في البحر بلا رحمة.

ربتت نيڤيا على كتفي وقالت بهدوء: هيا نتجول في شوارع المملكة قليلًا قبل بدء اللعبة.

أثناء تجولنا في شوارع المملكة سرق نظري فتاة صغيرة سوداء الشعر بعينين سوداوين كانت مقيدة في كلتا يديها وقدميها بالسلاسل ومربوط في عنقها حبل غليظ ويجرها رجل طويل القامة وقوي الجسد، وكان أحد الأطفال يقوم بالاقتراب منها ويصفعها على وجهها ثم يهرب مبتعدًا وسط ضحكات وسخرية الجميع، كبيرهم وصغيرهم، ثم يعود طفل آخر ويكرر الأمر نفسه والفتاة تصرخ وتذرف الدموع من عينيها وتبكي بشدة، نظرت لنيڤيا وقد اتسعت حدقتا عينيّ من هول ما رأيت فقلت بتعجب: إنها بشرية يا نيڤيا.

هزت نيڤيا رأسها في حزن شديد فاقتربتُ للفتاة وجثوت على ركبتيّ وحدثتها قائلًا: ما اسمك؟

كانت شفتا الفتاة ترتجف وجسدها بالكامل يرتجف والدموع تنهمر من عينيها بغزارة ولم تُجب.

سألتها مجددًا: هل أنتِ من قرية بني حميل؟

هل تعرفين اسم والدك، أو اسم والدتك؟

كان الجميع من حولي يراقبون وينصتون لتحدثي مع الفتاة في ترقب وشغف، هززت رأسي للفتاة وقلت لها مبتسمًا: قولي لي ما اسمك لأنقذك.

اشتد بكاؤها ووجدتها ترفع يديها المقيدة بالسلاسل وكأنها تطلب مني أن أعانقها، فعانقتها وهي تبكي فشعرت بقشعريرة قد ملأت من أعلى رأسي وحتى أخمص قدمي، فوجدت نفسي أبكي لبكائها وأتألم لألمها، اقترب إليّ الرجل الذي كان يجرها بالحبل وصار يتمتم ببعض الكلمات بلغته فدفعني بقدمه في ظهري فنهضت إليه وقمت بلكمه على وجهه لكمة قوية فقد على إثرها وعيه.

عمت الفوضى المكان وهرب الجميع مبتعدين عنا وهم يرددون: بوبو، بوبو.

قمت بتحرير الفتاة الصغيرة من السلاسل فوجدت أبيدوس يهرول نحوي بحصانه فحملت إليه الفتاة وأخبرته بأن يخرج بها من المملكة ويُبقيها مع أم بهي بالخارج.

كانت نيڤيا ترمقني بنظرات ثاقبة فزفرت قائلًا: أعلم أني أخطأت يا نيڤيا ولكني لم أستطع تحمل هذا، لقد كنت أعاني بقريتنا مثلها يا نيڤيا، لقد كنت أنا وإيمان نتعرض للنبذ والتنمر مثلها، لم أستطع تجاهل دموعها صدقيني.

لاحت على وجهها ابتسامة لطيفة وقالت مبتسمة: لو فعلت العكس يا فارس لصغرت في نظري، وكيف تظن أن ما فعلته قد أغضبني؟ ألم تنتبه أني لم أوقفك وأنت تقترب إليها؟.

_ وماذا سنفعل الآن؟ هل سيوثر ما فعلته للتو على خطتنا؟

_ سنذهب للساحة وكأننا أناس عاديون، تلك اللعبة هي شيء مقدس في تلك المملكة، حتى لو تم احتلال مملكتهم ستقام اللعبة في موعدها.

ذهبنا للساحة وقد تجمع الكثير من الحضور والمشاهدين وهم يهللون ويهتفون باسم الحاكم إيتسن الذي كان جالسًا قريبًا من الساحة ويجلس بجواره مستشاروه وبعض الوزراء ويلتف حوله الكثير من الحراس، نظرت لأبريس فهزّ لي رأسه مبتسمًا، ذهبت بناظري صوب سراج ومراد على سطح أحد البيوت القريبة من الساحة فوجدتهما واقفين وهما على أتم الاستعداد، رفع الحاكم إيتسن يده في إشارة منه لدخول المتسابقين العشرة وبدء اللعبة، بدأ المتسابقون في الدخول للساحة ويمتطي كل متسابق حصانه ويقف على كتف كل متسابق طائره الخاص وصاروا يلتفون حول بعضهم البعض في شكل دائري مهيب، أصيب الجميع بالذهول عندما رأوا كل متسابق يحمل قوسه ودرعه وجعبة السهام الخاصة به خلف ظهره إلا بهي، لم يكن يحمل قوسًا ولا جعبة سهام، كان يحمل درعين فقط في كلتا يديه ويتحكم بالحصان بواسطة قدمية، تعالت الهمهمات بين الحضور ما بين ساخر ومتعجب، كان بهي ينظر لطائره وهو مبتسم ويهز له رأسه وكأنه يأمره بالاستعداد، أطلق أحد الحراس جرس البداية فانطلق المتسابقون وصاروا يوجهون لبعضهم بعض السهام الخاطئة وكأنها مناورة، انطلق سهم فجأة صوب أحد المتسابقين فأسقطه من على حصانه فهرب منه طائره وصار يحلق داخل الساحة محاولًا الخروج، نظر إليّ أبريس فأشرت له بأن ينتظر، فجأة انطلق وابل من السهام في اتجاه الساحة كان قادمًا من أحد الأسطح القريبة، كانوا مجموعة كبيرة من الحراس يبدو أنهم قد تم تجهيزهم من قبل إيتسن إن حدثت خيانة أو حدث شيء مفاجئ، انقسم الحراس لنصفين، نصفهم صار يوجه السهام صوب سراج ومراد والنصف الآخر يقوم بتصويب السهام نحو الساحة، هرب سراج ومراد وصار كل الحراس يوجهون كل سهامهم نحو الساحة، كان بهي ما زال صامدًا على ظهر حصانه ويقوم بصد كل السهام الموجهة إليه بدرعيه، انسحب كل المتسابقين وخرجوا من الساحة هربًا من السهام وقد قُتلت كل طيورهم وبقي بهي بالداخل صامدًا يصد كل السهام الموجهة إليه وطائره يلتف حوله ويستمع لتعليماته ويقوم بتنفيذها بعناية، أصيب طائره بسهم أصاب جناحه الأيسر

فسقط على الأرض بلا حراك، خفق قلبي حينها بشدة وصرت أنظر لنيڤيا وأقول لها صارخًا: ستموت أختي يا نيڤيا لا بدّ أن نفعل شيئًا.

صاحت نيڤيا قائلة: إنهم يطلقون السهام بطريقة وحشية، لو اقتحمنا الساحة سنموت جميعًا.

كان الحراس ما زالوا يوجهون السهام نحو بهي وطائره، ترجل بهي من على ظهر حصانه وجثم على طائره ليحميه من السهام وجعل ظهره عرضة للسهام ، تلقى بهي العديد من السهام في ظهره، عمت الفوضى المكان واخترقت جموع غفيرة من الناس الساحة والتفوا حول بهي وطائره بشكل دائري وأصبحوا يتصدون للسهام القادمة إليهم بأجسادهم وأصبحوا يتساقطون واحدًا تلو الآخر وكأنهم قد دخلوا الساحة لتنفيذ عملية انتحارية، بدت علامات الدهشة على وجه الحاكم إيتسن فقام من على كرسيه وقد اتسعت حدقتا عينيه ذهولًا وهو ينظر للمشهد الحاصل أمامه داخل الساحة، صعد مجموعة من الناس إلى السطح الذي يتواجد عليه الحراس الذين يطلقون السهام فقاموا بقتالهم وطردهم، احتاط الحراس بإيتسن وقاموا بحمايته وتهريبه لقصره، كنت أنظر للمشهد بتعجب شديد وكذلك يفعل أبريس ونيڤيا، ربتت يد على كتفي من الخلف فالتفت فوجدته أبيدوس، فابتسم وقال صائحًا: هيا قم بتهريب أختك و بهي، لقد أخبرت بعض الشرفاء هنا بحقيقتك فقرروا مساعدتك.

دخلت الساحة وتبعتني نيڤيا وأبريس، كان المشهد داخل الساحة مشهدًا داميًا ينفطر له القلب وتدمع له العين، امتلأت الساحة بالقتلى والمصابين الذين يصارعون الموت ويلتقطون أنفاسهم الأخيرة، اقتربت لبهي وقد كانت السهام مغروزة في ظهره بكثرة والدماء تسيل منه بغزارة، قام أبريس بحمله وأخرج الطائر من أسفله، كان بهي يفتح عينيه وينظر لطائره ويراقبه بنظرات هادئة، كان الطائر يحرك جناحيه ببطء ويفتح عينيه ويحاول الطيران نحو بهي، ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه بهي حين رأى طائره يحرك جناحيه فتمتم ببعض الكلمات والدماء تخرج من فمه، اقتربت بأذني إلى فمه وقلت له: هل تقول شيئًا؟

قال بصوت هامس متقطع: هل هي فتاة؟

هززت له رأسي مبتسمًا وقلت له: هي أختي إيمان وأنا أوناسيو.

لاحت على وجهه ابتسامة لطيفة وقال وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة شديدة: قم بإنقاذها يا أوناسيو حتى أشعر أنني فعلت شيئًا صحيحًا في حياتي.

قال بهي تلك الكلمات فسقط رأسه جانبًا وانقطعت أنفاسه وفارق الحياة.

بدت علامات الحزن على وجه نيڤيا وأبريس وسقطت الدموع من عينيّ وأنا أحمل الطائر وأخرج به من الساحة، خرجت من الساحة وكان أبيدوس ينتظرنا وقد جهز لنا الأحصنة وأخبرني بأن أغادر أنا ونيڤيا نحو أول جبل من جبال "المنيف" ونصطحب معنا الفتاة الصغيرة وأم بهي وسيتخلف عنا هو وسراج وأبريس ومراد ليقوموا بردع بعض الحراس الذين سيحاولون اللحاق بنا ثم يلحقون هم بنا، نظر أبيدوس للطائر وصار يتفحص جناحه المصاب وهو تسقط منه قطرات دماء فقام بتضميد جرحه سريعًا وقام بربطه، أمرني بألا أتعجل وأقوم بتحويل الطائر، قال إنه خفيف الوزن سهل التنقل به وهو طائر في حالته الآن.

حملت الطائر وخرجت أنا ونيڤيا مسرعين من المملكة.

****

على بُعد مسافة قريبة من البوابة وأسفل إحدى الصخور الكبيرة كانت تجلس أم بهي وتضع الفتاة الصغيرة رأسها على ركبتيها وهي غارقة في النوم، نظرت أم بهي خلفنا بحثًا عن ابنها، نظرت للطائر في يدي وقالت بقلق: أين بهي؟

ران عليّ صمت مهيب وأنا أنظر لنيڤيا وتنظر هي إليّ ولم ننبس ببنت شفة، استيقظت الفتاة الصغيرة فلما رأتني هرولت إلي وعانقتني والدموع تذرف من عينيها بغزارة.

بدا القلق على وجه أم بهي وقالت بصوت حزين: مات ابني أليس كذلك؟

أطبقت عينيّ حزنًا وكمدًا والدموع تنهمر منهما فهززت لها رأسي بحزن شديد فتجعد وجه أم بهي فجأة وانكمش وفقدت الوعي وسقطت على الأرض مغشيًا عليها، هرولنا إليها مسرعين فوضعت نيڤيا يدها على عنقها وصارت تتحسس نبضها، نظرت لنيڤيا وقلت: لقد بكى قلبها على ابنها وفقدت الوعي حزنًا عليه، لنحملها ونغادر يا نيڤيا.

صمتت نيڤيا وطأطأت رأسها وقد بدا عليها التأثر والحزن فقاطعت صمتها قائلًا: هيا بنا نحملها ونغادر يا نيڤيا.

تنهدت نيڤيا وقالت بنبرة حزينة: هي لم تفقد الوعي يا فارس.

رمقتها بنظرات متعجبة فتابعت قائلة: لقد ماتت.

شعرت حينها بدوار كاد يسقطني أرضًا وبصداع شديد كاد يشق رأسي لنصفين، نظرت لأم بهي وهي ممددة على الأرض فانهمرت الدموع من عينيّ وقلت باكيًا: كنت أود أن أشكركِ على تربيتك لابنك تربية صالحة، لقد أنقذ أختي كما لو أنها أخته.

ربتت نيڤيا على كتفي وقالت بنبرة حزينة: أختك تصارع الموت يا فارس، إن تأخرنا في العودة ستختنق حتى الموت، يجب أن نعرضها على الأطباء بسرعة.

كانت الفتاة الصغيرة واقفة تمسك بملابسي الجلدية ومتشبثة بها، نظرت إليها وقلت لها بهدوء: ستحملك نيڤيا على حصانها وأنا سأحمل هذا الطائر، سأعيدك لعائلتك عندما نصل لمملكة "الجواسيس".

هزت الفتاة رأسها وصارت تمسح بيديها دموعها التي تملأ وجهها، غادرنا المكان تاركين أم بهي أسفل الصخرة ونحن نراقبها بنظرات الحزن والوداع حتى اختفت عن أنظارنا، كنا نجري بالحصانين بطريقة جنونية، كنت أتفقد الطائر كل فينة والأخرى فأجده يفتح عينيه قليلًا ويحرك جناحيه ثم يعود ويفقد الوعي، كنت أشفق على الفتاة الصغيرة كثيرًا، خمسة أيام تفصلنا عن مملكة "الجواسيس"! تلك مدة طويلة جدًا لفتاة صغيرة ربما لم تعتَد على تلك الرحلة الطويلة والشاقة من قبل، تمنيت لو أننا بالأرض، كنا سنعبر كل تلك المسافة في غضون ساعات بسيارة أو بأي وسيلة أخرى، وصلنا للجبل الأول من جبال " المنيف" بعد مغيب الشمس بقليل، شعرت بالضيق الشديد حينها لأننا لن نتمكن من عبور الممر إلا في الصباح عندما ينضم إلينا البقية، وربما يرفض أبيدوس عبورنا للممر في الصباح لأن الوحش سيكون في قمة ذروته، وقفنا قريبًا من الجبل في انتظار أبيدوس وبقية الرفاق وقد اشتد الظلام، دوى صوت شهيق وزفير وحش الجبل وصار يزوم ويزأر بصوت عال داخل الممر، أجفلت الفتاة الصغيرة وأصيبت بالرعب الشديد وهي ترتجف بشدة، ربتت نيڤيا على كتفها وصارت تمسح بيدها شعرها الأسود الأملس وتقوم بتهدئتها، حملت الطائر ووضعته على الأرض وطلبت الكتاب من نيڤيا. نظرت إليّ نظرة تعجب وقالت: لِمَ تريد الكتاب؟

_ سأقوم بتحويل الطائر الآن.

_ أنسيت ما قاله أبيدوس؟ المسافة من مكاننا هذا إلى مملكة "الجواسيس" طويلة جدًا، لو حوّلتها الآن ستصعب المهمة علينا، هي أخف وزنًا الآن وتستطيع حملها بسهولة.

_ لا أستطيع الانتظار يا نيڤيا، لقد اشتقت إليها كثيرًا، وأيضًا أخشى إن عُدنا بها لمملكة "الجواسيس" أكتشف أنها ليست إيمان.

_ ألم تعرفها بقلبك كما أخبرك الحكيم أتوم؟

_ قلبي يخبرني بأن هذا الطائر هو أختي، ولكني أخشى المفاجآت.

ران على نيڤيا صمت خفيف فهزت كتفها بارتياب ومدت لي الكتاب فأخذته منها وفتحت الصفحة التي تحوي التعويذة فوضعت إصبعي على الرموز بالترتيب كما علمني الحكيم أتوم وصرت أردد الحروف أسفل الرموز وأضع يدي اليسرى على رأس الطائر، فجأة دوى صوت صفير شديد تردد صداه في آذاننا بشكل مزعج، وضعنا أصابعنا في آذاننا من شدة الصوت، هبت بعد ذلك عاصفة شديدة فشعرنا بحبات الرمل وهي تنقر وجوهنا نقرًا، احتاطت دوامة ضبابية بالطائر وصارت تدور حوله بشكل دائري وهو غير مرئي بداخلها، توقف صوت الصفير وهدأت العاصفة وتلاشت الدوامة الضبابية فوجدت أختي إيمان ممددة على الأرض بنفس فستانها الوردي الذي كانت تلبسه حين اصطحبتها معي لزيارة الجبل، رفعت رأسها وقمت باحتضانها وأنا أبكي وأردد باكيًا: إيمان يا قطعة السكر خاصتي، يا وتيني ووطني وملاذي، لقد اشتقت إليكِ كثيرًا يا نبض قلبي.

اقتربت إليّ نيڤيا وصارت تطالعها بنظرات باسمة فقالت: لم أكن أتوقع أنها بكل هذا الجمال يا فارس.

فتحت إيمان عينيها ونظرت إليّ فابتسمت وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة وتمتمت بكلمات لم أتمكن من سماعها فاقتربت إلى فمها بأذني وقلت لها بلهفة: ماذا قلتِ يا إيمان؟

قالت بصوت متحشرج: لقد تأخرت أيها الساذج.

ضحكت وقلت لها مازحًا: ألم يُنقص هذا الأسر من لسانك ولو قليلًا أيتها الساذجة.

وتابعت ممازحًا: أشعر أن كل ما حدث لنا هذا بسبب ارتدائك لذلك الفستان الوردي، فهو يجعلك جميلة والجميلات يتعرضن للخطف من قِبَل الكواكب والنجوم.

لاحت على شفتيها ابتسامة لطيفة وصارت تسعل وعادت ففقدت وعيها مرة أخرى.

اقتربت إليها نيڤيا فوضعت يدها على عنقها وتحسست نبضها وقالت بنبرة حزينة: إنها تواجه صعوبة في التنفس بسبب فقدانها بعض دمائها، لن تتحمل عناء رحلة العودة إلى مملكة "الجواسيس"، تحتاج لرعاية طبية عاجلة.

اقتربت إليّ الفتاة الصغيرة فجلست بجواري وهي تطالع إيمان بنظرات الشفقة، سألتها بفضول:

_ ما اسمك؟

أطالت النظر إليّ ولم ترد.

_ هل تسمعينني؟

فابتسمت وهزت رأسها بأنها تسمعني.

سألتها نيڤيا قائلة: هل تجيدين الكتابة والقراءة لتكتبي على الرمال اسمك أو اسم عائلتك؟

صمتت الفتاة قليلًا ثم هزت رأسها بالنفي.

قالت نيڤيا: يبدو أنها صماء، أو ربما أصيبت بالصم جراء معاناتها هنا وتعذيبها بطريقة وحشية.

سألتُ نيڤيا بفضول شديد: كيف لبشرية مثلها لا يتم تحويلها لطائر أبيس؟

_ الأطفال الذين يدخلون غرفة استقبال الأشخاص القادمون من الأرض لا يتم تحويلهم، كان يتم تحويلهم في السابق ولكن إيتسن أمر ناتون بألا يحوّل طفلًا أو عجوزًا، لأنهم يكونون بطيئي الحركة داخل اللعبة ويفسدونها، يتم قتل الأطفال بأمر من ناتون ويقوم بشرب دمائهم ظنًا منه بأنه سيمتلك القوى الخارقة، أما الشيوخ فكان يقتلهم ويقدمهم طعامًا لوحوش جبال "المنيف" ليعتادوا على أكل اللحوم البشرية.

ران على نيفيا صمت مهيب وهي تنظر للفتاة الصغيرة فتابعت قائلة: لكن لا أجد تفسيرًا لترك تلك الفتاة على قيد الحياة.

نظرت الفتاة الصغيرة إلينا وهي تبتسم فأشارت بيدها اليمنى وهي تُحكم قبضة يدها وتمد يدها للأمام.

قلت لها مبتسمًا: تقصدين لكمة؟

هزّت الفتاة رأسها مبتسمة فسألتها بفضول: وماذا حدث بعد اللكمة؟

صارت تحك أصابعها ببعضها وأشارت بكف يدها بعيدًا.

كانت نيفيا تنظر إليّ بتعجب شديد فقالت: هل تجيد التحدث بلغة الإشارة يا فارس؟

أجبتها مبتسمًا: لا أجيدها، ولكنني فهمت ما أشارت به تلك الفتاة.

تنهدت وأردفت قائلًا: اللكمة التي أشارت بها هي أنها قامت بلكم الحراس أو ربما لكمت ناتون نفسه، وحك الأصابع ببعضها نستخدمها نحن في الإشارة إلى الأموال، يبدو أن الرجل الضخم الذي كان يكبلها بالسلاسل في مملكة "الغوائل" كان حاضرًا وقت دلوفها لغرفة الاستقبال فأُعجب بجرأتها وذكائها فابتاعها من ناتون وذهب بها إلى مملكة "الغوائل" ليستخدمها في عروضه ويجمع بواسطتها الذهب والفضة.

سمعنا صوت خطوات أحصنة قادمًا إلينا، ظهر أبيدوس أولًا ثم ظهر الجميع من بعده، اطمأن قلبي حين رأيتهم جميعًا ولم يصب أي منهم بمكروه، ترجل أبيدوس من على ظهر حصانه واقترب إليّ وهو ينظر لإيمان بذهول شديد، قاطعت نظراته قائلًا: لم أستطع الانتظار يا صديقي، لقد كنت قلقًا على أختي.

أطلق أبيدوس تنهيدة طويلة وقال: أعلم ما تشعر به يا فارس ولا ألومك على قلقك عليها، ولكنها الآن لن تتحمل عناء رحلة العودة لمملكة "الجواسيس".

ران على الجميع صمت مطبق، جلس كل شخص منا في مكان منعزل بينما بقيت الفتاة الصغيرة بجانبي وهي متشبثة بي وتنظر للنجوم والكواكب العملاقة في السماء وتقلب ناظريها إلى كل نجمة وكوكب.

وقف أبيدوس فجأة وقال: خمسة أيام هي مدة طويلة جدًا لن تتحملها أختك، لديّ خطة لو تمت سنصل لمملكة "الجواسيس" في أقل من يوم.

نهضت من مكاني واقتربت إليه وسألته بفضول شديد: وما تلك الخطة؟

_ خطتي هي أن تروض وحوش الجبال الأربعة ونستخدمها لتوصلنا إلى مملكة "الجواسيس".

نهض الجميع من أماكنهم واقتربوا إلينا فتابع أبيدوس قائلًا: ستقوم بترويضهم أولًا ثم تحررهم من قيودهم بواسطة الكتاب.

_ وكيف أحررهم؟

_ تضع يدك على رأس الوحش وتقوم بترديد التعويذة الخاصة به مثلما فعلت مع إيمان.

_ وماذا لو هاجمني حين يرى الكتاب بيدي مثلما فعل مع نيڤيا.

_ ستقوم بترويضه أولًا ثم بعد ذلك تحرره، صعوبة المهمة تكمن في ترويضه، لو استطعت ترويضه فلن يهاجمك.

ران عليّ صمت طويل وصرت أسير أمام الجميع جيئة وذهابًا وأنا أفكر ثم توقفت والتفتُ لأبيدوس وسألته قائلًا: هل سأفعل الأمر نفسه مع الوحوش الأربعة؟

_ تلك الوحوش الأربعة تجمعها روح واحدة، لو رددت التعويذة على أي وحش منهم ستتحرر كل الوحوش، ولو قمت بترويض الوحش هنا ثم حررته وطلبت منه المساعدة سيدعو رفاقه لينضموا إليه.

صمتّ وصرت أنظر للجميع في حيرة وتردد، تذكرت تحذير أمي من تلك الوحوش، وتحذير الملك محب والحكيم أتوم، نظرت لإيمان وهي ممددة على الأرض وفاقدة الوعي تصارع الموت فآلمني حالها فلم أكترث لتحذيرات

الجميع ولم آبه لها، التفت نحو أبيدوس وسألته: هل تستطيع إيجاد التعويذة التي تحرر تلك الوحوش؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة فقال: سأحاول، ومن يحاول سيصل لمبتغاه في نهاية الأمر.

أخذ أبيدوس الكتاب مني وصار يقلب في صفحاته بحثًا عن التعويذة، بعد بحث طويل شهق أبيدوس وقال بسعادة: ها هي، لقد وجدتها.

نظرت لحيث يشير بأصبعه فوجدت التعويذة مكونة من ثلاثة رموز، رمز قرص الشمس ورمز زهرة اللوتس ورمز رأس الديناصور، وأسفل كل رمز مجموعة أحرف خاصة بكل رمز، صار أبيدوس يكرر ترديد الأحرف أمامي وطريقة نطقهم حتى حفظتهم جميعًا، أمرت الجميع بالابتعاد عن الجبل والبقاء بعيدًا، وطلبت منهم ألا يساعدني أحد حتى لو هاجمني الوحش، امتطيت حصان أبيدوس وسرت نحو الجبل بحذر، دخلت الممر وكان صوت شهيق وزفير الوحش عاليًا فصرخت بأعلى صوتي ليقوم بمطاردتي، سمعت صوت خطواته وهو قادم نحوي فخرجت سريعًا من الممر والوحش يطاردني، توقف الوحش عند نهاية السلاسل المكبل بها وصار ينظر إليّ ويزوم ويزأر بوحشية ويرفع قدميه الأماميتين نحوي، ترجلت من على ظهر الحصان واقتربت إليه، كان الوحش هائجًا جدًا ويسيل لُعابه كريه الرائحة من بين أنيابه، نظرت في عينيه طويلًا وأخرجت الكتاب من داخل ملابسي الجلدية وفتحت الصفحة التي تحوي التعويذة الخاصة به فثار وهاج وحاول مهاجمتي حين رأى الكتاب ولكن السلاسل المقيد بها تمنعه من الاقتراب، هطلت الدموع من عينيّ بغزارة وقلت باكيًا: أرجوك، أختي ستموت، سأقوم بتحريرك نظير مساعدتك لي، هدأ الوحش قليلًا والتقت عيناه بعينيّ فجثا على قدميه الأماميتين في هدوء وسكينة، تعجبت حين رأيته هادئًا هكذا، هل فهم لغتي! أم رق قلبه لدموعي؟

اقتربت إليه ووضعت يدي على رأسه وبدأت في ترديد التعويذة وحين انتهيت تقطعت السلاسل فجأة ونهض الوحش من مكانه وصار يركض أمامي غاديًا ورائحًا ويقفز لأعلى وهو في حالة كبيرة من السعادة والانتشاء

وكأنه يحتفل بطريقته الخاصة، اقترب إليّ أبيدوس بينما بقي الجميع في أماكنهم خائفين من الوحش ويترددون في المجيء إلينا، ارتسمت سعادة كبيرة على وجه أبيدوس وقال بسعادة: فارس، مُرهُ الآن أن يدعو رفاقه لينضموا إليه.

وقفت أمام الوحش وطلبت منه مساعدتنا في العودة لمملكة "الجواسيس" لننقذ أختي وأن يدعو رفاقه للانضمام إليه ومساعدتنا.

أطلق الوحش زئيرًا عاليًا وظل يكرره عدة مرات، بعد مدة ليست بالطويلة بدأت الوحوش الثلاث الأخرى تتوافد إلينا واحدًا تلو الآخر، كان يفصل بين وصول كل وحش حوالي ساعة أو أكثر، جثت كل الوحوش على أقدامها الأمامية فحملت إيمان وصعدت فوق ظهر أحدها وحملت نيقيا الفتاة الصغيرة وصعدت على ظهر الوحش الآخر وكذلك فعل البقية، انطلقت بنا الوحوش صوب مملكة "الجواسيس" بسرعة جنونية، استطعنا الوصول إلى حدود المملكة وقت طلوع الشمس، توقفت الوحوش فجأة وجثت على الأرض عند أحد الجبال قبل حدود مملكة "الجواسيس"، نظرت لأبيدوس متعجبًا فقال: لديها حدود يا صديقي لا تستطيع اختراقها.

نزلنا من فوق ظهورها وقمنا بتوديعها فانطلقت الوحوش عائدة إلى جبال "المنيف"، أكملنا السير نحو المملكة مشيًا على الأقدام، كنت أنظر في وجه إيمان وأنا أحملها والسعادة تجتاحني، تنهدت وقلت بسعادة: سترين أمك اليوم يا إيمان، ستفرح بكِ كثيرًا.

فجأة ظهر أمامنا رع ومواس ابنا ناتون ومعهم بعض الجنود وقد خرجوا من وراء الجبل، التفوا حولنا بأحصنتهم وصاروا يطوفون حولنا وهم متوشحون بسيوفهم وسط دهشتنا وتعجبنا الشديدين، ترجلوا من على أحصنتهم واحتاطوا بمن معي ووضعوا السيوف على أعناقهم، تحدث رع بلغته وكان بجانبه حارس يترجم لي ما يقوله وقال لي: يقول لك ارجع بضع خطوات للخلف مبتعدًا عنهم حتى لا تخسر رفقاءك، رجعت للخلف بضع خطوات فوجدت رع يمد يده إلي ويتمتم بكلمات بنبرة حادة وصارمة، قال لي الحارس بجواره أنه يطلب مني تسليمه الكتاب حتى لا يقطع أعناق

أصدقائي، صاح سراج قائلًا: لا تعطه الكتاب يا فارس لأخسر حياتي خير لي من أن يكون الكتاب في يد أشخاص كهؤلاء، لكمه الحارس الذي كان يضع السيف على رأسه لكمة قوية وقال له بغضب: توقف عن الثرثرة وإلا قتلتك.

صاح أبريس قائلًا: لا تعطه الكتاب يا فارس سيفعلون به الأفاعيل مثلما فعل أبوهما بالكتاب الذي كان بحوزته من قبل.

نظرت لنيقيا فوجدتها تهز رأسها بأن لا أسلمهم الكتاب، ران عليّ صمت مهيب ولم أنبس ببنت شفة، نظرت لإيمان وأنا أحملها بيدي وهي تحاول التقاط أنفاسها بصعوبة، عدت ونظرت للجميع والسيوف على أعناقهم وكلهم يصيحون بأن لا أسلمهم الكتاب، تذكرت حينها تضحية أبي بنفسه وتضحية أمي أيضًا، تذكرت وقوف أبي على منصة الإعدام وقد آثر الموت على أن يسلمهم الكتاب فيؤذون به الناس هنا، وضعت يدي داخل ملابسي الجلدية وأخرجت الكتاب فقذفته على الأرض.

اقترب أحد الحراس إليّ والتقط الكتاب من الأرض وسلمه لرع وسط سعادته وسعادة أخيه موراس بجانبه، امتطوا الأحصنة وأسرعوا مبتعدين عنا.

اقترب إليّ سراج وقال بغضب شديد: قلت لك لا تسلمه الكتاب، ماذا فعلنا الآن؟ أكل ما فعلناه من أجلك ومن أجل أمك وأختك وكل الناس هنا ذهب هباءً؟

وتابع بنفس نبرته الغاضبة: لقد وضعوا السيف على عنق أبيك وطالبوه بتسليم الكتاب ولكنه ضحى بنفسه وبأمك من أجلنا، وأنت رفضت التضحية بأربعة أشخاص وأعطيتهم الكتاب!

زممت شفتيّ وقلت بهدوء: اهدأ يا سراج، والله إن أرواحكم أغلى عندي من ألف كتاب، القوة تكمن فينا نحن يا صديقي لا في الكتاب، الكتاب مجرد أداة فقط، مثله مثل السيف في يد المحارب، والسيوف وقت الحروب لا تُكافئ إلا المجتهدين والباسلين فقط، فلو وضِع أعظم السيوف في يد جبانٍ رِعديد وخاض به ألف قتال ما شفع له السيف ولا نصره.

ران على الجميع صمت مهيب وعلامات الحزن تملأ وجوههم، اقترب إليّ أبيدوس وقال بنبرة حزينة: حين كنا في مملكة "الغوائل" وقبل بدء اللعبة تفاجأت بأن إيتسن لم يأخذ حذره وقت دخولنا ولم ينصب لنا فخوخًا داخلها، الفخ الوحيد الذي نصبه وهو مجموعة الرماة الذين أرسلهم إلى أحد الأسطح القريبة من ساحة الانتقام وهذا حدث بعدما قمت بتهريب الفتاة الصغيرة من المملكة وبعد ترديد الناس اسم بوبو داخل المملكة.

صمت أبيدوس هنيهة ثم أردف قائلًا: هذا يعني أن رع و موراس لم يخبرا إيتسن بمقتل أبيهما، ولم يخبره ناتون أيضًا بأن أحد الطيور التي أرسلها هو أختك.

عقدت حاجبيّ متعجبًا وسألته بفضول: لماذا لم يخبروه بكل تلك الأشياء؟

تنهد أبيدوس وأجاب: ربما فعلوا ذلك متعمدين لتقوم أنت بالقضاء على إيتسن والقضاء على مملكته ونفوذه، حين دلفت أختك الكوكب وعرفها ناتون ربما تعمد تحويلها وإرسالها سريعًا إلى مملكة "الغوائل" ليجبرك أن تقتحمها وتقضي على إيتسن فهو يعلم أنك تمتلك قوى خارقة وتستطيع القضاء عليه بسهولة من أجل إنقاذ أختك.

أطلقت تنهيدة كبيرة وقلت: اعتقدت أنني حين قتلت ناتون قد قضيت على الشر بالكوكب، يبدو أن ابنيه أشد شرًا منه.

اقتربت إليّ نيفيا فربتت على كتفي وقالت: سنفرغ لهما يا فارس، علينا العودة الآن لننقذ أختك أولًا، إنها تختنق.

واصلنا السير مشيًا على أقدامنا حتى وصلنا لمملكة "الجواسيس"، تفاجأنا ببوابتها مفتوحة على مصراعيها ولا وجود للحراس عليها، رمقنا بعضنا البعض بنظرات متعجبة، انطلقنا مسرعين نحو البوابة، وجدنا الحراس ملقين على الأرض خلف البوابة بلا حراك، أسرع سراج إلى أحدهم فوجده مذبوحًا، خفق قلبي بقوة وتسارعت نبضاته وشعرت بأنه سيخرج من بين أضلعي، مشينا بضع خطوات في المملكة وتفاجأنا بعدد كبير من الجثث ملقية على الأرض ومذبوحة بطريقة وحشية، كانت الأجواء داخل المملكة

مأساوية ودامية، ورائحة الدماء تفوح في كل مكان، أُصِبنا جميعًا بالهلع وصرنا نركض نحو القصر بجنون، دخلت نيقيا القصر وبعدما دخلت أطلقت صرخة مهيبة فعرفت أن ثمة قتلى داخل القصر، حين دخلت القصر وجدت نيقيا تضع يديها على صدر أبيها الملك محب" وهو ممدد على الأرض ومذبوح بطريقة وحشية، كانت نيقيا تصرخ بطريقة جنونية فتجعد وجهها وانكمش وفقدت الوعي وسقط رأسها على صدر أبيها، هرولت لغرفة أمي وأنا أحمل إيمان وقلبي يختلج وتتسارع نبضاته بقوة، دخلت الغرفة فوجدت أمي ممددة على سريرها ومذبوحة، هرولت إليها ووضعت إيمان بجانبها وأنا أصرخ قائلًا: لقد أحضرت إيمان يا أمي، انظري إليها يا أمي، إنها تُشبهك، أرجوكِ يا أمي لا تفارقينا، لم أهنأ بكِ ولا بأحضانكِ، لقد فعلت كل هذا من أجلكما.

فتحت إيمان عينيها هنيهة وهي تهذي وتتمتم ببعض الكلمات وتلتقط أنفاسها بصعوبة ثم عادت وفقدت الوعي.

بكيت حينها كما لم أبكِ من قبل، شعرت وكأن الكوكب كله يضيق بي وكأنه صار أضيق عليّ من كفة الحابل، لقد خسرت الكتاب وخسرت أمي وأوشك الآن على أن أخسر أختي، كانت الأجواء في المملكة هادئة ويسيطر الحزن على كل أرجائها، وكأن جميع من فيها قد قُتل، فمن مات له أحد بكى عليه وتمدد بجانبه متجعدًا وجهه ومنكمشًا وفاقدًا لوعيه، كان الحزن يخيّم على كل ركن في المملكة، دخل عليّ سراج ومعه أحد الأطباء وفتاة تعمل مساعدة له، بعدما قام بفحص إيمان أخبرني بأنها تختنق لأنها فقدت بعض دمائها وإن لم تَعُد لكوكبنا ستموت.

رحل الطبيب بعدما أمر مساعدته بالبقاء بجانب إيمان وأعطاها بعض الأعشاب لتضعها في أنفها لتساعدها على التنفس قليلًا.

خرجت من القصر وجلست خارجه على مصطبة صخرية وأنا أضع رأسي بين كفيّ وتنهمر الدموع من عينيّ بغزارة، جلست حزينًا أحصي الخيبات فربتت على كتفي يد فالتفت لأعرف صاحبها فوجدته الحكيم أتوم، كان الحزن يُخيّم على ملامح وجهه وعيناه مليئتان بالحزن الشديد.

جلس بجواري فتنهد وقال: لعلك يا بني لو دخلت الكوكب هنا وأخبرناك أن أمك على قيد الحياة وموجودة على الكوكب هنا وماتت قبل أن تلتقي بها لكنت تمنيت حينها لو أنك رأيتها فقط لتودّعها أو لتحتضنها، والآن بعدما فقدت أمك؛ فحُقّ لك أن لا تحزن لأنك حظيت برؤيتها واحتضانها وتقبيلها والتحدث معها، عندما تستيقظ أختك ستحسدك على هذا.

صمت الحكيم أتوم هنيهة ثم أردف: لا تظن أنك دخلت الكوكب هنا بحثًا عن أختك وحين وجدتها ستعود برفقتها من حيث جئتما وأنك لم تفعل شيئًا؟ لا تُحصِ الخيبات وحدها يا بني، تذّكر كم مظلومٍ نصرته ورفعت الظلم عنه، وكم حزينٍ أسعدت قلبه، وكم مهمومٍ خففت عنه همّه وبؤسه، وكم شقيّ أعدت له حياته، وتذكر أيضًا كم ظالمٍ أوقفت ظُلمه وأطماعه، وتلك هي أعظم الأفعال يا بني، فمن لا يقف في وجه الظالم ويقول له "لا" فهو ميت يتنفس.

ران عليّ صمت طويل، فقطعت صمتي وقلت بصوت حزين متقطع: حين دلفت الكوكب هنا وعرفت أن أمي وأختي على قيد الحياة شعرت حينها وكأنني قد امتلكت الدنيا وما فيها، وجدت التضحيات من الجميع هنا وكأنهم من دمي ولست غريبًا عنهم، أحببت الحياة هنا، أحببت الناس، أحببت كل شيء يتعلق بالكوكب، كنت آمل بعد تحرير أمي وأختي بأن أعمل على إصلاح الكوكب، لم أفكر يومًا بأن أعود للأرض، لم أفكر ولو للحظة واحدة بأن أتركها وحيدة هنا، كنت أود إسعاد أمي حين أحرر إيمان وأخبرها بأنني أنوي الزواج بإحداهن هنا، فجأة خسرت كل شيء، خسرت الكتاب ثم خسرت أمي والآن أُوشك أن أخسر أختي.

أطرق الحكيم أتوم رأسه في حزن شديد ثم نظر إليّ وقال: ذاك الجرح في كتف أختك لو كان بكوكبكم ما كان ليمرضها، عد بها إلى كوكبكم وأنقذها.

نظرت إليه فتنهدت وقلت بخيبة أمل: كيف أعود بها إلى كوكبنا وليس بحوزتي الكتاب، ولو طاردت رع وموراس لأستعيد الكتاب ستموت إيمان قبل أن أستعيده، وهل تظن أنهما سيفرطان في الكتاب بسهولة بعدما حصلا عليه؟

تنهد الحكيم وقال: ألم أقل لك من قبل يا بني أنك أقوى من الكتاب؟

صمت الحكيم "أتوم" هنيهة ثم أضاف: هل تذكر حين كنت تبيت في غرفة الكهف قبل ذهابك لمملكة "الغوائل" واستيقظت من نومك ولم تجد الكتاب وقالت لك نيفيا أن الكتاب بحوزتي؟

عقدت حاجبيّ متعجبًا فتابع قائلًا: حينها اطّلعت على تعويذة خروجك من الكوكب وحفظتها، كنت أعلم أن ثمة أشياء خارج توقعاتنا ستحدث..

غضنت حاجبيّ وقلت بتعجب: وما فائدة التعويذة دون الكتاب! أليست التعويذات داخل الكتاب لا تعمل إلا بلمسها أثناء ترديدها؟

_ يحدث هذا مع الأشخاص العاديين فقط، أما أنت فتمتلك الدم النبيل، تعويذات الكتاب تعمل معك دون لمسك للكتاب أثناء ترديدها.

_ فلماذا إذًا أخبرتني بأن أحمل الكتاب معي أثناء ذهابي لمملكة "الغوائل"؟ ولماذا أخبرتني أيضًا بأن أضع يدًا على الكتاب واليد الأخرى أضعها على رأس إيمان حين أردد التعويذة وأحولها؟

_ لأن الكتاب في يدك يضيف لك السيطرة والهيمنة على الأشياء التي تردد عليها التعويذة، ولو رددت التعويذة على أختك دون لمسك للكتاب كنت ستفقد السيطرة على أختك وكانت ستنفجر أمام ناظريك بعد مدة قصيرة من تحويلها.

_ تعني أنني لو رددت التعويذة وخرجت من هنا سينفجر الكهف؟

_ الجبل كله سينفجر وليس الكهف وحده.

_ هذا مستحيل، هل أنقذ أختي وأخرج من هنا وأترككم في تلك الظروف، وأيضًا لن أستطيع الدخول إليكم مرة أخرى بعدما ينفجر الجبل.

_ ومن قال لك أنك لن تستطيع الدخول إلينا مرة أخرى؟

نظرت إليه بتعجب فلاحت على وجهه ابتسامة لطيفة وتابع قائلًا: لكوكبنا مداخل أخرى من كوكبكم، والكتب لم تنتهِ، لو بحثت عن الكتب والمداخل الأخرى ستجدها.

صمتَ الحكيم أتوم هنيهة ثم أردف قائلًا: من يجتهد سيصل لمبتغاه في نهاية المطاف، ومن يجتهد ولم يصل لمبتغاه فيكفيه فخرًا أنه حاول، إنما الخزي والعار على من لا يجتهد ويجلس على قارعة الطريق يشكو أحواله للمارين.

تنهد الحكيم أتوم وقال بنبرة صارمة: هيا احمل أختك واذهب بها صوب الصخرة الطائرة في جبل "الزرقاء" وخذ معك مرادًا والفتاة الصغيرة، لقد غربت الشمس بكوكبكم منذ قليل، لتدخلوا كوكبكم بالليل حتى لا يفطن لكم أحد.

_ وأنتم؟

_ ما بنا نحن؟

_ أعني كيف ستواجهون رع وموراس والكتاب صار بحوزتهما الآن؟

_ مثلما كنا نواجه أباههما من قبل، إن مات منا رجل فكلنا رجال.

ران على الحكيم أتوم صمت خفيف ثم تابع بنبرة هادئة: لقد أيقظت قلوبنا من سُباتها يا بني، فمن كان يصدق أن أتوم يترك الجبال والكهوف ويأتي لهنا؟

منذ أن تم أسر والدتك وأنا لم أبرح لا الجبال ولا الكهوف.

عقد حاجبيه وقال بحماس: هيا يا بني احمل أختك وعد بها سريعًا قبل مغيب الشمس، لقد تم تجهيز عربتين ستحملكم لجبل "الزرقاء".

دخلت الغرفة وحملت إيمان وخرجت بها من القصر ووضعتها داخل العربة، كانت قلة من شعب المملكة متجمعين خارج القصر ليقوموا بوداعنا، كانت وجوههم مليئة بالحزن ونظراتهم يغلب عليها التأثر والخيبة، كان الأطفال يمسكون سيوفًا خشبية ويرفعونها لأعلى ويرددون بصوت واحد قائلين: سيعود أوناسيو، حتمًا سيعود.

لم أستطع حينها إيقاف دموعي التي هطلت من عينيّ وقلت بصوت باكٍ: حتمًا سأعود.

دخلت القصر حيث غرفة نيڤيا فوجدتها ممددة على فراشها وهي فاقدة الوعي، اقتربت لأذنها وهمست إليها قائلًا: "مر إك" يا نيڤيا، لاحت على وجهي ابتسامة لطيفة فتابعت هامسًا: تلك المرة ليست ترحيبًا ولا ودًا؛ بل عشقًا أيتها الجميلة.

خرجت بعدها وذهبنا لجبل "الزرقاء"، كان الجبل على بُعد مسافة قريبة من المملكة، الشمس تملأ المكان ولم تظهر النجمة الزرقاء أعلى الجبل، بعض الأساطير هنا تقول بأن تلك النجمة ليست مجرد نجمة عادية، بل هي كوكب الأرض بلونه الأزرق الذي يطغى عليه، وأن ذلك الجبل هو بوابة الدخول للكوكب، اقترب إليّ سراج والحزن يملأ وجهه فقال بنبرة حزينة: سأفتقدك يا صديقي، سنفتقدك جميعًا.

عانقته والدموع تذرف من عينيّ فقلت له مازحًا: عندما أخرج عُد إلى المملكة سريعًا حتى لا تتأخر على وجبة الغداء، فأنا أعرفك؛ تجوع سريعًا.

لاحت على وجهه ابتسامة لطيفة وقال وهو يرفع حاجبه الأيسر: لا تقلق يا صديقي، لقد أحضرت غدائي معي.

بعدما قمت بتوديع أبريس وأبيدوس اقترب إليّ الحكيم أتوم وقال: بعدما تقوم بترديد التعويذة التي علمتك إياها وعندما تخرجون من الكهف لا تنسَ أن تهرولوا بعيدًا عن الجبل، سينفجر الجبل بعد خروجك بلحظات قليلة.

هززت له رأسي وصعدنا فوق الصخرة الطائرة وأنا أحمل إيمان ويحمل مراد الفتاة الصغيرة، قمت بترديد التعويذة فهبت عاصفة شديدة ثم ظهرت بعدها دوامة ضبابية واحتاطت بنا، بدأت الصخرة بالتحرك والدلوف لداخل الجبل، رأيت نيڤيا قادمة نحونا وهي تسرع بحصانها، حين وصلت ترجلت من على ظهر حصانها وصارت تلوّح لنا بيدها مودعة وهي تحرك شفتيها وتصيح بكلام لم أفهم كنهه، كنت أراقب انطباعات وجهها والحزن الشديد الذي يملأ عينيها، لقد بدا لي وجهها وكأنه وجه امرأة عجوز قد تخطت الثمانين من عمرها، أعلم أن ذلك من تأثير الحزن، تلك المسكينة؛ قد فقدت أمها وأخاها من قبل، والآن فقدت والدها وما زالت قوية وصامدة أو ربما هي تتظاهر بقوتها تلك، لقد صارت الآن وحيدة على

الكوكب، لقد استيقظت من سُباتها وجففت دموع قلبها وجاءت إليّ مسرعة لتودعني، ولكن؛ أشعر وكأنني قد خذلت قلبها، لم أنتظرها لتستيقظ وأقوم بتوديعها، شعرت برجفة تجتاح قلبي وهي تنظر إليّ نظراتها المودعة الحزينة، ارتجفت شفتاي وقلت بصوت حزين:

_ سأعود من أجلك يا نيڤيا

لو لم يكن لديّ خيار سوى تدمير كوكبنا لأعود إليكِ سأفعل.

دلفت بنا الصخرة لداخل الجبل وصارت تصعد بنا لأعلى بسرعة مهيبة، بعد مدة قصيرة وجدنا أنفسنا خارج كهف "نجوسو" الموجود بجبل بني حميل بقريتنا، أسرعنا مبتعدين عن الجبل ونحن نهرول بطريقة جنونية، بعد لحظات قليلة دوى صوت انفجار مهيب بالجبل فانفجر وتفتت وصار رمادًا، أخبرت مرادًا بأن يعود هو للقرية ويعيد الفتاة الصغيرة لعائلتها.

عقد مراد حاجبيه وسألني بفضول شديد: ألا تعود معي للقرية؟

_ لو عُدت لن يدعنا السيد ناصر وشأننا، ربما يقتلنا لو عرف أنني المتسبب في انفجار الجبل وغلق ممر الدخول لكوكب أوناسيو، لقد أنفق أموالًا طائلة من أجله.

قام مراد بمعانقتي وطالبني بأن أنتبه لنفسي ولإيمان جيدًا، اقتربت إليّ الفتاة الصغيرة وقامت بمعانقتي ثم نظرت لإيمان وأنا أحملها بكلتا يديّ وقامت بطبع قبلة كبيرة على جبينها.

نظرت لمراد فقلت له: لا تخبر أحدًا بالقرية أننا على قيد الحياة، أخبرهم بأننا قد قُتلنا داخل الكوكب.

تنهد مراد وقال: وأين ستذهبان؟

ابتسمت وقلت له: أرض الله واسعة يا صديقي.

غادر مراد ومعه الفتاة الصغيرة، ظهرت حشود غفيرة من سكان القرية وهم يهرولون ناحية الجبل وهم يُضيئون طريقهم بالمصابيح، ظهرت سيارات الشرطة ودوى صوتها في كل مكان، حملت إيمان وسرت بها نحو الأراضي الزراعية مبتعدًا عن القرية.

****

أسفل شجرة التوت الواقعة بإحدى الأراضي الزراعية قريبًا من قضبان السكك الحديدية تمددت وبجواري إيمان وصرت أراقب بعينيّ الليل وقد نشر عباءته السوداء الموشاة ببعض النجوم وسحر القمر، فتحت إيمان عينيها وأطلقت تنهيدة كبيرة وأنا أراقبها بابتسامات لطيفة، نظرت إليّ وإلى ملابسي الجلدية بتعجب وقالت: هل عُدنا للقرية؟

_ نعم، لقد عدنا.

_ لماذا لم نعد للبيت؟ لقد اشتقت للسيد سليمان كثيرًا.

لاحت على وجهي ابتسامة ساخرة وقلت بسخرية: يبدو أنكِ لم تكوني على علم بكل ما يحدث من حولك في الكوكب.

شردت إيمان قليلًا ثم نظرت إليّ وقالت متسائلة: ماذا فعل بهي وأمه؟

تنهدت وقلت بنبرة حزينة: لقد ماتا.

أطبقت عينيها في حزن وقالت: لقد كانا صالحين، أحزنني موتهما.

عادت ونظرت إليّ وقالت: سمعتهما يتحدثان عن رجل بشري دلف كوكبهم وأنجب فتىً اسمه أوناسيو، من هو أوناسيو؟

_ أوناسيو هو بوبو.

_ ومن هو بوبو؟

_ "بوبو هو أوناسيو

زفرت "إيمان" وقالت بحنق: يبدو أنك بمزاج جيد ولذلك أراك تمزح.

ران عليها صمت خفيف ثم نظرت إليّ وقالت: أنا جائعة جدًا يا فارس.

_ لو كنت أعرف هذا لقاسمت سراج في غدائه وأحضرته لكِ.

_ من هو سراج؟

_ هو إله الأكل عند القدماء المصريين.

زفرت إيمان وقالت بحنق:

_ قص عليّ ما حدث معك بالتفصيل في هذا الكوكب يا فارس، لا تعجبني طريقة تحدثك معي بتلك الألغاز.

_ سأخبرك بكل شيء، ولكن علينا أن نغادر هذا المكان ونستقل القطار الذاهب إلى الاسكندرية.

رفعت حاجبيها وقالت بسعادة: هل سنذهب لعائلة أمي في الاسكندرية؟

_ عائلة أمك ليست في الاسكندرية.

_ فأين إذًا؟

ران عليّ صمت طويل وهي تنظر إليّ بتعجب فقاطعت صمتي متسائلة: أين عائلة أمي يا فارس

ابتسمت وقلت: هي في أوناسيو.

زفرت إيمان وقالت بغضب: هيا انهض، وحتى نصل لمحطِ القطار ستخبرني بكل ما حدث.

أطلقت تنهيدة كبيرة وقلت: حين دخلت الكوكب التقيت بسراج.....

****

أطلق القطار صافراته على المحطِ معلنًا التحرك، انطلق بنا القطار نحو الإسكندرية ، كانت إيمان تجلس بجانبي وهي غارقة في النوم وتضع رأسها على كتفي، لقد بكت كثيرًا حين أخبرتها بإعدام أبي وقتل أمي، ودّت لو أنها رأتها ولو لمرة واحدة، أو أنها قبلتها قبلة واحدة أو عانقتها عناق واحد، تذكرت حينها كلام الحكيم أتوم وأيقنت أنه على حق، أحيانًا يمتلك الشخص شيئًا يظنه عاديًا ولا يكترث لوجوده معه، بينما يكون هذا الشيء هو بمثابة حلم لشخص آخر غيره.

كنت أراقب المزارعين في الأراضي الزراعية من النافذة والقطار يسير بأقصى سرعته، دخل ثلاثة أشخاص لعربة القطار التي كنا متواجدين بها، كانت ملابسهم تدل على علو شأنهم، صارت أعينهم تطالع كل الأشخاص المتواجدين بعربة القطار وكأنهم يبحثون عن شخص معين، خفق قلبي وقلت في نفسي: هل مراد قد أخبر السيد ناصر بهروبنا وأرسل هو رجاله ليلحقوا بنا؟ ولكني لم أخبر مرادًا بأنني سأستقل القطار ولم أخبره أيضًا بوجهتي، فكيف استطاعوا الوصول إلينا إذًا؟

نظر أحدهم للحقيبة التي كنت أضعها على ركبتيّ فهز رأسه لمن معه مع ابتسامة خفيفة فجلسوا وهم يراقبوننا بنظرات ثاقبة، عقدت حاجبيّ متعجبًا ونظرت للحقيبة وصرت أقلب النظر فيها بتمعن، اكتشفت وجود قطعة معدنية دائرية الشكل ومثبتة بالحقيبة في أحد جوانبها، اندهشت حين رأيتها وقلت في نفسي كيف لم أنتبه لوجودها من قبل؟ يبدو أن السيد ناصر قد أمر السيد سليمان بتثبيتها على الحقيبة ليراقبني، فتحت الحقيبة خفية وسحبت الأموال والأغراض منها ووضعتهم داخل جيبي، في تلك اللحظة فتحت إيمان عينيها فهمست في أذنها قائلًا: هل تثقين بي؟

عقدت حاجبيها بتعجب فتابعت هامسًا: السيد ناصر يراقبنا بواسطة الحقيبة وقد أرسل ثلاثة أشخاص وهم متواجدون بالعربة الآن، لا تلتفتِ حولك ولا تنظري لأحد حتى لا ينتبهوا لنا، حين يتوقف القطار في إحدى المحطات أريد منك التظاهر بأن بطنك تؤلمكِ وتريدين الذهاب للمرحاض وأنا سأرافقك ونهرب.

أطبقت إيمان عينيها وهزت لي رأسها بهدوء، توقف القطار فصرخت إيمان صرخة عالية وهي تمسك ببطنها فتركت الحقيبة على المقعد الذي كنت أجلس عليه لأوهمهم بأننا سنعود، سرت معها نحو المرحاض وأنا أمسك بيدها، اتجهنا نحو الباب ونزلنا من القطار مسرعين واختفينا عن أنظارهم....

****

تمت بحمد الله

محمد أبو المعارف

فبراير 2023

ONASIO

أوناسيو

أغلقت النافذة فمشيت وجلست على
كرسي خشبي كان بوسط الغرفة وأطرقت
رأسي إطراقاً طويلاً لا يتخلله حركة ولا نأمة،
فبكيت بكاءً شديدًا وقلت: كنت أحب الحياة
من أجلك يا " إيمان " فواللّه ؛ إني أحبك حبًا معقودًا
بحبل متين لا يحلة إلا ريب المنون،
واللّه؛ لن يهدأ لي روع ولا يسكن لي نبض
حتى ألقاكِ أو أهلك دونك.

محمد ابو المعارف

غلاف: مروة سلامة